رواية

آليس ووكر



حياة غرانغ كوبلاند الثالثة

ترجمة: سيزار كبيبو

آليس ووكر

حياة غرانغ كوبلاند الثالثة

ترجمة : سيزار كبيبو

جياة غرانغ

كوبلاند الثالثة

رواية

Author: **Alice Walker**

Title: **The Third Life of Grange Copeland**

Translated by: **Sezar Kbibo**

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2020**

اسم المؤلف: **آليس ووكر**

عنوان الكتاب: **حياة غرانغ كوبلاند الثالثة**

ترجمة: **سيزار كبيبو**

تصميم الغلاف: **ماجد الماجدي**

الناشر: **دار المدى**

الطبعة الأولى: **2020**

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

إلى أمي،
التي شقت طريقها من الفراغ
وإلى ميل، زوجي

إلى أبناء شقيقيّ:
مايا وإبراهيم وبحر ومارين...
عسى أن يكون زمانكم أجمل

سيزار

مقتطفات من آراء النقاد حول رواية
«حياة غرانغ كوبلاند الثالثة»

«آليس ووكر كاتبة موهوبة إلى أبعد الحدود»

• **مجلة «ذا نيويورك تايمز بوك ريفيو»**

«تمتاز الكاتبة بإبراز مقاربات متجددة ومبتكرة.. وتقدم ووكر العائلة بطريقة حيادية، وتترك للقارئ معرفة إلى أي مدى تأثرت العائلة بتراث الرق من جهة وبوعيها لمظاهر التحامل والكراهية التي ترزح تحتها وتحيط بها من كل حدب وصوب من جهة ثانية».

• **صحيفة «ذي واشنطن بوست»**

«لم يحاول أحد قط تقريباً إخبارنا عن أيام السود الأولى في أميركا، أو يطلعنا على خفايا حياتهم... الراوية آليس ووكر كانت أول من يفعل ذلك».

• **مجلة «ذا نيويوركر»**

«آليس ووكر روائية موهوبة جداً، رؤيتها استشرافية بطريقة استثنائية».

• **مجلة «ذي أميركان سكولر»**

«صراعات العائلة التي تعرضها ووكر في رواية «حياة

غرانغ كوبلاند الثالثة» مثقلة بأجواء درامية قاسية، وهذه الدراما جزء جوهري من الرواية.

• **موقع «سالون» الإلكتروني**

«تدغدغ آليس ووكر إنسانيتنا وتحييها من خلال التركيز على الجانب الإنساني في شخصياتها... قصة محبكة وصادقة ومرهفة... معتّقة بلحظات تطفح بالحس الفكاهي والدفء، هذا الحس والدفء هو ما أعان الرجال والنساء على تحمل كل تلك المآسي... تبدو ووكر واثقة من نفسها لدرجة أنها لا تهاب إطلاق العنان للسرد وللشخصيات والأحداث وروح الرواية لتتحدث عن نفسها بنفسها».

• **صحيفة «شيكاغو ديلي نيوز»**

«رواية تصويرية أصيلة.. تتحرك بحنوٍ ورقة رغم أنها تغص بالمآسي ... تكتب [آليس ووكر] بقوة وحساسية عالية، ويسري النَفَس الإنساني في جميع أوردة كتابتها».

• **مجلة «بابلشرز ويكلي»**

«آليس ووكر إحدى أفضل الكتّاب الأميركيين في وقتنا الراهن».

• **صحيفة «ذي واشنطن بوست»**

رواية «حياة كوبلاند الثالثة» هي باكورة روايات آليس ووكر. تسجل الرواية الظهور الأول الميمون لصوت جديد في الأدب الأميركي، وتقدم قصة تعاطف وإحسان من خلال حكاية مزارع أجير أسود يعيش في جورجيا، يسير بخطى ثابتة نحو مصيره المأساوي. يهجر غرانغ

كوبلاند زوجته وابنه في جورجيا بعد يأسه من عقم الحياة في الجنوب ويتجه نحو الشمال. لكنه يعود أدراجه بعد سنين عقب تذوقه ذلاً ومهانة في الشمال لا يقلان مرارة عن الهوان الذي تجرعه في الجنوب. ولدى عودته، يجد ابنه براونفيلد يقبع في السجن بتهمة قتل زوجته. وبوصفه وصياً على ابنة براونفيلد الصغرى، يواجه غرانغ كوبلاند فرصة ثالثة وأخيرة ليحرر نفسه من العبودية الروحية والاجتماعية.

«تكشف ووكر بشجاعة وجرأة حقيقة الرجال والنساء، السود والبيض، الله والحب. ويخوض القارئ برفقة شخصيات ووكر المذهلة رحلة رائعة، ويتغير بفعل المعرفة والحب، والأهم من ذلك بفعل الدهشة».

• **مجلة «إيسنس»**

«لا تهاب آليس ووكر أية معضلات أخلاقية أو عاطفية، إنها كاتبة مذهلة».

• **صحيفة «سان فرانسيسكو كرونيكل»**

لطالما أشعلت كلمات أبي في داخلي رغبة جامحة بالبكاء، لكن الحياة والتهكم علّماني كيف أرتدي قناعاً، لهذا آثرت أن أضحك عوضاً عن أن أبكي. ظن أبي أن المعاناة لم تعرف يوماً طريقها إلى حياتي وأن كلماته لا تحدث أي صدى في قلبي، وخُيّل إليه بسبب قناعي أنني ابنة ساخرة بلا حياء، بلا روح... لكن في حقيقة الأمر، تغلغلت كل كلمة قالها في أعماقي.

ة مانويل، في فيلم «أبناء سانشيز»
إخراج أوسكار لويس

آه يا بني أمي
لنبكِ معاً!
هلمّوا
هيّا نرثي زوجي، لننتحب على موت الأمير
ننوح فوق رماد النيران المستعرة!
آه، هذا البيت أضحى يباباً
أغلقوا البوابات
ليغطيها شوك لاكاري
تكريماً للأمير
وريث العرش رحل!
والبراري ابتلعت شبابنا!

• أنشودة لاوينو «مرثية للشاعر أوكوتو بيبيتك»

قال ريتشارد لسارتر: «يتجسد الخطر الأكبر في عالمنا اليوم في احتمال أن يتبخر كل شعور وتصور حول الكائن البشري».

• ريتشارد رايت إلى جان بول سارتر
في كتاب «ريتشارد رايت» للكاتبة كونستانس ويب

الفصل الأول

-1-

وقف براونفيلد إلى جوار والدته، وسمّر عينيه من مكان وقوفه في فناء البيت على سيارة عمه سيلاس أثناء رجوعها القهقرى. خفف عمه السرعة عندما اقترب من صخرة مدببة تسببت قبل أسبوع في كسر علبة زيت المحرك. وحالما عبَر هذه البقعة التي ما انفك يلعنها على مدار أسبوع كامل كلما اقتربت سيارته منها، مد ذراعه ولوّح لهم بحبور. لوّح براونفيلد بحزن، وترقرقت الدموع في عينيه. تعذرت رؤية الخالة مرلين من النافذة الخلفية، لكنها لوّحت من النافذة الأمامية بمنديلها الأزرق الأنيق، ورفرف المنديل بمرحٍ كراية. ألصق ابنا عم براونفيلد وجهيهما على النافذة الخلفية، فيما تحركت برتابة أيديهما الناعمة التي من الصعب رؤيتها، أنهكهما التلويح، فهما يودعان ابن عمهما منذ أنهيا الفطور.

كانت السيارة جديدة من طراز بويك 1920، طويلة ومرتفعة عن الأرض وخضراء لامعة ذات مصابيح أمامية كبيرة ومبهرة تشبه عيني الضفدع، فيما فرشها أزرق بالكامل، ومقاعدها ناعمة ووثيرة. بينما مقابض الأبواب فضية وصغيرة، تفتح الأبواب وترفع النوافذ وتنزلها بطريقة مدهشة. وبسبب تخبطها فوق الطريق المحفّر، تسببت أغصان أشجار الدردار المنخفضة في خدش غطاء السقف القماشي. شعر براونفيلد بالإحراج بسبب الطريق الوعر والضرر الذي ألحقه في سيارة عمه. أحبّ العم سيلاس سيارته وأمضى فترة الصباح برمتها يغسلها ويلمّع أقراص عجلاتها ويزيل الغبار عن درجة الصعود. وها هي الآن

تقذف العم سيلاس وزوجته والأولاد في الهواء وتهوي بهم مجدداً كلما مرّت فوق أخاديد الطريق وحُفره. تنهّد براونفيلد عندما سمع صوت ارتطام جسم السيارة بالأحجار. كان الطريق مخصصاً للبغال والعربات والأقدام العارية فقط.

قال والده: «إنّ قيادة عربة أسهل».

«هذا إن لم تكن عربة بتلك الضخامة». نظرت والدته إلى السيارة نظرة تطفح توقاً، لكنها تخلو من أي حسد.

راقب براونفيلد السيارة تنعطف وتختفي أخيراً عن الأنظار، ثم راقب تلاشي آخر ذرات الغبار التي خلّفتها وراءها. اشتاق فوراً لابني عمه، برغم أنهما سخرا منه واعتبراه غبياً كونه لم ير مطلقاً فيلماً سينمائياً ولم تقع عيناه قط على منازل مرصوصة فوق بعضها وتكاد تلامس السماء. مكث ابنا عمه معهم أسبوعاً واحداً، وتخطيا منذ اليوم الأول مرحلة الانبهار بخبراته الزراعية المتواضعة. علّمهما كيف يحلبان البقرة ويطعمان الخنازير ويعثران على بيض الدجاج، لكنهما أتخماه في اليوم التالي بالحديث عن السيارات وأضواء الشوارع والطرق المُعبّدة وعمّال النظافة؛ وعن شيء صعداه ذات يوم في متجر ضخم ورفعهما إلى أعلى فأعلى من طابق إلى آخر دون الحاجة إلى اجتياز درجة واحدة. أذهلته هذه المعلومة وتخلى أخيراً عن محاولاته العبثية لفهمها إذ كانت أكبر من قدرته على الاستيعاب. سخرا منه لأنه عاش في الريف ولم يغادره يوماً ولم ير شيئاً. عيّراه لأن والده مملوك يعمل لدى رجل فقير أبيض، وأخبراه أن والدهما أي عمه سيلاس هاجر إلى فيلادلفيا ليكون مدير نفسه، وأن والدته (والدة براونفيلد) أرادت هجره والذهاب معهم إلى فيلادلفيا في الشمال، كما رغبتْ بأن يذهب براونفيلد إلى المدرسة وسئمت من والده وتود هجره على أي حال. ابنا عمه أخبرا براونفيلد هذه الأمور وغيرها الكثير. أثارا حيرته وارتباكه وجرحا مشاعره. لكنه اشتاق لهما رغم ذلك، كانا من عالم لم يره قط. الآن وقد رحلا، عاد إليه

الشعور الذي يراوده عادة في الشتاء فقط، ولم ينتَبْه قط في شهر حزيران من قبل، إحساس بترقب حدوث شيء ما سيستغرق وقوعه زمناً طويلاً جداً. قال: «ليتنا نعيش في فيلادلفيا».

«حسناً، إننا لا نعيش هناك». كان هذا أسلوب والده في الحديث.

نظر براونفيلد إلى غرانغ باستغراب. لم يبادله والده قط أطراف الحديث عندما يكونان بمفردهما. وحتى عندما يكونان وحدهما، يتصرف والده كما لو أن الحديث مع ابنه فرضٌ متعبٌ ومنهك.

قال براونفيلد: «يعشق العم سيلاس الحديث عن أتوموبيله»، تلعثمت شفتاه بالكلمة. كانت هذه كلمة عمه، كلمة من المدينة- عادة ما استخدموا في الريف كلمة سيارة. ما يزال البعض يسمونها عربة، كما لو أنهم لم يألفوا بعد استخدام الكلمة المرادفة للمركبة التي لا تجرها أحصنة.

«ليتنا نملك أتوموبيلاً مثل هذا!».

«حسناً، لا نملك أتوموبيلاً مثل هذا».

قالت مارغريت: «كلا، لا نملك».

قطب براونفيلد حاجبيه. اعتادت والدته على موافقة أبيه كلما كان ذلك ممكناً. ورغم أنه لم يكن سوى في العاشرة، أثار إذعانها تساؤل براونفيلد. اعتقد أن والدته تشبه كلبهم بطريقة ما عندما تذعن إلى والده.

«ينبغي أن نكون شاكرين لوجود سقف يؤوينا ولتوفر ثلاث وجبات طعام في اليوم».

كان طعامهم في الحقيقة أقرب إلى أن يكون وجبة واحدة في اليوم. ابتسمت والدة براونفيلد لابنها، وغمرته بإحدى تلك الابتسامات النادرة المباغتة التي تنير وجهها الناعم الذي يشبه شكل القلب. كانت بشرتها برونزية غامقة يعلوها بريق كريمي يشوبه بعض الاحمرار. أسنانها صغيرة ومنتظمة وأنفاسها عطرة تعبق برائحة الحليب. امتلك براونفيلد

يدين تشبهان يدي أمه، يدان طويلتان ونحيلتان وأرستقراطيتان، أصابعها خُلقت لتتزين بالمجوهرات. لكن والدته لم تكن تملك حتى خاتم زواج.

أصغى براونفيلد إلى السكون المألوف الذي لف المكان. قبع منزلهم في نهاية طريق طويل ووعر ألحق أضراراً جسيمة بسيارة عمه. في الواقع، لم يعدُ الطريق كونه درباً متفرّعاً عن الطريق الرئيسي الطينيّ المُعبّد بإتقان. تحاشى معبِّد الطريق- وهو رجل يقود آلة صفراء كبيرة تشبه الشاحنة- تماماً تعبيد درب بيتهم، ولهذا كان الدرب غير مرصوف، وكثيراً ما يمتلئ بالحفر الطينية عندما تُمطر. بُني المنزل في جزء أجرد من الغابة قُطعت أشجاره وأحاطت به الغابة من كل الأطراف. غصت الغابة بالحيوانات والطيور، لم تكن حيوانات ضخمة أو طيوراً ضارية، لهذا مرت أيام بأكملها لم تُسمع فيها أية نأمة، وبدت السماء كوشاح صوفي دائري أزرق.

رأت عينا براونفيلد النور هنا في الجنوب، في ولاية جورجيا، وسط سهول القطن المترامية، وكان قيظ الصيف الخانق أول شعور أدركه، ومن ثم عرف فترات طويلة من الصمت المطبق الذي لا يعكر صفوه شيء. اعتاد على الوحدة منذ نعومة أظفاره، وحبا بمفرده في المنطقة الجرداء من الغابة، وطارد السحالي والأفاعي، وكابر برصانة على الآلام المبرّحة التي خلّفتها جروحه وكدماته ريثما يحين موعد عودة والدته من عملها مع حلول الظلام.

اعتادت والدته تركه كل صباح بعد أن تعانقه على عجالة وتلقمه اللهاية التي يظل يمصها في الطقسين الرطب أو الجاف، قاطعاً المنطقة الجَرداء من الغابة المغبّرة أو الموحلة جيئة وذهاباً، إلى حين موعد عودتها. كانت تعمل طوال اليوم على صنع الطعوم لقاء أجرٍ يومي. كانت قدماها نظيفتين عندما تغادر المنزل ومغطيتين بطبقة من الوحل عند عودتها. واظبت على حفظ الطعوم التي «صنعتها» في علب، لتُباع

في البلدة إلى نبلاء يهوون الصيد ويمارسونه كرياضة. اعتادت والدته أخذ براونفيلد معها إلى مصنع الطعوم عندما كان طفلاً، لكنه أعاق عملهم، كما أن أكوام الطعوم الملتوية- التي رُميت أولاً على طاولة طويلة لفرزها- أفزعته. بدت الطعوم مثل جزء من الطاولة، وأجلسته والدته في إحدى المرات بالقرب من الطعوم وحبا إلى أن أصبح أمامها وجهاً لوجه. شاهد الديدان تزحف بانسيابية، متخذة حركة متموجة عمياء أثارت رعبه. هاج وماج، فأُمرت والدته بإعادته إلى المنزل على الفور ومُنعت من اصطحابه مجدداً.

لجأت في بادئ الأمر إلى وضعه داخل سلة وتركه في المنزل مع لهّايته التي تثبتها جيداً في فمه. كان يمصها طوال اليوم إلى أن تتحول إلى مجرد خرقة بالية لا طعم لها. ثم عمدت عندما تعلم المشي إلى تركه على درجات الشرفة، حيث تقاسم الدرج في أوقات الكسل والخمول مع كلبهم الأجرب الهزيل. وبينما حلّقت الحشرات حول الخطم المشورب للكلب، طافت أيضاً حول وجهه. لم يكن هناك من يهشها أو يبدّل الخرقة الجاذبة للحشرات التي أضحت مبللة بالكامل حول خصره البرونزي الرطب المتورّم. أُصيب لساعات بخدرٍ واهنٍ رتيب. ودفعه جوعه إلى الترنح وكأنه مصاب بدوار، وبرقت عيناه الناعستان على نحوٍ غير طبيعي.

غطت القروح جلده عندما كان في الرابعة من عمره. ونهش مرض الثعلبة فروة رأسه، مخلّفاً بقعاً صلعاء بمساحة عملة نقدية من فئة الأربعة قروش. وفي الفترات التي تنضج فيها ثمار البندورة التي تزرعها والدته، غطت قروح البندورة ساقيه حتى الركبتين، لأن طعامه كان يقتصر حينها على البندورة، وسال القيح من البثور والدمامل المتفجرة تحت إبطيه. غسلت والدته القروح بمياه الحصى الزرقاء. وبين ليلة وضحاها، وفجأة من دون سابق إنذار، اختفت أيام الكسل والجلوس الطويل وكشط التبقعات الناجمة عن قروحه، وحلّت مكانها سلسلة بطيئة ورتيبة

من المهام والواجبات التي أُلقيت على كاهله. أطعم الخنازير وجلب الحطب وساق البقرة على طول فسحة الغابة بحثاً عن عشب غض.

علمته والدته في السادسة كيف يطعم البقرة ويحلبها. ثم أصبح مسحوراً بصبر البقرة الهادئ المتأني، وعشق وضع حليبها الغني في دلو قصديري وشربه دافئاً لتسيل قطرات الحليب على ذقنه.

تولى والـده مهام عديدة ومنها زراعـة القطن وحصاده ورشه بالمبيدات الحشرية وجمعه من الحقول الممتدة على طول نصف ميل بمحاذاة الطريق الرئيسي. عمل براونفيلد بجدٍ هناك أيضاً جنباً إلى جنب مع عمال آخرين من الأطفال مذ كان في السادسة ولمدة أربع سنوات، فيما عمل والده مع رجال ونساء في جزء آخر من الحقل. كانت حقول القطن بدورها سخيّة في صمتها. حال إرهاق الأطفال وإنهاكهم دون قدرتهم على اللعب كما حُظر عليهم اللهو كي لا يفسدوا القطن، فيما تحدث الكبار بصوت خفيض وبطريقة ودية وبدا صوتهم مثل طنين دبابير متقطع، وبات طنين محادثاتهم جزءاً من الصمت، إذ لم تجد أي من الكلمات التي قالوها طريقها إلى مسامع الأطفال.

توقف الجميع عن العمل في نهاية اليوم. كانوا قرابة عشرين رجلاً ولكل واحد منهم عدة أطفال يعملون في قسم الأطفال من الحقل. تجسد عمل الأطفال في المرور على الصفوف التي عمل بها أهلهم قبل أسبوع ليلتقطوا ما درجت تسميته بـ «فتات القطن». عندما أبصر الأطفال أهلهم يضعون أكياسهم جاؤوا ووقفوا إلى جوارهم على طرف الحقل، وانتظروا جميعاً قدوم الشاحنة. انتظر براونفيلد الشاحنة مع والده. لم ينظر والده إليه قط، ولم يلحظ وجوده إلا عندما أتى دوره لرفع كيسه ووَضعه في خلفية الشاحنة فور وصولها. لطالما خشي براونفيلد من صمت والده، وكان خوفه يصل إلى ذروته عندما تصل الشاحنة، إذ تتجمد ملامح والده وتبدو مثل قناع بارد غير مألوف يبعث على الفضول وعدم الارتياح. بدا كما لو أن والده أصبح حجراً أو رجلاً آلياً. طغى

تصلّبٌ متجهمٌ على نظرته وأصبح مجرد جماد، شيفرة، شيء متحرك تسري به رعشات متوترة، هذا إن حدث وتغيرت ملامحه أصلاً. كان العاملون يحبسون أنفاسهم أثناء وقوف الشاحنة في الحقول على مسافة منهم، وينشغل أفراد عائلة مكونة من خمسة أو ستة عاملين بأسئلة مرتبكة حول إن كانوا سيحصلون، مجتمعين، على دولار كامل. عمد بعض العاملين إلى تبادل الضحكات والنكات مع الرجل الذي قاد الشاحنة، لكن نظرهم ما كان ليطال سوى يديه وحذائه وسرواله، لم يرفعوا بصرهم قط ليحدقوا في عينيه مباشرة، وغدت نظراتهم مزيجاً من الضحكات الصغيرة المخاتلة واليأس المحرج المذعن.

لم يبتسم والد براونفيلد للرجل أبداً. علت وجهه تعابير جامدة؛ وكانت حركاته عند وضع الأكياس في الشاحنة متخشبة وآلية. اعتقد براونفيلد أولاً أن والده تحول إلى حجر بفعل الشاحنة نفسها. كانت الشاحنة كبيرة تصدر ضجيجاً هائلاً ولونها رمادي عسكري بارد. وعملت عجلاتها الكبيرة على تسوية سيقان القطن بالأرض وحفر أخاديد عميقة في وحل الحقول الناعم. ولكن بعد مراقبة تحميل الشاحنة لأسابيع عدة، أدرك براونفيلد أن الرجل الذي يقود الشاحنة دفع والده إلى ارتداء قناع مصمت أكثر مناعة من صمته المعتاد. نظر براونفيلد عن كثب إلى الرجل وتوصل إلى اكتشاف مروّع: صحيح أنه رجل، لكنه مختلف كلياً عن والده. وعندما لمس هذه الفوارق وفطن إلى الاختلاف في الرائحة والصوت والحركة والضحكة، إضافة إلى اللون، تعجّب من أنه لم يلحظ كل هذا من قبل. ولكن بالنسبة إلى طفل صغير، بدا أن جميع الرجال هم في الحقيقة رجل واحد. جميعهم متطابقون تماماً، لديهم كلهم الرائحة نفسها، وكان يستشعر دائماً صلابة أجسادهم كلما حملوه ليرتاح جسده على صدورهم، فيما يرمقونه كلهم بنظرة الاستخفاف ذاتها، مما ولّد لديه إحساس مقيم بمدى ضآلته. كانت ضخامة أجسادهم مصدر فخرهم اليتيم، يضحكون ويفتحون أفواههم الكبيرة على اتساعها فتبدو مثل

كهف، أو يمشون بخطوات واسعة إلى حدٍ مخيف أو ينحنون وينزلون من عليائهم ليرفعوه فجأة في الهواء ويحملوه فوق أذرعهم. أول ما لفت انتباه براونفيلد في الرجل الذي جمّد والده هو أن للرجل شعر حيوان ناعماً مائلاً إلى البني، ذُعر لاكتشافه هذا، معتقداً أن الاكتشاف سيحل لغز تقهقر والده الصقيعي أمام الرجل. انتاب براونفيلد توتر عصبي بارد.

ذات مرة، لكزه الرجل بمسكة العلبة التي يحملها لكزة خفيفة وقال وقد فاحت أنفاسه برائحة النعناع «أنت ابن غرانغ كوبلاند، ألست كذلك؟»، أومأ براونفيلد وعض شفته وقد أجفله شعر الرجل الكثيف الأسود الذي تخلله بعض الشيب، كما امتد الشيب أيضاً ليطال شعر صدره وحنجرته. وبينما حدّق في الشعر، رد برقة أحد العمال- عوض أن يتحدث إليه والده الواقف إلى جواره كما لو أنه لا يلحظ وجوده- قائلاً للسيد شيبلي «هذا صحيح يا سيدي». نظر براونفيلد للأعلى قبل التفوه بكلمة واحدة ومسح بنظرة عابرة وجه والده. كان القناع محافظاً على مناعته وجامداً كما لو أن والده طلا نفسه بطبقة من الشمع. شمّ براونفيلد للمرة الأولى رائحة تعرّق وخوف وشيء مبهم، وصدرت عن جسد والده رائحة شيء مخنوق ومتشنج (رائحة والده والعمال الآخرين لم تكن بالتأكيد رائحة نعناع). لم ينبس أبوه ببنت شفة. قال براونفيلد مرتجفاً «نعم يا سيدي» وتملكه الرعب من هذا الرجل الذي استطاع بحضوره فقط تجميد والده، وتحويله إلى شيء لا يعدو كونه حصاة أو سارية أو خراء، إذ لم يكن هناك أي فرق بين هذه الأشياء وبين والده حينها، اللهمّ إلا الرائحة النفّاذة اللاذعة الصادرة عن شيء يلفه الجلد قسراً.

لاحقاً ذات يوم غير بعيد عن ذلك اليوم، كان غرانغ مستلقياً على الشرفة، يشرب الكحول بهدوء. جلس براونفيلد على درج الشرفة وسمّر عينيه عليه، مفتوناً بحركة الزجاجة التي حملها والده لتهبط وترتفع من وإلى فمه. لاحظ غرانغ أنه ينظر إليه، وكان براونفيلد خائفاً من الابتعاد وجزعاً في الوقت ذاته من البقاء. أثناء احتسائه الخمر، كان والده ينظر

إلى كل تصرف يسلكه ابنه على أنه إهانة شخصية. نظر إلى براونفيلد وبادر بالحديث. كانت عيناه صفراوين بعض الشيء تتخللهما خطوط حمراء تشبه عروق أوراق الأشجار. مال براونفيلد نحوه. لكن جلّ ما قاله والده له حينها: «يجدر بي أن أرميك في البئر اللعينة».

انكفأ براونفيلد فزعاً، ورغم خلو صوت والده من أي غضب أو تصميم، فإن حسرة فظة مخمورة شابت صوته، وخالجته رجفة تعبة تنضح إشفاقاً وندماً.

عندما قص براونفيلد على ابني عمه حكاية الرجل، قالا له إن والده كان مملوكاً وأخبراه عن تملّص والدهما من أن يكون مملوكاً عبر الانتقال للعيش في الشمال، وتحدثا عن امتلاكهم سيارة جديدة جميلة وكيف يستبدلونها كل سنتين، كما يمتلكون أثاثاً فخماً جميلاً، وقالا إن والدتهما لم تعمل في بيع طعوم مقرفة وإنما عملت لدى أشخاص يمتلكون منزلين وسيارة سوداء طويلة، وثمّة رجل يقودها يرتدي زياً أخضر ذا شرائط ذهبية. السائق كان والدهما، وقد أخذهم ذات يوم في نزهة بالسيارة، ولهذا لديهما قصص يرويانها الآن. لعبا مع أطفال ميسورين، وأثناء إخباره عنهم، بدا ابنا عمه بالنسبة إليه ميسورين أيضاً، كيف لا وهو يعيش في منزل رطب، تتسرب المياه من سقفه وجدرانه.

هرعت إليه ابنة عمه أنجلين التي تدمن استراق السمع لتخبره بلهفة أنها وأخاها لينكولن سمعا والدتهما تقول إن عائلة براونفيلد لن تتمتع قط بمنزلة رفيعة لأن أفرادها افتقروا إلى الحس الكافي والإرادة اللازمة لمغادرة مقاطعة غرين في جورجيا. كانت أنجلين هي من أخبرته عن رأي والدتها بغرانغ وأنها نعتته بعديم الفائدة وأنه حاول دفع زوجته «لبيع نفسها» لتنتشلهم من الديون. كانت والدة براونفيلد ووالدة أنجلين شقيقتين.

كذبت أنجلين عندما قالت: «رغب حتى في أن تبيع نفسها للرجل الذي يقود الشاحنة».

استطرد لينكولن: «أو أي شخص آخر يرغب بشرائها!».

بدأ لينكولن بالرقص حول براونفيلد، وقال: «جميعكم غارقون في دين قدره ألف ومئتي دولار! ولن يتسنى لكم أبداً سداده!». أخذت أنجلين نفساً عميقاً وشخرت بازدراء. «يقول أبي إنكم لن تسددوه يوماً لأنكم لا تملكون المال ووالدك يشرب كل شيء تقع عليه يداه». أراد براونفيلد أن يعرف ما تعنيه كلمة «بيع» عندما تكون والدته هي المعنية، لكن ابني عمه اكتفيا بالقهقهة، ولكزا بعضهما برصانة لا تخلو من ابتهاج واضح.

بالنسبة إلى براونفيلد، كانت معلومات ابني عمه مشؤومة على نحوٍ غريب. حاول تذكر الفترة التي بدأ فيها والده التزام الصمت، إذ لا بد من وجود فترة كان فيها والده يهدهد له بأملٍ ويجلسه على ركبتيه. ظن أن صمت والده لربما كان جزءاً من السبب الذي أدى إلى خضوع والدته الدائم له وسبب غيرة والده منها وجام الغضب الذي يصبه عليها إن نطقت ولو حتى بجملة «كيف حالكم؟» أمام أي رجل آخر. ربما حاول بيعها ولم يجد من يشتريها ولهذا كانوا فقراء وغارقين في الديون وسيموتون على هذه الحال. وربما صار والده، الذي تملّكه الاستياء بالتأكيد جرّاء محاولته بيع زوجته، صامتاً وغيوراً منها، ليس لفعل اقترفته، وإنما بسبب ما حاول فعله! ربما خشيت والدته من غرانغ بقدر خوفه منه، ذُعرت من رزانة غرانغ المتصلّبة. ربما جزعت من أن يبيعها على أي حال سواء رغبت بذلك أم لم ترغب. وقد يكون هذا هو السبب الذي دفعها لإسعاده.

شعر براونفيلد بالصداع جرّاء محاولاته فهم معنى ما أخبره به ابنا عمه. حاجته لاستيعاب تصرفات والديه تغلغلت في أعماقه مترافقة مع ضحكات ابني عمه. اندفعت الدماء إلى رأسه وكان مريضاً. فكر على نحوٍ محموم بالأسابيع التي قضوها معاً، بالقيظ والبرد والعمل وشعور الإحباط الذي انتابه بسبب ضحكاتهما الصغيرة الخبيثة، بالجوع الذي ينهشه في الشتاء، والوجوه الجامدة المتجهمة، وأكل لحاء الشجر عندما يُترك وحيداً إلى حين عودة والدته إلى المنزل طافحة برائحة الطعوم والروث، فكر ببشرة والدته الناعمة وأنفاسها الحليبية الصافية، بقنوط

والده، وبإحساس المعرفة الجارفة المحتومة الذي اجتاحه مثل عاصفة صيفية أحدثت رياحها العاتية طوفاناً غامراً يكسر الصمت أخيراً ويسوّيهم جميعاً بالأرض من دون رحمة. سيعرف يوماً ما كل شيء وسيكون نداً لابني عمه ولوالده ونداً ربما حتى لله.

اتخذت حياتهم مسار حلقة لا تتغير محطاتها تقريباً وتجري أحداثها وفقاً لأمزجة غرانغ: يوم الإثنين، ألم ومعاناة بسبب صداع الكحول وتبعات الشجار العنيف الذي يخوضه مع زوجته في الليلة التي تسبق يوم الإثنين، يكون غرانغ في هذا اليوم نكداً ومكفهراً ومتحفظاً، يعاني من ألم بالغ جرّاء حرارة شمس الصباح، فيما مارغريت متوترة ومتصلّبة وعصبية إلى حدٍ كبير، أما براونفيلد فيتحرك داخل المنزل مثل فأر؛ يوم الثلاثاء، غرانغ هادئ كلياً. تتنفس زوجته وابنه الصعداء؛ يوم الأربعاء، مع ساعات النهار التي لا تنتهي وصفوف القطن المترامية، يتمتم غرانغ ويتنهد، ثم يجلس ليلاً لفترة طويلة خارج المنزل متنعماً بالهواء قبل أن يأوي إلى الفراش، يتحدث عن الرحيل، الرحيل إلى الشمال. حتى أنه قد يحاول معرفة حجم الدين الذي بذمته لمالك الحقول، أي سائق الشاحنة ومالك الكوخ الذي يقيمون فيه. لكن هذه الأنشطة تحبطه، فيتفوه في ليالي الأربعاء بعبارات تدفع زوجته للبكاء؛ وبحلول يوم الخميس، تصل كآبة غرانغ ذروتها ويعبس بتكشيرة مشوبة بمسحة وقار، ويغمض عينيه نصف إغماضة في ردة فعل على النكات التي يطلقها الرجل الذي قاد الشاحنة. في ليالي الخميس، يتجول في المنزل متنقلاً من غرفة إلى أخرى، ويعلّق نفسه بالعوارض الخشبية الموجودة على الشرفة ويتأرجح. كان بوسع براونفيلد سماع مفاصله وهي تصدر صريراً يعلو فوق أصوات الشرفة التي ترتج برمتها عندما يتأرجح والده. يوم الجمعة، يكون غرانغ منهكاً تماماً بسبب العمل وحرارة الشمس اللاذعة، لا يرغب بشيء سوى أخذ قسط من الراحة على مدار اليومين التاليين قبل أن يكرر مسار أيامه مجدداً.

عصر يوم السبت، يحلق غرانغ ذقنه ويأخذ حماماً ويرتدي أفرولاً

وقميصاً نظيفين ويسوق العربة إلى البلدة لشراء البقالة. وأثناء تواجده خارج المنزل، تغسل زوجته شعرها وتسبّله. ترتدي ملابسها وتجلس أمام الباب المفتوح، جميلة ومتألقة من رأسها حتى أخمص قدميها، يحدوها أمل قلق بقدوم زوار لم يأتوا يوماً.

براونفيلد بدوره يأخذ حماماً ويرتدي ملابس نظيفة. يلعب برضا في الغابة الصامتة وفي فسحة أرضها الجرداء. كان غرانغ يعود في وقت متأخر من ليالي السبت مترنحاً وثملاً، يهدد بقتل زوجته وبراونفيلد، يتعثر ويطلق العيارات النارية من بندقيته. يتوعد مارغريت فتهرب وتختبئ في الغابة ومعها براونفيلد الذي يتكوّم على نفسه عند قدميها. ثم يخرج غرانغ من الباب ويندفع نحو الفناء، يبكي كطفل صغير ويطلق تنهدات موجعة، ويعفّر رأسه بالتراب. يجلس هناك حتى صباح الأحد، حين تبدأ الدجاجات بنقره، ويشرع الكلب بشمه، وما كانت زوجته أو براونفيلد ليقتربا منه. يلعب براونفيلد عوضاً عن ذلك على الجهة الأخرى من المنزل. يتخذ غرانغ طريق الكنيسة، يقف بخطوات ثابتة، شاحباً كالرماد بفعل شمس الظهيرة، يعبر المرج والغابة متجهاً مثل رجل أعمى نحو الكنيسة المعمدانية، حيث كان يعلو صوته على أصوات الآخرين أثناء الغناء وتلاوة الصلوات. مارغريت تكون هناك أيضاً، في حين يكون براونفيلد نائماً على المقعد إلى جوارها. ولدى عودتهما إلى المنزل بعد الكنيسة، يبدأ غرانغ ومارغريت بخوض شجار العشاء الذي يقذفهما إلى أسبوع آخر يماثل تماماً الأسبوع الذي سبقه.

أزاح براونفيلد نظره عن الطريق ورمق بنظرة متفحصة تطفح بالكراهية المنزل الذي يعيشون فيه. كان كوخاً مكوناً من غرفتين وثمّة مدفأة قرميدية في آخره، فيما سطحه مكون من ألواح خشبية رمادية متعفنة مثلثية الشكل، وبسبب الألواح العمودية الرمادية التي تغطي جوانب المنزل، اكتسى المنزل برمته بالرمادي. كان منتصفه أكثر انخفاضاً عن حوافه، وبدا مثل حيوان محنيّ الظهر مائلاً نحو المرج،

بينما قبعت بئر حجرية في مكان مناسب وسط الفناء، وتدلى فوقها دلوها الخشبي المغطى بالطحالب، مُعلّقاً بحلقة صدئة وحبل طويل مهترئ. وفي الأماكن التي طالها الماء خلف البئر، أزهرت نبتة بريّة من نوع نجمة الصباح، ووصلت محالقها الممتدة إلى كومة الحطب التي كانت عبارة عن متفرقات من جذوع الأشجار وأشلاء عظام جيفٍ تركها الكلب، إضافة إلى أسلاك وقطع حديدية استعصت وآلمت فكوك وأسنان العديد من البغال الشرسة.

من زاوية عينه، لحظ براونفيلد والده يتفحص المنزل. وقف غرانغ واضعاً يده خلف ظهره كالجندي، بينما امتدت يده الأخرى لتشير إلى هذا الجزء أو ذاك من المنزل، كما لو أنه يحدد الأجزاء التي تحتاج إلى إصلاح. ثمّة أجزاء كثيرة تحتاج إلى إصلاح. والده رجل ممشوق القامة، نحيل ومكتئب، انحنى ظهره قليلاً بسبب مزاولة الحراثة، ذو بشرة سمراء داكنة ولامعة مثل الجوز الأميركي، في الخامسة والثلاثين من العمر ولكنه بدا أكبر من ذلك بكثير. طغت على ملامحه مسحة من الحزن والفراغ الخالي من أي عواطف، كما لو أن حريقاً هائلاً أُخمد في جوفه وتاق إليه حال انطفائه. بدا أثناء مراقبة براونفيلد له مفتقراً لأي نوع من المشاعر، اللهم إلا مشاعر الحيرة المطلقة التي جعلته يبدو وكأنه في الحقيقة ساهم عمّا يراه، على الرغم من أن يديه واصلتا التأشير بلا هدف تقريباً، وتحركت شفتاه ونطقتا بكلمات مبهمة. وبينما ابنه يراقبه، رفع غرانغ كتفيه وأنزلهما. عرف براونفيلد هذه الحركة جيداً، إنها هزة كتفيه القاتلة إياها، التي عنت أن والده لم ير شيئاً في المنزل يستوجب الإصلاح، ولن يشير إليه مجدداً ولن يفكر في تغييره قط.

عندما أرادت والدة براونفيلد إرساله إلى المدرسة، قيّم والده إمكانية ذلك بالإيماءة الخرساء ذاتها التي قيّم بها وضع المنزل. ونظراً لجهله المطلق بأي شيء يتعلق بالمدارس، ومعرفته التامة لحقيقة أنه مفلس، هز كتفيه، لتضع هذه الهزة نهاية ذلك الحلم بالذات. كانت

الهزة عينها التي يقوم بها عندما تحتاج مارغريت إلى شراء فستان وما من سبيل أمام غرانغ لدفع ثمنه. اكتفى بهز كتفيه، لم ينطق بكلمة أخرى حول الموضوع مجدداً. وبعد كل هزة كتف، يصبح أكثر سكوتاً من ذي قبل، كما لو أن هز كتفيه بهذه الطريقة يجرّده من أي موضوع آخر كان له أن يتحدث عنه.

أشاح براونفيلد بنظره عن والده والمنزل ونظر إلى والدته التي كانت تفرك عينيها بيديها. جلس كئيباً، يملؤه استياء جديد اكتشفه للتو. كان حزيناً من أجلها وشعر بالضآلة المريرة. كيف له يوماً أن يتحمّل خسارتها بسبب والده أو الموت أو التقدم بالعمر؟ كيف استطاع أصلاً النجاة من دون قوتها الخاضعة ورائحة جسدها الفوّاحة العذبة والجذابة والشهية الطافحة بروائح الطهي والصابون والحليب التي تبعث على ارتياح ملموس.

قال غرانغ بلطفٍ لزوجته: «كان بإمكانك الرحيل».

«لا أعرف شيئاً عن السمال[1]».

«يمكن لك أن تتعلمي».

«لا، لا أعتقد أن بوسعي ذلك». تنهدت.

عاد براونفيلد إلى حيويته مجدداً. كان ابنا عمه محقّين إذاً، دارت بالفعل أحاديث عن عودته ووالدته معهم إلى فيلادلفيا. لِم لم يذهبا؟ شعر بالغيظ والظلام يلفه.

«لم أعرف أحداً *طلب* منا الرحيل. رغبتُ بالرحيل إلى السمال». قال ابنا عمه أن الريفيين الحمقى فحسب من جورجيا ينطقون كلمة «شمال» على هذا النحو.

ابتسمت والدته له. «كي تصفف شعرك مثل النساء ويتهدل شعرك على كتفيك ووجهك؟ اغرب عن وجهي يا فتى!». لم يتعظ براونفيلد المعجب بعمه سيلاس.

---

1 - وردت Norse في النص الأصلي. (المترجمة)

قال: «لن أرتدي الشعر المستعار ليلاً».

تمتمت والدته بحزن: «أختي المسكينة مرلين. ابيضّ شعرها كله مثل شعر عاهرة تلتقط زبائنها من الشارع. الله أراحني من حاجتي لإزاحة شعر امرأة أخرى عن وجهي. لأصدقك القول»، تابعت حديثها ناظرة إلى غرانغ من فوق رأس براونفيلد، «لا أعتقد أصلاً *أنه* شعر حقيقي. تحسستُه عندما خلعتْه ووضعته على رأسي، تستطيل الشعرة عندما تشدها، تشبه تماماً أطراف شعر ذيل البقرة».

قال براونفيلد بافتتان: «أحب هسيسه».

قال غرانغ: «هذا لأنك عديم الإحساس».

-2-

عقب مرور خمس سنوات على زيارة ابني عمه المذكورة آنفاً، وقف براونفيلد في البقعة نفسها من الفناء مراقباً اقتراب إحدى المركبات، كانت مركبة مختلفة هذه المرة، مركبة كبيرة أو بالأحرى شاحنة رمادية ضخمة حفظها عن ظهر قلب. اندفعت بثقلها الكبير فوق الطريق، معكّرة صفو الأجواء الضبابية لصبيحة يوم الأحد. الرجل الذي يقود الشاحنة لم يكن نفسه الذي يقودها عادة. وعندما اقتربت، رأى براونفيلد ذراعاً سمراء متدلية من النافذة. كانت هذه ذراع جوني جونسون، الرجل الذي يعمل لدى السيد شيبلي. توقفت الشاحنة عند طرف فسحة الغابة وترجلت والدة براونفيلد. وقفت للحظة تتحدث إلى السائق، ثم استدارت ومشت ببطء وتؤدة نحو المنزل. استدارت السيارة محدثة صخباً وجلجلة ثم اختفت. خلعت والدته حذاءها وحملته في يدها. مشت بحذر وتردد فوق العشب المُندَّى. حدّقت بتوقٍ شديد إلى الأرض ولم تلحظ وجود براونفيلد إلا عندما كادت تصطدم به. كان يفوقها طولاً وضخامة، وعندما انتبهت إليه، جفلت.

قال بفتور: «صباح الخير».

حملت والدته حذاءها وشدته إلى صدرها ممسكة به بيديها الاثنتين وقد سربلها العار. غطى شعرها الطليق الجميل الخشن كتفيها مثل سحابة رعدية جامحة، يتخلله هنا وهناك خيط فضي لامع وأجعد، فيما ثوبها متجعد، والصليب الذهبي الذي يغفو عادة داخل ثوبها قفز وبرز

من أعلى ياقة ثوبها. عيناها منهكتان تطوفان وتنظران بضبابية إلى ابنها. فاحت منها رائحة دخان عفنة، وبيدين متوترتين، سعت لدفع جواربها الفوضوية أكثر إلى داخل حذائها.

قالت ناظرة نحو المنزل: «عجباً، لم ألحظ أنك واقف هناك».

تنحى براونفيلد جانباً من دون أن يفه بكلمة.

سألت بسرعة، وضغطت عقد أصابع قدميها بشكل أكبر على حذائها: «هل الطفل بخير؟».

قال براونفيلد: «إنه بخير. تبعها إلى داخل المنزل وراقبها وهي تقف فوق أخيه الصغير نصف الشقيق. كان الطفل ينام بسلام، وردفاه الضئيلان معلقان في الهواء. الطفل نتاج شخصية والدته الجديدة ويتناسب مع مظهرها الجديد المهندم ووجهها المطلي بمساحيق التجميل، تفوح منها الروائح الجديدة للأسرّة التي تنام عليها، ورائحة شراب الجن وعطور غير مصنّعة يدوياً.

قالت وهي تغطس في السرير: «تشاجرت مع والـدك مجدداً. آخ، تبادلنا الشتائم واللكمات والركلات أيضاً. لكمني بقبضتي يديه العاهرتين الصفراوين السمينتين». كانت تتحدث بلا عواطف. ماانفكا يتشاجران على هذه الشاكلة منذ سنين. ولّت إلى غير رجعة الأيام التي دأبت فيها على الانتظار وحيدة عصر أيام السبت من دون أن يظهر أحد. وصارت الآن تتبع زوجها عندما يتركها في المنزل ويذهب إلى البلدة. تقطع في بادئ الأمر المسافة مشياً على الأقدام بتصميم وعزم، أو تستقل إحدى المركبات العابرة. لاحقاً أضحت تركب الشّاحنات، شاحنة رمادية كبيرة في أغلب الأحيان.

قالت: «أرى أنه لم يعد بعد».

مشى براونفيلد في الممر جيئة وذهاباً، آملاً أن يكون عمله كجليس للطفل قد انتهى.

قالت والدته وهي ترفع فستانها فوق رأسها وتحركه يميناً وشمالاً: «قال إنه لن يعود أبداً». وكبتت ضحكة ماكرة. «كم مرة سمعناه يقول *ذلك*. قد يحسب المرء أنه راضٍ، أنا أطعمه وهي تضاجعه!».

يصيخ براونفيلد السمع عندما تطلق والدته الشتائم واللعنات. عرف أن والده يضاجع سيدة أخرى ويعاشر سيدة أو عدة سيدات منذ زمن بعيد. لم يؤثر هذا فيه بالقدر الذي أثر في والدته. راقبها وهي تنحدر نحو هاويتها من دون التفكير بإشاحة النظر عنها حينما ارتطمت بالأرض. التفتت نحوه لتكون أمامه وجهاً لوجه، بعينين منهكتين طافحتين بالتحدي.

سألته: «بماذا تحدق بحق الجحيم؟».

قال براونفيلد: «لا شيء»، واستدار مبتعداً.

رفعت والدته السلسلة المعلقة في عنقها ولمست الصليب بوجلٍ.

قال وقد أولاها ظهره: «كنت أفكر بالعم سيلاس والخالة مرلين».

«لماذا تفكر بهما؟ لم أسمع أي أخبار من مرلين منذ قُتل سيلاس. أفكر كيف سطا على متجر خمور في وضح النهار! لدى مرلين دائماً الكثير لتقوله عن صندوقها الجديد المخصص لحفظ الثلج وتعليم أولادها البذخ، ولكنها لم تكلّف خاطرها يوماً بقول كلمة واحدة عن تعاطي سيلاس للمخدرات. يأتون طوال الوقت إلى هنا بسياراتهم الفارهة ويعاملوننا كمتخلفين غير مواكبين لأحدث الصيحات، أراهن أن الشمال يتخبط في فوضى على غرار الفوضى التي تعم الجنوب». ركعت على قدميها عند حافة السرير، وقالت بعد أن جثت على الأرض: «لقّم الطفل زجاجة حليب عندما يستيقظ». وبعد دقائق من تلاوة صلواتها، غطت في نوم عميق.

نظر براونفيلد إلى الطفل بقرف. لطالما تعيّن عليه الاعتناء به، وهذا ما جعله يشعر بأنه مخنث. كان الطفل لحسن حظه ينام بعمق، فلو استيقظ،

لشعر براونفيلد حينها برغبة للكمه مما سيستدعي حضور والدته على جناح السرعة، لتلقي لعناتها ولكماتها على رأسه أولاً، ثم على رأس الطفل. كان أكبر سناً من أن يلعب في فسحة الغابة، ولهذا قصد صندوقه الموجود عند قدم سريره وأحضر حذاءه الجديد الذي ابتاعه من حر ماله إثر عمله خلال وقت فراغه في مصنع الطعوم. حمل الحذاء وخرج ليجلس على درج الشرفة، انكب على تلميعه مستخدماً مزقة من أحد قمصان والده القديمة.

وأثناء تمسيد حذائه بحنوٍ، غرق براونفيلد في حلم يقظة أثير على قلبه: أبصر نفسه وقد أضحى رجلاً في الواحد والعشرين من العمر أو قرابة ذلك، يصل إلى المنزل عند المغرب، فيما السماء تثلج، الثلج حاضر دائماً في حلم يقظته. لقد رأى الثلج مرة واحدة فحسب وذلك عندما كان في السابعة حين هبّت عاصفة ثلجية صغيرة خلال فترة عيد الميلاد، مما ولّد لديه انطباعاً بارداً وحاداً. في حلم يقظته، يهطل الثلج على الأرض مثل ريش دجاج يتطاير من وسادة، ويخلق شعوراً يحاكي السير عبر جدار عازل للصوت مكون من قطرات مطر مُعلّقة وبلا وزن تهطل باردة ونظيفة على الجفون والأنف. في حلم يقظته، يتوقف أمام منزله، وهو عبارة عن قصر فخم توجد فيه مدافئ قرميدية بلون أحمر كرزي وشرفة ودرج قرميديين بنفس اللون، فيما هو داخل سيارة طويلة يقودها سائق. يترجل السائق من السيارة أولاً ويفتح الباب الخلفي، حيث يجلس براونفيلد ينفث سيجاره، ثم يختفي السائق خلف المنزل، بينما تنتظره زوجته على درج المطبخ. الطاهية المحبوبة والمحترمة جداً تعمل في المنزل ومع السائق وعائلة براونفيلد منذ سنوات عديدة. تقف زوجة براونفيلد وطفلاهما- فتاة وصبي، بلهفة في البهو أمام الباب. يندفع الجميع نحوه ويمطرونه بالقبل. وبينما يخبر زوجته عن الصفقات الكبيرة التي أبرمها خلال ذلك اليوم، تعد له شراب الجلاب بالنعناع. وبعد تناول عشاء مذهل أشرفت الطاهية على إعداده، مرتدية

زياً أسود وقبعة بيضاء منشاةٍ، يضعان هو وزوجته، يداً بيد، ابنيهما في السرير ويمضيان بقية السهرة يتحدثان عن يومها (الذي أمضته تتمشى في الحديقة)، ويمارسان الحب.

شابَ حلم اليقظة أمر واحد غريب، إذ يتداخل وجه زوجة براونفيلد دائماً مع وجه الطاهية، فزوجته في بداية الحلم ذات بشرة سوداء لامعة تغطيها زيوت الطهي، ومن ثم تصبح بيضاء البشرة تغطي بشرتها مساحيق التجميل التي كان بوسعه تحسسها عندما يلمسها، لم تتمكن ذاته الحالمة من حسم هذا الأمر قط. وجها طفليه لم يكونا يوماً محط تركيزه، وبوسعه التعرف عليهما جرّاء حضورهما الملائكي فحسب، بقعتان مضيئتان من الدفء، يحومان في المكان ويناديانه بتحبب «أبي»، بينما يمسّد الفراغ، معتبراً إياه رأسيهما.

حلُم براونفيلد حلم اليقظة هذا في الأسبوع الذي تلا إخبار ابني عمه له عن الشمال، وبات الحلم يطول كل سنة أكثر من السنة التي سبقتها، ويغدو أكثر حقيقية إلى حدٍ بعيد، لدرجة أنه يستحوذ عليه كلياً أحياناً. وبينما حلُم بالحياة التي سيعيشها كرجل، لم يكن ثمّة مجال لأي اعتبارات أخرى، حلم بمفرده وكان هادئاً، وهو ما حدا بوالدته لتفكر بأن مجالسة الطفل عمل مثالي بالنسبة إليه. ولكن مع وجود طفل على مقربة منه قادر على تعكير صفو الهدوء في أي لحظة، حُرم براونفيلد من التنعم بالثلج والغرق في الراحة الحميمة التي توفرها له سيارة الليموزين الدافئة، هانئاً بالرعاية البارّة التي تخصه بها زوجته المحِبة المتخيّلة. وأخفى في صدره حنقاً عميقاً على والدته لأنه بسببها صار إكمال حلم يقظته بعيد المنال.

فرغ من تنظيف حذائه، وكسر بكاء أخيه الصغير الصمت. دون عجلة من أمره، وقف براونفيلد على قدميه، غارقاً جزئياً في آثار وهج حلمه، أمسكت يداه بحرص فردتي حذائه اللتين بسطهما على راحتي يديه كي لا يتلطخ الجلد اللامع، سار نحو الصندوق المصنوع على هيئة شاحنة

صغيرة من الورق المقوّى وله رفوف كرتونية إضافية والموجود بالقرب من سريره. رفع الغطاء الذي شكّل أعلى الصندوق ووضع حذاءه بعناية داخله، محافظاً على مسافة تفصله عن المقتنيات الأخرى. ثمّة أيضاً في الصندوق سروال جديد من جينز الدنيم وقميص أخضر جديد مزركش برسوم عصافير وهنود وغزال، ومنديل أصفر ناعم من الساتان، اشتراه من البائع المتجول بربع دولار وكان فخوراً جداً به. واصل الطفل بكاءه، ألقى براونفيلد نظرة سريعة على والدته النائمة على السرير وقد رفعت اللحاف ليغطي رأسها. امتلأ الجدار المحيط بسريرها بمفكرات تحمل صور دور جنازات، إضافة إلى صور مجلات وقصاصات صحف تدور حول الحملة الصليبية المعمدانية المسيحية الأولى. رنا الطفل بنظره نحو السرير وألقى عليه نظرة طافحة بالأمل ومن ثم رمق براونفيلد بنظرة مستعطِفة. وبدفعة خشنة واحدة، ضغط براونفيلد بأصابعه على الزجاجة وأقحمها في فم الطفل. استلقى الطفل على أحد جانبيه، وبدأ يمص الزجاجة بتوقٍ، نظر إلى أخيه الأكبر بعينين مرتابتين منتفختين. كان عمر الطفل يربو على سنتين ولكنه أبى تعلم المشي على قدميه، وعوضاً عن ذلك، قبل على نفسه أن يُجر ويُسند كيفما اتفق، وآثر أن يُترك بإهمال إلى أن يستدعي شيء ما بكاءه. كان اسم الطفل ستار ولكن لم يناده أحد بأي اسم، وعُومل بلا مبالاة معظم الوقت، وبدا مستكيناً وراضخاً لحالة عدم الانتماء هذه. كانت عيناه رماديتين وشعره أحمر وشكّل ظلاً شاحباً بلوني الذهب والشوكولاتة مثل حيوان صغير. ونظراً إلى ألوان بشرته الغريبة، قد يكون والده أياً من عشاق والدته العديدين.

لم ترق لمارغريت كثيراً زيارات شقيقتها الشمالية، أو هذا على الأقل ما رددته أمام براونفيلد. لكن نما في داخلها قلق ما إزاء حياتها، حياتها التي خلت، كما هو متوقع، من أي إثارة، تماماً كما خلت حقول القطن في السنة الفائتة من أي حدث مهم. وفي مرحلة ما، تغيرت أمه ببطء وبصورة تدريجية، إلى أن جاء وقت نسي فيه شخصيتها السابقة

التي أحبها. خُيّل إليه أنها كانت في يوم ما كما عرفها دائماً: لطيفة وخانعة، تفوح منها رائحة حليب طفيفة، وبين ليلة وضحاها، أضحت امرأة جامحة تبحث عن تفاهات وصغائر، وتلهث وراء أوقات طيبة تُسرّ بها قلبها في أحضان غرباء عابرين. أنحى براونفيلد باللائمة على والده وحمّلة مسؤولية تغير حال والدته، لأنها اعتبرت غرانغ قدوتها في بادئ الأمر، وكان غرانغ من قادها إلى طقوس الغناء والرقص والشرب التي واظب على ممارستها في نهاية كل أسبوع وكل ليلة سبت. كان غرانغ أول من خان زواجهما. دأب غرانغ ومارغريت على مغادرة المنزل معاً أحياناً في سهرات السبت، يبحثان عن شيء لم يكن لدى براونفيلد أدنى فكرة عن ماهيته، لكن خمّن أنه ولا بد أن يكون شيئاً قوياً وعظيماً ظنا أنهما أضاعاه، فانطلقا مسعورين لتعقبه حيثما كان. وغالباً ما عادا إلى المنزل معاً، محافظين على تألقهما، يضيئهما نور التجارب التي خاضاها، أو الأوقات الطيبة التي أمتعتهما، ولكن سرعان ما يبهت التوهج تدريجياً ويتلاشى بريق أعينهما عندما يواجهان الألواح الأرضية المصرصرة والجدران العارية في بيتهم. شيئاً فشيئاً يحل الشجار مكان الإحباط، كما لو أن الشجار يُشعرهما بأنهما على قيد الحياة نوعاً ما. وقد يختلط الأمر على المرء فيفوته إدراك أنهما مغرمان بعضهما ببعض، ولكن لم يكن من الصعب تمييز ذلك. حتى عندما وجدت مارغريت العزاء والراحة وتنصّلت من واجباتها بين أذرع زملائها في مصنع الطعوم وأعضاء الكنيسة، أو ذراعي الرجل الذي قاد الشاحنة وحوّل زوجها إلى حجر، حتى حينها، لاح في عينيها اهتمام يشي بحبها لغرانغ. وبذلت خلال أيام العمل- أي عندما يكون ذهنها صافياً خالياً من تأثير الكحول- قصارى جهدها لتأدية دورها كزوجة على أتم وجه، وواظبت على طهي طعام مَكون من نباتات برية وحيوانات وطيور يتعذر الإمساك بها من دون زرع أفخاخ، كانت حينها ما تزال خانعة. فقط خلال أيام نهاية الأسبوع تصبح صيادة تترصد اللمسات الرقيقة والأصوات العذبة وجنساً صرفاً خالياً من أي جدال حول ضغوط الحياة اليومية الدائمة والقسرية. ندمت

من أعماق قلبها على ولادة الطفل، وصارت- مدفوعة باحترام متواضع لمشاعر زوجها- تتعمد إهماله. ما لم يغفره براونفيلد لوالديه قط أنهما نسيا وجوده في خضم الدراما التي عاشاها.

عندما استيقظ براونفيلد في الليل، كانت والدته قد خرجت من المنزل. ومن سريره الموجود في المطبخ، استطاع رؤية والده جالساً على السرير، يداعب شيئاً ما بذراعيه. كان شيئاً طويلاً وكالحاً مثل قضيب فولاذي، يتلألأ في الظلام على ضوء مصباح الكيروسين. كان وجه غرانغ جامداً، وملامحه كئيبة. وضع البندقية على السرير، التقط قبعته السوداء والخضراء المغبرّة. وقف ناظراً إلى أرض البيت، كتفاه متهدلتان وثابتتان. بدا هرماً جداً. تجول في الغرفة بخطوات متثاقلة. انتظر متردداً عودة زوجته. حدّق في الطفل النائم على السرير المرتجل المصنوع كيفما اتفق، وهو عبارة عن صندوق كان يوماً ما مليئاً بثمار البرتقال. هز كتفيه، ثم رنا بناظريه نحو سرير براونفيلد الذي احتل إحدى جهتي المطبخ بين المائدة والفرن. دلف ببطء إلى المطبخ البارد الذي تفوح منه رائحة البسكويت، وتغير إيقاع الليلة مع دخوله إلى البيت، وخلخلت تحركاته الهواء برقة. ورافق صرير الألواح الأرضية خطواته.

تظاهر براونفيلد بأنه نائم، على الرغم من تسارع نبضات قلبه، وكاد يُقسم أن بوسع والده سماع وجيفه. رأى غرانغ ينحني فوقه ليتفحص رأسه ووجهه. ولمحه يمد يده ليلمسه. شاهد يده تتوقف قبيل أن تصل إلى خده. كان براونفيلد يبكي بصمت وود لو يمسح والده دموعه. دنا من يد والده، متظاهراً بأنه يتحرك من دون وعي أثناء نومه. أبصر يد والده تنكفئ، من دون أن تلمسه. رآه يستدير على عقبيه بحدة ويغادر الغرفة. سمعه يغادر المنزل. وأيقن، حتى قبل أن يدرك أن والده لن يعود أبداً، أنه كرهه، وسيكرهه دوماً، وكرهه أكثر من أي شيء في العالم لأنه حتى وهما بمفردهما والظلام يلفهما، ورغم شكه بكون براونفيلد نائماً، لم يستطع غرانغ تحمّل لمس ابنه بيده.

قالت والدته في نهاية الأسبَوع الثالث بنبرة متحررة من أي غضب: «حسناً، لقد هجرنا». في الأسبوع التالي، خرجت هي وطفلها المسموم تحت جنح الظلام إلى فسحة الغابة، ووجدهما براونفيلد صباحاً هناك. كانت نائمة بعيداً عن طفلها، اتخذت وضعية جنينية تشي بوحدتها، كما لو أنها أمضت اللحظات الأخيرة جاثية على ركبتيها.

-3-

«يمكنك أن تتزوج وتستقر هنا في البيت ذاته»، قال شيبلي هامساً. «قد يحتاج إلى بعض الإصلاحات ولكن بوسعي إقراضك ما يكفي من المال لإنجاز ذلك، وبمسحة طلاء هنا وهناك سيغدو بحالٍ جيدةٍ وكأنه جديد».

كان شعر شيبلي ما يزال دهنياً وأملس مثل شعر حيوان، لكنه أضحى الآن قذراً وأبيض وخفيفاً. نظر إلى براونفيلد من تحت حاجبيه اللذين بهتا وتحوّلا من اللون الأشقر إلى الرمادي المصفر. كافحت عيناه الزرقاوان الشاحبتان لإظهار نظرة لطف وسخاء. انزلق براونفيلد من الشاحنة مدركاً أن وجهه كان القناع الذي لطالما ارتداه والده، لأن هذا أخافه ولأنه لم يعرف لماذا كان عليه وراثة هذا الخوف، مسح بعناية غباراً متخيلاً علق على كتفي بدلة سوداء مهترئة أعطاه إياها شيبلي.

صُدم لرؤية شيبلي في الجنازة، لكنه سرعان ما خمّن أنه جاء على أمل الإمساك بغرانغ. لم يتعامل شيبلي بلطف مع الهاربين المدينين له، حتى في حال سددوا ديونهم مراراً وتكراراً. لم يهمس أحد بحرف ضده أثناء وقوفه في الجنازة يتأمل جثماني الأم والطفل المتنفخين النائمين. اعتبر الحاضرون وجود شيبلي تشاوفاً وإهانة، رغم أنهم لم يعتادوا التفكير بمثل هذه المصطلحات وما اختبروا مثل هذه المشاعر المختلطة. عصر شيبلي نفسه لتخرج دمعة واحدة من عينيه لإثارة إعجاب المشيعين الآخرين، وضحك براونفيلد بينه وبين نفسه. لم تكن الدمعة ضرورية، إذ ندرت

الشفقة في جنازة والدته، ومعظم الموجودين آمنوا أنها نالت ما استحقت. دمعة التمساح التي سالت من عين شيبلي كانت الدمعة الوحيدة التي أُزهقت هناك. براونفيلد نفسه كان متململاً وممتعضاً، متمنياً لو أنه على بعد مليون ميل. لم تحتل الشخصية التي اختارتها والدته لنفسها خلال السنوات الأخيرة أي مكانة في قلبه، ولم تستدر منه أي شفقة، وقلما فكر فيها. أما اقتراح أن يواصل العيش في منزلها فلم تثر في أعماقه سوى الاشمئزاز والقرف. وأدرك أن قبوله اقتراض المال من شيبلي يعني أنه وقع في الفخ، لأن الأخير سيحرص على ألا يسدد براونفيلد الدين أبداً.

قال شيبلي وهو يفكر بأن عضلات براونفيلد المفتولة ستعينه على مزاولة أعمال الرجال: «لا أدري، ولكن قد يكون بوسعنا بناء منزل جديد يؤويك». فكر شيبلي وقد خامره شعور مختلط من الرهبة والازدراء أن عضلات السود تنمو في سنٍ أبكر مما تنمو لدى البيض، وخاصة العضلة ذات الرأسين الموجودة في مقدمة الذراع. حسِب أيضاً أنه إن وضع براونفيلد تحت جناحيه، سيمنحه هذا الفرصة للنيل من غرانغ. وانطلاقاً من ظنه أن براونفيلد واقع تحت صدمة الفراق وعرضه السخي، أسهب شيبلي في شرحه، مكرراً نغمته المشجِّعة.

«في نهاية المطاف، إن تزوجتَ من إحدى المهرات الصغيرات وسكنتما في منزلي، فلا بدّ أنها ستتمنى شم رائحة خشب جديد. لماذا ذلك؟ لأنني نادراً ما أعبر أياً من المنازل الموجودة هنا من دون أن ترصدني النساء القاطنات في هذه المنازل، ليطلبن مني إصلاح المنزل الذي يسكنّ فيه أو بناء منزل جديد من أجلهن».

حاول استعطافه، بينما وقف براونفيلد مطرقاً.

ابتسم شيبلي بلطف وقال: «لكن ما يهم هو أننا نرغب باستبقائك معنا. ولا نحمّلك وزر والدك. سنطوي هذه الصفحة». واصل الابتسام لكنه نظر إلى براونفيلد بدهاء من تحت حاجبيه. «بالطبع، أصدق ما قلته عن جهلك للوجهة التي قصدها والدك؟».

قال براونفيلد وكأنه يتحدث من قاعٍ شاسع العمق: «كلّا يا سيدي».
قال شيبلي بحزن كما لو أن خطأً فادحاً ارتُكب بحقه ولكنه لن يسمح لهذا الخطأ بأن يثنيه عن تعمّد التصرف بلطف. «فكر بكل ما تحدثنا عنه. خذ يوم إجازة ورتّب أمورك. أؤكد لك أن عملنا معاً سيسير على خير ما يرام: وأعرف أن من يعملون معي يُسعدون بالعمل مع شخص يعرفونه مسبقاً عندما يتولون أمر مزرعة شيبلي ومصنع الطعوم». انحنى وأخرج يده من الشاحنة، وتدلّت كف يده من نهاية كمّ معطفه مثل ورقة خريف جافة. قال: «سنبدأ أنا وأنت بروحٍ جديدة، وتذكر أن الشمال ليس بالصورة التي يتحدث جميع الناس بها عنه. خذ هذا في حسبانك».

عندما رفع براونفيلد بصره عن الأرض، كان شيبلي وشاحنته قد اختفيا عن الأنظار. تُرك في فسحة الغابة الأليفة بالنسبة إليه. نفض الثلج المتجمع على بطنه بازدراء، بصق على أرض شيبلي. سرح بأفكاره ودخل عالم حلمه. بدأ الخوف من شيبلي الذي قيّد لسانه بالتلاشي مع تصاعد حماسه لاختبار حريته الجديدة. سيكون سيّد نفسه. لم يأخذ من المنزل المهجور الخاوي سوى صندوقه. وعندما غادر فسحة الغابة، بدأت آلاف الطيور تغرد بجموح متمنية له حظاً طيباً.

الفصل الثاني

-4-

مشى متخذاً مسار الشمس نفسه. سار النهار بطوله من دون توقف، ولم يبطئ مسيره سوى لرمي حجر في الجداول والسواقي أو لمراقبة السناجب تلهو وتلعب على الأشجار، تتمايل وتطير بين الأغصان كما لو أن لها أجنحة. لاحقاً أضحت الأرض غائرة تحت قدميه بفعل نداوة النبع؛ توقف ليراقب آثار قدميه أثناء قفزه على الطحالب الغضّة النامية بمحاذاة الجداول. قطعت الأنهار والجداول طريقه، وبعث كل ما رآه في الغابة البهجة في قلبه. عندما خيّم الظلام، صنع لنفسه سريراً داخل كوخ موجود في حقل كبير، كوخ يُستخدم لتجفيف القطن وتخزينه. كان الكوخ خاوياً، ولكنه وجد بعض أكياس الخيش المرمية خارجه، استلقى عليها وغط في النوم.

بدأ الجوع يعضه في الصباح التالي بعد قطع عدة أميال. سار متجاوزاً مزارع ومنازل كبيرة مطلية بالأبيض تلفها الجنبات والأشجار المزهرة. عندما رأى كوخاً رمادياً مكوناً من غرفتين، حثّ خطاه ومشى نحو فناء الكوخ الجاف المنبسط. وقفت سيدة في الفناء الخلفي فوق بقعة سوداء صدئة. حرصت السيدة على إبقاء النار مشتعلة باستخدام مخلّفات وإطارات مطاطية، وغصّ الهواء حولها بالروائح والدخان. دأبت على تحريك الملابس التي تغليها بواسطة عصا طويلة متآكلة. سحبت العصا من المياه وهزتها عندما اقترب براونفيلد منها. نظرت حولها بسرعة لتحدد أمكنة ثلاثة أطفال يلهون بإطارات السيارات في أرجاء الفناء،

ولم تنطق بكلمة واحدة ولم يبدُ حتى أنها لاحظت وجوده إلى أن بادر بالكلام.

قال: «صباح الخير».

أجابته بصوت خفيض متذبذب: «حسناً.. كيف حالك؟»

«صباح جميل مشرق، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد». قالت هذا وتوقفت عن الكلام.

«اسمي براونفيلد- براونفيلد كوبلاند، وما اسمك أنت يا ترى؟»

«اسمي السيدة مامي لو بانكس. سعيدة بمعرفتك». مدت نحوه راحة مجعّدة غطتها مساحيق التنظيف والتبييض وبدت بيضاء، تصافحا.

قال براونفيلد ناظراً بطرف عينه نحوها كما لو أنه لا يقصدها في كلامه: «أتساءل إن كان بإمكان رجل جائع أن يطلب من سيدة طعاماً يسدّ به رمقه؟»

قالت وهي تضع العصا على المرجل: «لماذا، أنت مجرد فتى، أليس كذلك؟»

قال وهو يطأطئ رأسه آلياً: «أجل يا سيدتي، أظن ذلك».

«هل تهرب من البيض؟ إن كنت كذلك» واصلت حديثها متحاشية النظر إليه، وأبقت بصرها على المرجل «من الأفضل أن تدخل إلى المنزل وتتوارى عن أعين أي عابر سبيل. هناك برغل على الفرن وبعض البيض إن كنت تجيد الطهي. عليّ أن أنهي غسيل الملابس، وإن كنت هارباً من البيض، فأنا لم أر شيئاً سوى البوتاس ومسحوق الصابون هذا الصباح. ابتسمت برقة، ارتعش ثغرها أخيراً عند زواياه. كان هناك نتوء مكتنز في شفتها السفلى.

«أشكرك على لطفك يا سيدتي. لستُ هارباً لكنني بالتأكيد جائع. في حقيقة الأمر، أبحث نوعاً ما عن أبي».

سألت: «هل البيض يطاردونه أيضاً؟ أم أنه لاذ بالفرار فحسب؟»

«الأمران معاً».

«حسناً، لا يمكنني تذكر أحدٍ عَبَر هذا الطريق».

أومأ براونفيلد وسار نحو الباب الذي أشارت بيدها نحوه ودلف إلى الكوخ. وبينما كان يطهو البيض، دخلت إلى المنزل لتحضر المزيد من الملابس المتسخة. فكر في أنها تعمل، ولا بد، في تنظيف الملابس، فقد كانت تغسل الكثير منها.

قالت: «اخدم نفسك بنفسك». شابَ لطفَها نوعٌ من الصرامة. فكر بينه وبين نفسه: لو أن مسحة من الجمال غطت وجهها في الماضي، فلا بد أن ذلك حدث عندما كانت في الحادية أو الثانية عشرة من عمرها.

«آه، لدي الكثير من الثياب لغسلها».

«أقول لك، يمكن لفتى ناضج أن يلتهمها كما تلتهم نيران موقد جديد الحطب».

«هل لديك أطفال أكبر عمراً من هؤلاء الموجودين في الخارج؟»

«آآه، لدي خمسة أطفال غيرهم، لكنهم رحلوا إلى الشمال»، قالت ذلك بزهوٍ كما لو أنها تقول إنها أرسلتهم إلى هارفرد. «قالوا إنهم لا يستحسنون التسكع هنا وهناك»، توقفت للحظة، واتجهت نحو الخزانة التي تحتفظ بداخلها بالأواني الخزفية الصينية لتجلب الزبدة ووضعتها بالقرب من صحنه. «لا أعرف إن كنت ألومهم على ذلك أيضاً». كانت شديدة النحول وعظام وجنتيها بارزة وثمّة هالات سوداء حول عينيها. لم تكن هيئتها لتوحي بأكثر من أنها عصا، فيما ارتدت أفرول عمال وغطاء رأس مُحكم التثبيت نُقشت عليه مربعات. «كل ما أعرفه أن أحدهم قد يتكفل بإطعام أولادي هناك في شيكاغو. أقسم أن باستطاعتهم التهام خنزير كامل على وجبة عشاء واحدة». تنهدت وخرجت حاملة الملابس.

فكر براونفيلد أنه لربما يقصد شيكاغو، أو حتى نيويورك. ربما يواصل مسيره فحسب ثم يتعلّق بإحدى عربات الشحن ويستيقظ صباحاً في مكانٍ يقطنه أناس لطفاء ومهذبون. لم يأبه إن كانوا يحسنون التصرف، ما داموا لا ينصبون له فخاخاً كي يلجأ إلى الاستدانة ليحولوه

بعدها إلى حجر كلما التقى بهم. توقف عن مضغ الطعام لدقيقة ليفكر بما قالته والدته عن الشمال؛ وتذكر أن أبناء عمه قالوا إن الشمال بارد ولا يتبادل الناس هناك أطراف الحديث في الشارع ولا يتفاعلون بعضهم مع بعض. كان والده قد قال ذات يوم إن الوجود في الشمال أفسد العم سيلاس والخالة مرلين، فأضحيا باردين جداً وعديمي الإحساس وجامدي المشاعر كالصخر، ولكن حتى عندما قال غرانغ هذا، ظهر في عينيه افتتان بفكرة الرحيل إلى الشمال.

قال براونفيلد بعد أن فرغ من طعامه وعاد إلى الفناء مجدداً: «في الحقيقة، سمعت شيئاً عن الشمال، يقولون إن الشمال ليس بالروعة التي يصفونه بها».

قالت وهي تحرك الملابس في المرجل: «قد يكون ما يقال صحيحاً أو قد يكون غير صحيح. لا أزعم أن بوسعي الجزم. لكنني *توصلت إلى* نتيجة مفادها أن الأغلبية الساحقة هنا تعتقد أن أي مكان آخر أفضل من هذا المكان». بصقت في النار، علقت آثار التبغ على لعابها.

قال: «نعم يا سيدتي»، فكر بأن عدم تبادل أطراف الحديث مع الآخرين ليس أمراً سيئاً، هذا أفضل من وجود أشخاص على غرار شيبلي لا يتوانون عن فعل أي شيء لمنعك من توفير قرش واحد مما تجنيه. «نعم يا سيدتي». رنا ببصره نحو الفناء الأجرد والمنزل الذي بدا أنه على وشك الانهيار. «قد تحظى بشيء ما هناك».

واصلت تحريك الملابس في المرجل، وأذكت النار متنقلة بخفة في الفناء.

سألها مشيراً إلى الأطفال الثلاثة الصغار المنهمكين بدحرجة إطارات السيارات: «هل يعمل والدهم هنا؟».

قالت وهي تنتصب مجدداً بعد أن وضعت المزيد من المطاط حول المرجل، مالت يميناً وشمالاً لتريح ظهرها: «حسناً، كما أخبرتك، أحد آبائهم قضى في الحرب، على الرغم من أنه لم يذهب أبعد من بريد

«فورت بينيت». الأب الآخر متزوج الآن من سيدة تعيش في المنزل المجاور. إن وقفت على رؤوس أصابعك، يمكنك رؤية سطح منزلها، لونه أخضر نوعاً ما. حسبتُ أنها تساعدني لأتزوج من رجل آخر ولكنها كانت طوال الوقت تبحث لنفسها عمن تتزوجه. لكنني ما زلت صديقتها. أبوهم الآخر كان آخر رجل تزوجته- وفق القانون السائد- لكنه ميت الآن أيضاً، قضى برصاص العجوز الذي عمل لديه على خلفية قيامه بانتزاع أحشاء الخنزير الذي اصطاداه». نظرت إلى الأطفال وعبست. «لكنهم يشبهون بعضهم بعضاً إلى حدٍ كبير، بمجرد النظر إليهم تعرف أنهم مندمجون معاً ومنسجمون».

سألها وهو ينظر إلى الأطفال: «أحسب أنهم سيذهبون إلى الشمال أيضاً عندما يكبرون؟». كانوا مصابين بزكام حاد وسال المخاط من أنوفهم ليصل إلى شفاههم ويعلق هناك مثل غراء.

قالت وهي تحرك الملابس في المرجل: «لا أعرف. يعلم الله كم أحبهم، ولكن آمل أن يكون لديهم عندما يكبرون الحدس الكافي لمغادرة هذا المكان».

«حسناً، أشكرك من قلبي على الفطور الشهيّ».

«أوه، لا ضرورة للشكر. وإن جعت على طريق عودتك، عرّج مجدداً». ابتسمت ابتسامة شاحبة متفاخرة وساخرة ومتواطئة. «آمل أيضاً أن تجد والدك».

قال: «وداعاً جميعاً». لوح للأطفال الذين توقفوا عن اللعب وحدّقوا فيه. غرّدوا مثل عصافير قائلين: «وداعاً! وداعاً»، وركضوا خلفه إلى أن وصل إلى الطريق السريع، ظلوا يرددون «وداعاً» حتى بعد فترة طويلة من انعطافه وتواريه عن الأنظار. سمع صوت والدتهم تقول: «عودوا جميعاً إلى هنا قبل أن تصدمكم سيارة عابرة!»، وتوقفت الأصوات فجأة؛ ولم تُسمع بعدها أية نأمة باستثناء وقع خطواته على طرف الدرب الرطب المحفّر.

-5-

بعد مرور أسابيع من التطواف على غير هدى، على قلقٍ من احتمال أن يكون شيبلي يقتفي أثره، وبعد تناول الفطور مع عشرات العوائل المعزولة التي تعيش في حفرٍ ومناطق جرداء في عمق الغابة، تجرّد براونفيلد من أي أمل- في الوقت الحالي على الأقل- من الوصول إلى شيكاغو أو نيويورك. أمضى عدة أيام باحثاً عن قطار شحن ليتعلّق به لكنه لم يعثر حتى على أثر لأي سكك حديدية. لم يكن لديه أدنى فكرة عن أية جهة تقوده إلى الشمال؛ وعلى خلاف الآلاف من أسلافه، لم يسمع قط بنجمة الشمال. وغالباً ما كان يمضي الليل شاخصاً ببصره نحو السماء، باحثاً عن إشارة ما. التحديق في السماء كان شيئاً متجذراً في دمه، ولكنه لم يلمح أي إشارة.

في الصباح الأخير لتجواله، تناول فطوره مع أسرة مكونة من نساء فقط، إذ انطلق أزواجهن وعشاقهن للصيد. ولأنهن بمفردهن ورجالهن بعيدون، أغدقت النساء اهتمامهن على براونفيلد. صببن له المياه ليستحم، وكَوَين قميصه الجديد وربطة عنقه الصفراء من الساتان، وأعطينه صندوق أحذية ليضع فيه مقتنياته، وقلن إن وضعها في صندوق الأحذية سيجعل حملها أسهل من حملها في الصندوق الذي يشبه الشاحنة. راقب براونفيلد الشابات يحولن الصندوق القديم إلى أشلاء. ثم شعر في أعماقه أن الوقت قد حان للاستسلام، وأنه قطع شوطاً كبيراً، وسيمكث في المكان الذي سيصل إليه مع حلول

الظلام. سيمكث لفترة وجيزة على الأقل. وأخبر النسوة على استحياء بأنه «يحتاج بعض الوقت ليلتقط أنفاسه». متألقاً بقميصه الجديد المزيّن برسوم طيور وحيوانات تعيش في الهند، وعلى أهبة الاستعداد لمواجهة المخاطر، ومتسلحاً بربطة عنقه الصفراء المصنوعة من الساتان، متعثراً بسروال جينز الدينم المنشى الخشن وحذائه الذي يلمع بإفراط، انطلق براونفيلد متخذاً الوجهة الجديدة التي دلته النسوة عليها. تمتم بصوت بالكاد يكون مسموعاً بأنه يبحث عن والده «نوعاً ما»، مما جعل الوداع أكثر مرحاً، وخفف من حزنه قليلاً . أحب النسوة اللواتي يعشن مؤقتاً من دون رجال، من دون وجود من يرعاهن؛ راق له أن يحظى باهتمامهن العفوي غير المحدود.

عندما وصف لهن شكل غرانغ، نظرن بعضهن نحو بعض وابتسمن، أطلن الابتسام؛ لكن تكتمن عندما سألهن إن كن يعرفنه. اكتفين بالإلحاح عليه لاتخاذ درب معيّن، من دون غيره، درب يقوده إلى طريق محدد، مما سيوصله مع حلول الغسق إلى بلدة محددة وادعة.

-6-

وصل إلى البلدة مع غروب الشمس. كان هناك شارعان مرصوفان ببعض الحصى يحيطان بالزاوية العليا من الساحة. على يمين براونفيلد، داخل الساحة وعلى جانب الشارع الرئيسي، انتصب مبنى محكمة المقاطعة القرميدي. انتصب أمامه في مساحة عشبية دائرية وسط الشارع تمثال حجري لجندي يشهر حربة بندقيته، ويرفع قدمه الباسلة المتجمدة ويوجهها نحو الشمال. انتشرت المتاجر على جانبي الشارع. صادف براونفيلد عربات وسيارتين وبعض حرّاس المتاجر المشاة. اندفع صبية صاخبون من متجر الحدّاد، وعبروه مرتدين مآزر جلدية؛ ألقى أحدهم نظرة خاطفة وحاسدة على ربطة عنق براونفيلد. وباستثناء هذه النظرة، دخل براونفيلد إلى البلدة من دون أن يلحظه أحد.

لم تكن عيناه قد وقعتا من قبل على جمهرة يزيد عددها على ثلاثين شخصاً، اللهمّ إلا إن كانوا من عمال حقول القطن، وذهل عندما رأى تصاميم وألوان ملابسهم المختلفة. لبس حرّاس المتاجر بدلات سوداء، فيما ارتدى مساعدوهم بزات زرقاء رثة. رأى بضع نسوة بيض متأنقات يتأبطن أذرع أزواجهن، يرتدين قبعات عريضة ذات كشاكش. شاهد نسوة من السود يمشين بخطى متثاقلة متجهات نحو منازلهن بعد انتهاء يوم عملهن كمربيات للأطفال. كان زيهن منشّى ومكوياً بعناية لافتة، وكنّ ما يزلن يرتدين مآزرهن. رأى مجموعة مختلطة من السود يسيرون بتصميم، مطرقين وقد أخفضوا

أبصارهم، متجهين نحو نهاية الشارع الثاني. وعلى نحوٍ فطري، قادته خطاه للحاق بهم.

فور غياب المجموعة عن ناظريه، انعطف براونفيلد يساراً قاصداً بعض الأكواخ. وخلال بضع دقائق، وقف أمام نُزل محلي يقصده الزنوج. كان النُزل عبارة عن مبنى خشبي ذي فناء أجرد مكنوس ونظيف، بينما غطت الملصقات الإعلانية المصنوعة من القصدير والخشب جوانب الفناء. روّجت بعض الملصقات لتبغ من ماركة «براون ميول»، وتبغ «ريد تشيري»، إضافة إلى أدوية مليّنة؛ بينما روّجت الإعلانات الأخرى لويسكي «كاجون»، و«أولد جو» و«جريب بير».

لم يستطع التعرف على كل المنتجات المُعلن عنها لافتقاره لأدنى فكرة عما تكون، شذ بذلك عن قاعدة كل أسود في المقاطعة، إذ لا يأتي أبٌ إلى البلدة في سهرة السبت من دون أن يعود إلى منزله حاملاً معه إحدى هذه المنتجات على الأقل، فإن كان تبغاً، حمل رائحته على ثيابه، وإن كان ويسكي، حمله داخل جوفه.

عندما تخيل كيف ستضج الحانة الرخيصة بالأضواء والحياة ليلاً، سحرته الفكرة وأمل بأن يجد عملاً هناك. لم يكن يملك نقوداً وعرف أنه سيحتاج بعض المال إن قرر لاحقاً مواصلة طريقه إلى شيكاغو. قصدت والدته ووالده مثل هذه الأمكنة، ومن يعرف لربما قصدا هذه الحانة بالذات، وعندما كانا يتشاجران ويتخاصمان على الملأ، كان يحدث هذا غالباً وسط أشخاص يترددون على مثل هذه الأماكن. لكن الفكرة عززت اهتمام براونفيلد بالملهى الليلي، الذي تحفل أجواؤه في فترات الغسق الرمادية الرتيبة بكل التوتر المبطّن الذي غالباً ما يسود في الملاهي المهمة. تنهد وقد غمره إحساس بالفتوة والعجز، هز كتفيه بلا مبالاة وولج إلى الحانة.

اصطفت بأناقة إحدى عشرة طاولة صغيرة حول موقد تشتعل داخله نار هادئة، وافترشت الطاولات أغطية قماشية مقاومة للمياه طُبعت

عليها ورود سوداء. وصدرت عن مكان ما خلف طاولة الحساب رائحة شواء قوية ونفاذة لأحشاء وأقدام خنازير وأوراق كرنب خضراء. وثمّة في الزاوية صندوق تبريد لحفظ البيرة، ومصابيح كيروسين معلّقة على الجدران. على أحد جوانب طاولة الحساب، وضِع جهاز فونوغراف على غرار ذلك الذي رآه في الكتيّبات الإرشادية، فيما اتجه بوقه الكبير نحو الأعلى مثل يقطينة مبتورة. لفه وجوم مريب وأصوات قريبة مبهمة حملها الأثير مع رائحة الطعام المطهي، وكان مبهوراً سلفاً بالسمات السخيّة لأسلوب حياة البلدة الذي لفت انتباهه.

رمقته سيدة مكتنزة بعينيها الرماديتين من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، كان لون بشرتها بلون الشمام وغطى النمش بشرتها، قالت له: «أنت فتيّ نوعاً ما، أليس كذلك أيها الوسيم؟» نظرتها جعلت راحتي يديه تتعرقان، وكان متأكداً من أنه لا نيّة لديها لتوظيفه.

قال براونفيلد وهو يفرك راحتيه على سرواله: «لكن يمكنني القيام بأعمال التنظيف ومساعدتك على نقل ما تحتاجين نقله، فأنا قوي، يمكنني تقطيع الخشب».

عند قوله هذا، بدت السيدة مهتمة وابتسمت له ابتسامة صغيرة ماكرة.

سألته: «أأنت ماهر في تقطيع الخشب؟»

«أجل يا سيدتي».

قالت بكسلٍ: «لا ضرورة لأن تناديني بالسيدة. اسمي جوسي. جوسي *البدينة*». نظرت إلى براونفيلد متوقعة أن يكون قد سمع باسمها من قبل. خلال فترة الصمت، دخلت بهدوء شابة داكنة البشرة.

«هذه ابنتي لورين». مدت جوسي يدها فجأة وقبضت على الشابة وجرّتها رغماً عنها وثبتتها بذراعها القوية لتقف إلى جوارها، وأحكمت قبضتها عليها. رمقت الشابة براونفيلد بنظرة سريعة، ثم انتزعت ذراعها من قبضة والدتها، ونقّلت نظرها بينه وبين والدتها بازدراء متوعّد. كانت

ملعونة بوجود شارب ولحية كثيفين. عيناها الحقودتان الحادتان مجرد وميض أصفر في وجهها القاتم المغطى بالشعر. شكل جسدها يشبه تماماً شكل أجساد الرجال، رائحتها ونهداها فحسب أسبغا عليها صفات أنثوية. وفاحت منها رائحة سمك وبصل. قالت جوسي وهي تقهقه بعد رؤية تعابير وجه براونفيلد ومراقبة حركة جسد ابنتها المرتخية «هذه الصبيّة فخر واعتزاز قلب أمها».

استدارت لورين وأطلقت صوت فحيح، وبان لسانها بين شفتيها مثل لسان أفعوان. وبيدٍ واحدة، انتزعت حزامها. أطرق براونفيلد مذهولاً إذ اختفى ثوبها الداخلي تحت تنورتها القصيرة الضيقة. كانت قدماها مشعرتين أكثر حتى من وجهها.

عندما نظر إلى جوسي، كانت تدوّر لسانها فوق أسنانها، وبرز بؤبؤ عينيها النحاسيتين الصغيرتين بين الدهون المحيطة بعينيها.

سألته وقد علت محياها ابتسامة فاجرة: «خفتَ قليلاً من فكرة النفخ على كل هذا الشعر، ألست كذلك؟». تلعثم براونفيلد.

أذهلته تصرفاتها وأربكته، دفع صندوق الأحذية ليثبته بإحكام تحت ذراعه واستدار مبتعداً.

صاحت السيدة وهي تصدر أزيزاً: «مهلاً، ما اسمك؟»

«براونفيلد».

همهمت السيدة: «براونفيلد؟ تباً. ما اسم عائلتك؟»

قال براونفيلد بوهنٍ: «كوبلاند».

لمست جوسي ربطة عنقه. كانت قريبة جداً حتى أنه شعر بأنفاسها. ثم تراجعت فجأة.

سألت بريبة: «من أين أنت؟».

قال براونفيلد: «من غرين».

«في أي مقاطعة هذه؟».

«بيكر». أخذت صندوق الأحذية منه ودفعته نحو طاولة موجودة في آخر النزُل.

قالت: «الآن. أخبرني أي رياح قادتك إلى هنا؟».

سألها: «ما المشكلة في قدومي إلى هنا؟».

قالت: «لا أدري. ربما هذا ما جئت لتخبرني إياه».

بحلول الساعة التاسعة من تلك الليلة، أوكلت إليه مهمتي غسل الصحون وتقطيع الخشب، بالكاد صدق أن الحظ ابتسم له أخيراً. استمع إلى الموسيقى الصادحة المنبعثة من جهاز الفونوغراف الساحر. تعاطفت جوسي معه عندما أخبرها عن حياته المتعثرة مع مارغريت وغرانغ. كانت مهتمة للغاية بما قاله عن غرانغ، وعندما تحدث براونفيلد عنه، فركت جوسي يديها بعضهما ببعض بترقب وعضت على شفتيها. بعد إنهاء رواية قصته، أعدت له عشاء ودفعته ليتبعها إلى غرفتها في الطابق العلوي، حيث قدمت له مريلة، ومدت يدها لتلمس كتفيه وتثبت المريلة.

سألها براونفيلد: «لِم كل هذا الاهتمام بعائلة كوبلاند؟»

قالت جوسي: «أوه، يُخيّل إليّ أني لربما سمعت بهذا الاسم من قبل. هذا كل شيء». ثم قالت بعد أن أخفضت نظرها إلى سرواله: «لكنه كان رجلاً أضخم بكثير».

قال: «سيدتي؟». في غمرة حماسه لحصوله على عمل، لم يخطر في باله أن يكون والده قد سلك الطريق عينه، عَبَر البلدة، والنزُل، بل وحتى جوسي. ثم وضعت ذراعها عليه، كانت بشرتها مثل العسل الجاف المتشقق، وقالت بمرحٍ: «لا تكترث يا سكرتي، أنا فقط أكلّم نفسي».

خلال الأسابيع التالية، اكتشف أنها قطة شبقة، تتوق بنهم وخفية لالتهامه، بل وابتلاعه حياً. لم تعد الأفكار المتعلقة بوالده تراوده بعد أن أضحى مسحوراً برقتها المدهشة؛ أفكار الانتقال شمالاً انسلّت منه

وتلاشت وسط النسيان المستكين لدفئها المتمرّس. وما قالته عن رجل أكبر بكثير ويحمل الاسم نفسه لم يلاحقه إلا بعد فوات الأوان. مكوثه القانع لم يتنبأ بحلول يوم قد يرى فيه غرانغ مجدداً، ليس في نيويورك أو شيكاغو، وإنما في الغرفة ذاتها التي أمضى فيها معظم لياليه. لم ير غرانغ الضائع أو الثري في الشمال، وإنما غرانغ المجنون والميسور في الجنوب، في بيكر، في غرفة جوسي، بين ذراعي جوسي، غمره قرف من كل شيء، وعدم اكتراث بأي شيء، لكنه لسبب ما رغب بأخذ القطة الشهوانية الشرهة العظيمة إلى المذبح.

-7-

راودت جوسي كوابيس مفزعة. ولجأت في إحدى المرات إلى الأخت مادلين طلباً للمساعدة، وقالت الأخت مادلين إنه يتعين عليها البوح بما تحلم به، ولم تتمكن جوسي قط من فعل ذلك.

قالت: «الكوابيس تحرجني بشدة يا أختاه. عندما أصلي في الكنيسة، تسخر النسوة الأخريات مني. يجهلن معاناتي، لو عرفن ما أقاسيه لما سخرن مني».

قالت الأخت مادلين وهي تتثاءب: «هذا ما تعتقدينه على أي حال. لكن اصغي إليّ، يقولون إنه يتوجب عليك أن تلقي بما يثقل كاهلك عند قدمي الرب. يقولون إنه سيصغي لك. لكن عليكِ إخباره الحقيقة؛ هذه هي الفائدة الوحيدة التي ستجنيها هناك، وإلا فلن يكون بمقدور حتى الرب مساعدتك».

«ألقيت بما يثقل كاهلي في مكان آخر، هذه هي الحقيقة صدقيني. بدأت منذ سنوات باللجوء إلى كل جهة قد تصغي لي. ومن بينهم الرب. ولكن كلما بحت بما يؤرقني، تزداد معاناتي. كل ما حولي يلفه سكون مطبق، ذلك السكون الذي يسبق العاصفة، وعندما أحلم، فإنني أحلم فقط لأدع الساحرات يتلبّسنني». رفعت الأخت مادلين أحد حاجبيها. «ابني الجامعي يقول إنه لا وجود لساحرات يتلبّسن الناس. تعلّمَ في جامعة مورهاوس أن سبب هذا يعود إلى عسر في الهضم، بسبب شيء تناولتِه أو طريقة رقادك في السرير. يتوقف مسار دورتك الدموية

وتعجزين عن الحركة. تتصببين عرقاً أثناء نومك وتعجزين عن الحركة، فتراودك الكوابيس، وعندما تستيقظين، تحسبين أن ساحرة تلبستك. ووفقاً لما يقوله ابني، لستِ بحاجة إلى عرّاف، وإنما تحتاجين إلى تناول بعض الملح».

صرخت جوسي: «ثمّة جنّ *يتلبسني*». تضرّعت كي تصدقها «أراه وهو يتلبسني».

«من؟»

قالت جوسي: «لا أستطيع إخبارك الآن».

قالت الأخت مادلين وهي تناول جوسي كوباً من الشاي: «حسناً. لا تنتظري من الطبيب أن يعالج ألم ظهرك ما لم تخبريه أن بغلاً ركلك، صحيح؟ أنا عرّافة، ولكني لست الله. قدراتي محدودة، الفتى الذي يدرس في الجامعة قدراته محدودة أيضاً».

أخذت جوسي رشفة من الشاي وتناولت بعض الحبوب.

مشت الأخت مادلين جيئة وذهاباً، مولية جوسي الجهة الجانبية من وجهها التي تشبه وجه قائد هندي.

«تلك النظرية المتعلقة بركوب الجن للبشر تعود برمتها إلى طفلي المتعلم. لا أجادله خشية تبديد الأجواء السلمية في العائلة. ولكني أطرح عليك سؤالاً واحداً: هل كان بإمكاني إدارة عملي إن لم أؤمن بالجن؟ أعرف أنهم حقيقيون لأنه تعين عليّ أنا نفسي التخلص من بعضهم. تعلّم ابني أن الجن غير حقيقيين في الجامعة، حيث يؤمن الجميع بشخص اسمه فرويد عمد إلى استخدام أريكة عتيقة. حسناً، لا أؤمن بالأرائك، لكن ما الذي يعرفه الشباب؟».

توقفت عن قطع الغرفة جيئة وذهاباً ونظرت إلى جوسي. خلت عينا الأخت مادلين تماماً من أي شفقة، كانت عيناها ثابتتين متألقتين كالخرز تطفحان بنظرة ظفر. لم يثر هذا توتر جوسي التي خالت أن العرافة جنسٌ بشري آخر يختلف عن جنسها. لم تحتمل النظر بشكل مباشر في عيني

الأخت مادلين. قالت الأخت مادلين مولية ظهرها نحو جوسي: «يعرف كل شخص يطارده جني هوية الجني الذي يترصده»، وأردفت أثناء مغادرتها للغرفة: «إن استطعت التصريح باسمه، ستُشفين حينها».

بعد مغادرة جوسي، دوّنت الأخت مادلين بسرعة ملاحظة لابنها، ووضعت الورقة في ظرف، جنباً إلى جنب مع المال الذي دفعته جوسي لها، ثم جلست على كرسيها تفكر وتتأمل، راشفة آخر قطرة في كوب الشاي.

-8-

لم تستطع جوسي قط النطق باسمه، حتى أنها أوهمت نفسها بأنها لا تتذكره. لم تعرف لماذا يزورها أثناء نومها، يتركها منقوعة بعرق جسدها، فيما تتسارع نبضات قلبها تحت تأثير خوفها وهلعها، يخلّفها وراءه مشلولة بثقل وزنه، مثل حُكم يربض فوق صدرها. كان والدها بديناً، وكان هو من يتلبّس جوسي، ليخنقها طوال الليل.

والدها. كيف لها أن تتذكره؟ انسلّ السؤال إلى ذهنها مترافقاً مع حيرة لم تفارقها منذ سنين، شوّش السؤال على انطباع لا يُنسى حول ليلة قاسية حدثت قبل ما يزيد على ثلاثين عاماً، ليلة الصبا الأخيرة التي قضتها في منزل والدها، الليلة التي قُدّر لها فيها أن تغير حياة خطيئتها لتعيدها إلى عفة بلدها الأصلي.

اعتقدت أن والدها وافق على السماح لها بالدخول مجدداً إلى منزله، إذ لم يرفض الهدايا التي تطلّب شراؤها من جوسي العمل بجدٍ واجتهاد، وقبِل الهدايا التي قدمتها إلى أطفاله أو إليه أو إلى والدة جوسي. فكرت: سأذهب إلى الديار *أخيراً* لأعيش هناك، لأكون طفلة، لأعود إلى السادسة عشرة من عمري، وأبقى بجوار قلبه ويده.

حدث هذا ليلة عيد ميلاد والدها، قطعت جوسي درب بيتهم بحذاءين مغبرّين، ودخلت إلى الفناء الأجرد المكنوس. جلس والدها على الشرفة التي تعد بمنزلة منصة مهلهلة لسلطته، كان غافلاً عن أمر الحفلة التي خططت لها على شرفه. حملت أكياساً صغيرة، لكنها كانت قد خبأت

الأكياس الأكبر عشية عيد ميلاده. تبعتها عيناه الوقورتان العميقتان أثناء صعودها الدرج وبعد دخولها إلى المنزل. لم ينطق بكلمة. لكن بدت عيناه تشعان بوعدٍ ما وانفرجت أساريره وابتسم ابتسامة مرتبكة. ظنت أنها ستحظى بالصفح والغفران.

سألت والدتها التي كانت ضخمة على غرار ابنتها، وتحمل على يديها طفلاً: «هل تظنين أنه سيسمح لي بالعودة إلى المنزل؟». المال الذي أنفقته جوسي لإقامة حفلة عيد ميلاد والدها سيكون آخر مال تجنيه قبل ولادتها لطفلتها. جواب والدتها على سؤالها جاء على هيئة صلاة رتلتها بصمت، على شكل إيماءة مذعورة و*متحفظة* لا تخلو من بارقة أمل. كانت والدتها سيدة مستكينة، لم تجادل والد جوسي قط، برغم أنها قلما اتفقت معه في الرأي. وصلت جوسي باكراً لإعداد الطعام وتحضير مشروب الذرة والماء المُحلّى وتقطيع أوراق النعناع واستقبال ضيوف والدها. عرف الضيوف بأمر العار الذي سربلها لكنهم جاؤوا على الرغم من ذلك، ينتابهم خوف من وقار والدها واستقامته الصارمة، لكنهم عوّلوا في الوقت ذاته على إيمانه المسيحي الفائض الذي طالما وعظهم به، علّه يعينه على الصفح والغفران، ليس عن جوسي فحسب، وإنما عنهم أيضاً.

دفع الرجال الذين ضاجعوا ابنته المال لها عند توفره، وشعروا بوخزة ضمير طفيفة عندما عرفوا أنها استخدمت ذلك المال لشراء حب والدها لها مجدداً. أخذ الغليون الجديد والخفّين والساعة النحاسية الكبيرة وبدأ بارتدائها، راقبوه واستمعوا إلى أفكاره حول المحصول والطقس، ورأوا في عينيه الذعر المسلي والذاهل في الوقت ذاته.

جلسوا أثناء الحفلة في دائرة شكّلت نصف حلقة وراقبوا تجاهله لها.

- «هل تريد القليل من هذا يا بابا؟» «هل تريد القليل من ذاك؟»

طفحت العيون الجاحظة بأسئلة عن البطن الكبير المنتفخ وتساءلوا عمّن سبّب حملها، صبّت جوسي لنفسها كأساً مترعة وابتعدت عنهم لتلوذ بضبابية الشراب الطافية، وعندما وقعت بتهور على ظهرها داخل

نصف الدائرة التي شكّلها الرجال (زوجاتهم لم يحضرن الحفلة بالطبع)، حينها وحينها فقط، نهض والدها من على كرسيه، مخلّفاً وراءه الألوان الصارخة الحربية للوسائد التي نُقشت عليها صور طيور ومدافع وخيول وورود حمراء، كانت قد اشترتها له من حرّ مالها، نهض، ووقف فوقها، محذراً أي شخص من إنهاضها.

بكت والدتها ووقفت خارج مجموعة الرجال المتحلّقة، كانت جاهلة بعدد الرجال الذين يعرفون بأمر جسد ابنتها المنتفخ. كانت دموعها ونواحها دموع الندم ونواحه، كما لو أنها السبب في أول مطارحة غرام بين ابنتها وحبيبها المراهق، وعمليات الاغتصاب التي تلت، وتناوب الرجال الآخرين على اغتصاب ابنتها، من دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء إخفاء الوجه الحقيقي لهذه الاعتداءات. كانت صرخاتها مدوية مما أحرج الرجال الواقفين الذين بدوا كما لو أنهم ضُبطوا عراة، وانحنوا فوقها بينما لا يزالون يشكلون الحلقة نفسها، حاولوا إنهاض الفتاة المذعورة التي أخيراً صفا ذهنها المثقل بالويسكي، واستلقت مثل سلحفاة حبلى منهكة ومقلوبة على ظهرها تحت قدمي والدها. ضغط بقدمه على كتفها وحذرهم من مغبّة لمسها. خُيّل إليهم أن بطن جوسي تحرك وخشَوا بدافع شعورهم بالذنب من أن يسقط فجأة على الأرض أمامهم، ثم يئنّ ويشي بأسمائهم. لكن لم يحدث أي شيء من هذا، وانقضى الأمر بأن بدأت بالتلوي والاستفراغ واختنقت بقيئها.

قال أحد الحاضرين في الحلقة الضيّقة: «أرجوك يا سيدي دعها *تنهض*. إنها في حالٍ *يرثى لها*».

لاحظوا أن جوسي على وشك الإغماء، وانحسر فستانها الداكن ليرتفع إلى ما فوق ركبتيها. تشنجت ركبتاها، ومدّت ذراعيها على طولهما. بدت مثل عنكبوت، مشوهة وقبيحة تأكلها النظرات المتفرّسة المذعورة للرجال المتحلّقين حولها. تبادلوا النظرات الهلعة، فيما خالج كل رجل فيهم اضطرابه الخاص، إذ سبق لهم أن شاهدوا جسدها ممداً على طوله.

دمدم والدها: «دعوها وشأنها. سمعت أن بوسعها لعب *حيل* وهي ممدة على ظهرها بهذا الشكل».

تلك كانت البَركة التي منحها لها والدها، الجن الذي تلبّسها ليتركها مقطوعة الأنفاس في منتصف العمر. وُلدت لورين تحت قدميه تقريباً، في ذلك المشهد تماماً، لترى النور لأول مرة في عالم مليء بأصدقاء جدها الرجال، الذين كثيراً ما ترددوا على الكوخ الصغير في شارع بونتانغ حيث تزاول «جوسي البدينة» (إذ زاد وزنها كثيراً بعد ولادة طفلتها) عملها بمتعة متخففة من الشعور بالعار، وتفرض أثناء مطالبتها بأجرها سلطة لا يشوبها أي إحساس بالشفقة. ومن هؤلاء الرجال العجائز، أصدقاء والدها، حصلت جوسي على المال الكافي لشراء ملابس أنيقة لنفسها وطعاماً جيداً، إضافة إلى نزُل «قطر الندى». عندما أصبحوا هرمين وتحت «المستوى المطلوب»، عاملتهم بجلافة كبيرة وبطريقة لا تخلو من السادية. كثيراً ما مارست رقص التعري لتدور في مركز نصف حلقة مكوّنة من رجالٍ توّاقين، ترتج وتصرّ على أسنانها وتتأوه، مطالبة إياهم بدفع آخر قرش من مدخراتهم الشحيحة التي احتفظوا بها لكهولتهم، محذرة إياهم من لمسها.

-9-

خرجت من حنجرتها قرقرة رطبة. بدا وكأن قوة غريبة تهرسها وهي ممدة على الفراش. أخذت نفساً عميقاً وسرت قشعريرة في جسدها وتصلبت. كانت تشحذ طاقتها لإطلاق صرخة. لكزها براونفيلد كما ينبغي عليه أن يفعل في مثل هذه الحالات وفتحت عينيها بعد مرور دقيقة. تنفست بصعوبة وهي ترتجف.

سألها: «هل أنت بخير؟ هل تريدين ماءً أو أي شيء آخر؟».

قالت جوسي: «ليكن الله في عوننا».

سأل براونفيلد: «ما هذا الحلم الذي يراودك دائماً؟»

«تتصلبين وتتجمدين كشخص ميت، لا تختلف هيئتك عن الميت سوى أنك تتعرقين، وتهتزين نوعاً ما أيضاً كما لو أن هناك محركاً يهدر في المكان الذي يقول الناس إن القلب موجود فيه».

ظلّ براونفيلد يكرر سؤاله عن الحلم لمدة عام كامل. لم تخبره جوسي أبداً، استلقيا في السرير محاطين بالملاءات البيضاء المتغضنة. على جهة جوسي، أضحت ثنيات الملاءات المبللة بعرقها رطبة ورخوة. أضاء براونفيلد المصباح ووضعه على الطاولة بالقرب من رأسها. وقف عارياً وقلقاً، يحدق في وجهها. كان وجه جوسي متجهماً وشاحباً ومتورماً، فيما تركت الوسادة أثرها عليه، وأضحى رطباً بسبب حلمها. كان لها وجه بليد بلا ملامح كوجه طاهية في منزل كبير، وجه نادلة متعبة، سيدة ممتلئة جداً، وجشعة للغاية، مستعصية جداً على أن تكون معشوقة.

كان بوسع وجهها أن يرسم إمارات التكشير أو الضحك أو أن يظهر ابتسامة صفراء، لكنها فقدت منذ زمن بعيد أبسط وأهم آليات الابتسام. إلا أن عينيها لم تفقدا قط نظرتهما الجريئة المفترسة، حتى عندما تصحو من النوم مذعورة، كما هو حالها الآن. كان براونفيلد على يقين من أن جوسي لم تكن شابة يوماً، ولم تفح منها قط رائحة الحليب أو الورود، وإنما فقط رائحة خراب عذب يمكن لأحدهم اجتثاثه والتخلص منه فقط في حال تكبّد مشقة تعريض كل سنتيمتر من جسدها إلى نيران إعجاب مهلك وحب أعمى، نيران ملتهبة ومستنزفة تطهرها. لكن براونفيلد لم يحب جوسي، لذلك لم يتعجب بحق من تمنّعها عن إخباره أي شيء عن نفسها، على الرغم من أنها أمطرته بحكايات عن تفاصيل حياته. ولتصدمه، أخبرته مرة حكاية غريبة عن والده عندما عرّج على نزُل «قطر الندى» أثناء توجهه شمالاً، ومكث معها وأحبها. ضحك براونفيلد.

«إن هام بحبك، لماذا لم يبق معك؟»

توارت خلف دموعها، وتظاهرت في اليوم التالي أنها اختلقت القصة.

تمتمت جوسي وهي مضطجعة في سريرها: «أشكر الله لأني لست فقيرة. وأشكر القدير الرؤوف لأنني أعيل نفسي من دون مساعدة غرباء، أي أنني بصريح العبارة لا أحتاج لوعاء أبول فيه أو لنافذة أرمي البول منها». لم تفوّت في بعض الأحيان فرصة تذكير براونفيلد بعوزه وفاقته. أخذت الوسادة الموضوعة على جهته من السرير واحتضنتها وكأنها حبيبها.

قالت: «اسمع، جهتي من السرير رطبة».

تعثر براونفيلد متجهاً نحو الغرفة المجاورة من دون أن ينبس ببنت شِفة، ودخل إلى غرفة لورين، غير عابئ إن كانت ستنام على الأرض، صعد من دون أدنى تردد إلى سرير لورين.

-10-

وقعت عينا براونفيلد للمرة الأولى على ميم، ابنة جوسي «بالتبني»، بعد مرور عامين على مواظبته جماع جوسي ولورين معاً. كانت ميم خارج البلدة تدرس في إحدى مدارس أتلانتا، ويتكفل أب منحرف بدفع نفقات دراستها. كانت ابنة أخت جوسي، ووالدتها متوفاة.

كانت جوسي تعترف أحياناً لأصدقائها المتعاطفين معها قائلة: «ماتت وخلّفت لي وراءها عبئاً صغيراً هو الأحلى على الإطلاق».

«تشتري تلك الفتاة كتباً يعادل ثمنها ثمن ما ندفعه لشراء الفساتين!». كانت جوسي تبتسم بفخرٍ وبنيّة شريرة مبيّتة وهي تقول ذلك لبعض معارفها الأثرياء. بالنسبة إليها «العمل» في النزُل ناجح، ولم تجد ضيراً في جعل الناس يحسبون أنها هي من يدفع نفقات دراسة ميم في المدرسة الثانوية.

ووفقاً لما عرفه براونفيلد، فقد كان والد ميم واعظاً مهماً من الشمال من سلالة عائلة شرعية كبيرة. التقى شقيقة جوسي في صيف إحدى السنوات عندما جاء إلى الجنوب ليعظ في قداس إحياء الروح الدينية في كنيسة والد جوسي. وقعا في الحب وولدت ميم. عاد الواعظ إلى عائلته في الشمال وطُردت والدة ميم من منزل والدها.

استضافتها جوسي إلى أن ولدت ميم، وبعدها بفترة وجيزة قضت نحبها.

«بالطبع، أختي عمدت نوعاً ما إلى اختطاف ذلك الواعظ مني،

حبه لها كان ردّة فعل على حزنه لأني لم أستجب له، أتفهم قصدي؟». ابتسمت جوسي ابتسامة مواربة لبراونفيلد، وأردفت: «لكن *أنا* من أحبها بحق».

وفقاً لجوسي، السبب الوحيد لعدم ارتياد لورين للمدرسة هو («بالطبع، كنت توّاقة وثرية بما يكفي لإرسالها») لأنها عنيدة جداً وتأبى الالتحاق بالمدرسة. لكن عندما أصبحت في الخامسة عشرة، كانت لورين أماً لطفلين. العيش في النزُل مع عشاق والدتها الذين واظبوا على ملاحقتها عرقل خطاها منذ البداية ووقف هؤلاء حجر عثرة في طريقها، وكان هذا أسرع شيء واجهته، إلى جانب ما حدث مع والدتها، في البلدة. لم يحتج براونفيلد وقتاً طويلاً ليدرك أن لورين معجبة به (أي شيء تجربه والدتها يصبح مغرياً بالنسبة إليها)، بل وليعرف أن جوسي أكثر من معجبة به. في عمر السابعة عشرة، كان مستقراً تماماً بينهما وأضحى المكان ملكه كما هو ملكهما بالضبط. أو هذا ما أكدتاه له سريعاً.

انسجم معهما تماماً وأدار ظهره لشجارهما عليه. كانت لورين مومساً متعافية تغمر نفسها بعطر رخيص فيما لون شعرها أحمر كعملة نقدية جديدة حمراء برّاقة، وكانت شريكاً مثيراً في السرير مثل والدتها. ورغم أنها بدت مثل شقيق أحدهم أكثر منها شقيقته، فقد حظيت بسمعة تشيد بصلابتها وحصدت الاحترام من الشباب الذين رأوا فيها قدوة لهم وأملوا بأن يصبحوا مثلها عندما يكبرون. عُرفت باستخدامها المتمرس لموسى الحلاقة، وقيل إنها طعنت بها ذات مرة زوجة أحد الزبائن وطردت الزبون من الغرفة بينما نزفت زوجته إلى أن شارفت على الموت. استمتع براونفيلد بها أيضاً بسبب لغتها، كما في المرة التي تحدثت فيها عن الزبون وعن زوجته النازفة قائلة: «كنت فقط أحاول *القبض* على ذلك الزنجي لأطلب منه أخذ تلك الخنزيرة الولّادة وإبعادها عن أرض غرفتي. لن أرهق مؤخرتي بمسح مخلّفات هؤلاء المقرفين». كان براونفيلد سعيداً إلى أن ألقى نظرته الأولى على ميم.

كانت بشرة ميم سمراء كرزية، لم تكن صفراء مثل جوسي، أو داكنة ومشعرة مثل لورين. كانت ممتلئة وهادئة، لها عينان مائلتان وخجولتان. قلّما لاحظ أحد وجودها عندما تعود إلى الديار خلال إجازة المدرسة، إذ عمدت إلى المكوث في الطابق العلوي عندما يعج البهو بالناس، وعندما تغادر الطابق العلوي، تظل خارج المنزل تتمشى، تتمشى فحسب في الغابة. حاول براونفيلد التحدث إليها لكنها ردت عليه بحياء، لازمت عيناها الأرض، وبدا بالنسبة إليه أنها غير مهتمة، ومشت في طريقها، فيما زادت التفاتاته نحوها. لم يكن قد سبق له أن عرف أشخاصاً يتمشون «يتمشون فحسب» في الغابة ما لم يتوقعوا أن يحظوا بصيدٍ وفير.

سأل جوسي: «من بحق الجحيم تظن نفسها؟» عقد حاجبيه إزاء ما لم يستطع فهمه. «لا أطيق النسوة اللواتي يغبن عن الديار لأسبوعين ويعدن ليتحدثن بطريقة لائقة!».

كان جزءاً مما عناه «المشي بطريقة لائقة»، لأن ميم مشت حتماً بطريقة لائقة. ظل سيرها بهدف السير فحسب لغزاً يحيّره ويثير فضوله لفترة، ويستفز حب الاستطلاع لديه إلى أقصى حد. لم يكن معارضاً لفكرة أن يكون رهن إشارة كل أفراد العائلة.

خرخرت جوسي: «كفّ عن دورانك هنا وهناك وتعال إلى السرير»، صارت تزداد شبهاً بالدودة يوماً بعد يوم. «لا فائدة من النظر إلى تلك السيدة، فهي لا تتحسس فِرجها بتاتاً. لا يمكنها فعل ما أفعله لك».

استجاب براونفيلد ليديها الناعمتين الآثمتين الهرمتين بأن أخذها إلى السرير.

سألت جوسي: «متى سنتزوج يا حبيبي»، بينما شرد براونفيلد في سرير ميم على الجهة المقابلة تماماً من الجدار، على بعد قدمٍ واحدة من «والدتها» المحسنة.

في اللحظات التي طفح فيها قلب لورين بالحقد على أمها، حاولت إخبار براونفيلد أن ما قالته جوسي عن غرانغ وعنها كان صحيحاً. لم يكن

مفهوماً بالنسبة إلى براونفيلد كيف لوالده وجوسي أن يكونا عاشقين. علاوة على ذلك، لماذا يهتم الآن إن كان يحرث في أرض زرعها والده. حقل جوسي الهرم لم يخلُ يوماً ممن يحرثه. وبعد مجيء ميم، لم يعد ثمة أهمية لأي شيء تخبره به لورين أو جوسي. انحصر اهتمامه بميم. وانصبّ جلّ تفكيره بكيفية اختراق غرابتها الهادئة.

-11-

ترافق تفكيره بميم مع شعور دائم بالذنب، مع إحساس بالعار لأنه ليس أفضل مما هو عليه. شعر بأنه مجرّد جريمة. قذارة. فكر بها كأم ثانية، أمٍ من نوع مختلف عن نوع والدته. شخص خُلق ليكون معشوقاً ويتحدثَ إليه الناس برقة، شخص لا يخشى من طرقه الفظة الخشنة. غير أنه لم يستطع قط التعبير عن مشاعره نحوها، كان جاهلاً بذخيرتها من الكلمات، لكن حتى لو امتلك الكلمات التي تعرفها، فقد أيقن أن هذه الكلمات عاجزة عن نقل المشاعر التي يحملها في قلبه نحوها. كان بوسعها قراءة المجلات والكتب، لكن جلّ ما استطاع فعله هو النظر إلى الصور والمجازفة بتخمين ما تعنيه. في أغلب الأوقات، عندما يصبحان وحدهما في المنزل وتخرج إلى الشرفة لتحاشي وجودهما معاً وحدهما، كان يتبعها ويحاول التحدث إليها. استطاعت الابتسام وقول بضع كلمات، لم تفه أبداً بكلمة فظة حول سلوكه المشين مع جوسي ولورين. أعرب عن رغبته بتعلّم القراءة والكتابة، وعرضت عليه تعليمه. كان سريع البديهة ودقيق الملاحظة، وأمضيا ساعات طويلة خلال فترة العصر، أي قبل افتتاح حانة نزُل «قطر الندى»، جالسَين على الدرج في الخارج ومعها كتب مدرستها القديمة. عندما بدأت بتعليم مناهج المدرسة الإعدادية، أدرجته أيضاً في صفها لتعلّمه مع بقية التلاميذ. أو هذا ما حاولت فعله.

دأبت على تعليمه، واختارت التحدث إليه بنبرة متزمتة وصارمة لطالما كانت محط سخرية لورين وجوسي: «في المقام الأول، إن كنت تود التحدث عن المثنى أو الجمع وتجهل أي كلمة تدل على اثنين أو

أكثر، من الأفضل عدم استخدام «ون» في آخر الكلمة، ذلك لأن الفعل يوافق الفاعل في المفرد والجمع. هل تفهم ما أقول؟ حسناً، كل ما أقوله إن «أملك بعض الكعك» أصح من «أملكون بعض الكعك». أو «نحن صديقان»، أصح من «نحن صديق». الآن هل هذا واضح؟» نظرت إليه بريبة واضحة، عقدت حاجبيها. أومأ بدوره، نعم، وردد في خِلده بسعادة مرات ومرات «نحن صديق! نحن، ميم وأنا، نحن صديق!» ابتسم مما دفعها للتخلي عن عبوسها والابتسام بدورها.

كانت معلّمة جيدة. لم يحظ قط بمن يعلمه. علّمته كتابة اسمه وتهجئة الأحرف الأبجدية، وكتابة اسمه واسمها معاً بانسيابية تامة من دون رفع يده عن الورقة. عندما بدأت التعليم في المدرسة، كان يجلس أحياناً على الشرفة بالقرب من الباب المشرّع ويستمع إلى صوتها المجلجل وهي توجه الأطفال الصغار، وركز على ما تقوله، بقدر تركيزه على الموضوع (مما علّمه كيفية تهجئة كلمات دجاج وعنزة وبقرة وخنزير) لمجرّد استمتاعه بسماعها وهي تتحدث. بدت مختلفة كلياً عن جوسي ولورين، اللتين تحدثتا مثل نسوة مسنات بلا أسنان بسبب لا مبالاتهما الواضحة. أولت ميم اهتماماً لما كانت تقوله، وأسبغت على كلامها دفئاً مستمداً من ذاتها، وأبدت اهتماماً كبيراً بالشخص الذي تحدثه، مما جعل براونفيلد يرغب بالبكاء.

اعتبر في سريرته أن ميم تناسبه مئة بالمئة، لمجرّد أنه أحبها. ولكن كان لمعظم أهالي البلدة رأي آخر، ومن بينهم جوسي ولورين، اللتان أكلتهما نيران الغيرة من سندريلتهما التي بات براونفيلد يخاف عليها ويهتم لأمرها (على الرغم من أنه لا تجري في عروقه أي دماء ملكية، إلا إن حسبناه الأمير ستاد)، كما أن ميم لم تخبره قط بأنها تهتم لأمره.

لكن براونفيلد بدأ يشعر بالضيق لأنه مذ صار مسؤولاً عن المنزل لم يتقاض أي أجر شهري، وكان يلجأ إلى جوسي ولورين كلما احتاج إلى نقود. لم تبخل السيدتان عليه بالمال، ولطالما زوّدتاه بما يكفيه من دون تردد، لكن جرى هذا ضمن إطار تفاهم متبادل بأن عليه العمل لكسب

قوت يومه، وهذا يعني أن يعمل بالطريقة التي تحددانها بالضبط. وهكذا استغل قضيبه قدر استطاعته، يضاجع جوسي ولورين ليرضي الحيوان الرابض داخله، الحيوان الذي ثار وجن جنونه عندما وجد نفسه ذات يوم في الغرفة نفسها مع ميم الملتاعة التي أضحى قلبها مقروءاً في عينيها، لكن سعيه وراء السيدتين فَقد بهجته ومتعته، وأدرك منذ زمن أنه لم يكن يستغلهما، بل على العكس، هما تستغلانه. كان بيدقاً في لعبة مسلية في يد كل من جوسي ولورين. وشعر أحياناً بأنه الصلة التي اتكلتا عليها لإثبات العلاقة التي تربطهما بعضهما ببعض كأم وابنتها، ولولا هذه الصلة، لكانتا غريبتين. انحصرت غاية وجودهما في السعادة البسيطة التي تشعران بها جرّاء مغازلة إحداهما لرجال الأخرى، ولاحقاً خوض شجار في الشارع أمام البهو حيث سرعان ما يعرف جميع رجال المنطقة أنه إن رغب رجل بفرج إحداهما، فإن عليه الاقتراب من فرج الأخرى، فتندفع الأولى للارتماء في حضنه.

كان من الرائع لفترة أن يكون بالنسبة إلى السيدتين البيدق الجائزة، استراحة سريعة من إرهاق شرب الكحول والفسق وجني المال وخوض المعارك، ساد اعتقاد بأنهما تحبانه حقاً، ولكن تحبانه بصفته حيواناً نظيفاً شاباً لم تفرغا بعد من تدنيسه. افتقرت حياتهما بشدة للتجديد. كانتا باهتتين كالغرفتين العلويتين اللتين تؤجرانهما بدولارين. بالنسبة إليهما، لا تزال البراءة تسكنه، لأنهما لم تستطيعا رؤية الخراب الذي سبباه داخله. استمتع بما يجري، ولم يكن زوجاً لأي سيدة في نهاية المطاف.

وفي حال شعرتا بالذنب، كما جرت عليه العادة في صباحات الأحد في الكنيسة المعمدانية، عندما تبزّ أناقتهما أناقة جميع النسوة في البلدة ويرتفع صياحهما فوق صياح نصفهن، كان الشعور بالذنب إحساساً مؤقتاً وعابراً وواهناً لا يتعدى كونه شعوراً بعدم الارتياح، يتعزز بشغف توبة بهيجة يزداد لهيبه مع قراءة سطور من الكتاب المقدس. صرختا بأعلى صوتهما مصرّحتين بخطاياهما في خضم نوبة من الحزن الممتع. لكن طهارة روحهما الورعة بالكاد استمرت إلى ما بعد نهاية القداس.

-12-

طفح كيل براونفيلد عندما رأى ميم تمشي للمرة الأولى برفقة رجل آخر، كان معلّماً مثلها. شعر فجأة بأنه ربما يفوّت عليه فرصة لا تعوّض. جرحه اختيارها. هل أسقطته ميم من حساباتها لأنه لم يكن متعلماً. جُرح كبرياؤه. وفكر بكآبة بفقره واعتماده على جوسي ولورين. لم يملك سوى الملابس التي يرتديها ولم تكن ملابس بتلك الجودة على أي حال.

تجسس في إحدى الليالي على ميم وعشيقها حسن التنشئة الرائع وعرف أنه عليه أن يتزوجها. جاء في تلك الليلة، وقف في الممر المعتم يحدّق فيهما، مرّت ميم من أمامه بسرعة والدموع تترقرق في عينيها. كانت هذه المرة الأولى التي عرف فيها أنها تحبه، وأنها تدفعه خارج حياتها كي تحثه على الزواج منها، وأيقن أنه سيخسرها للأبد إن لم يقدم سريعاً على فعل شيء ما. أمسكها واحتضنها حينما كانت تهم بصعود الدرج وأقسم بالكلمات والقُبل أنه لن يتركها. قصد الريف في اليوم التالي بحثاً عن مزرعة قريبة من مسقط رأسه، التقى رجلاً سمع بأنه رجل عادل. تحدثا حول مشروع لتقاسم زراعة الأرض لمدة سنتين، أو إلى حين يصير براونفيلد قادراً على جني مالٍ كافٍ لأخذ عَروسه إلى الشمال.

في الأسبوع التالي، تركت ميم وبراونفيلد جوسي ولورين وهما ما تزالان تتشاجران عليه، وتتبادلان التهم وتحمّل كل منهما الأخرى مسؤولية إتاحة الفرصة أمام ميم لـ «اصطياده». استعار براونفيلد عربة

من الرجل الذي صار يعمل لديه الآن، وجلست ميم إلى جواره على المقعد الخشبي المهترئ.

قطع أمامها عهداً: «لن نعلق هنا طوال عمرنا يا حبيبتي، لا تقلقي»، بينما جلست بهدوء ممسكة وشاحها بيديها السمراوين الدافئتين، ترمقه بعينين مصدقتين ومرحتين تطفحان بالحب، وتبتسمان له.

-13-

مرت ثلاث سنوات وهو لا يزال يعمل في المزرعة نفسها، غارقاً في الديون حتى أذنيه، فيما ميم منتفخة وحبلى بابنتهما الثانية. لم ينس بتاتاً يوم زفافهما واعتبره تاج إنجازاته وذروة تخليص نفسه من الشرور والشياطين وقمة تماهيه مع الحب. حتى الظل الذي أرخته عليه العبودية اللانهائية وابتُلي به على نحوٍ دائم في تلك السنوات الأولى، لم يستطع زعزعة إيمانه بخيارٍ اتخذه بعد طول تفكير، فقد كانت ميم من النساء اللواتي يغنين أثناء تحضيرهن الفطور في الصباح، وكانت تغني أثناء استعدادها للإيواء إلى الفراش في الليل، وتدندن وهي ترضع ابنتيهما، وتغني عندما يزحف التعب والإنهاك نحو دائرتي نهديها الدافئين الواهبين للحياة. لم يكترث لما قد يفكر به البعض، ولكنها كانت طيبة معه، تلبي تماماً احتياجاته، وأضحى جسدها مزاره، وانكبّ على تقبيله بلا نهاية، بلا خجل، بولهٍ، واحتفى بسحره ورقص لها وقدم لها الأزهار، وكما عرفت ابنتاهما منزلتهما في حياتها، كمعرفتهما للحياة، ترضعان نهديها وتتغذيان عليه، عرف هو مكانته عندها، كبر واشتدّ عوده، فيما الحب يثبّت خطاه ويقويه.

كانا شغوفين وغير مكترثين لمن حولهما، يتطارحان الغرام في الغابة بعد سقوط أول أوراق الشجر، يتضاجعان على سطح مخازن الذرة، مما يثير نقيق الدجاج وهيجان الديوك، يمارسان الحب وينجبان بعجالة، يحرقهما لهيب أنقى النيران في نهايات صفوف القطن الوارفة، كانت

تحضر له الماء إلى الحقل وتقف لتراقبه، ترمقه بنظرة تطفح حناناً، بينما يشرب ويرتوي ويريح راحة يده المتلهفة على مقبض محراثه المبلل بالعرق. وكما تجري المياه الباردة الواهبة للحياة على ذقنه وعنقه، يجري حبها في عروقه، يستحم بنارٍ باردة وسلوى حانية، ويغرق في النسيان، ويوماً بعد يوم، تتشكّل حلقةً أخرى في السلسلة التي تشدّه إلى الأرض وإلى مسؤوليته عنها وعن ابنتيها.

الفصل الثالث

-14-

أمضى عاماً من العمل الشاق المستمر من شروق الشمس إلى غروبها، يعتني بخمسين فداناً من أراضي القطن الخصبة، وبعد أن عاد عليهم عملهم بجني محصول واحد وافر، ظفروا بخنزيرين صغيرين مريضين يعينانهم خلال الشتاء، إضافة إلى البطاطا والتفاح المجفف الذي حصلوا عليه من قبو المدير، وبعض الملابس التي منّت بها عليهم عائلة المدير كي ترتديها طفلتاه. كان فصل الصيف هو ما انتظره، وكان عليه تعليم ابنته الهشة ذات الأعوام الخمسة العمل المخادع الخطير والمقزز لتنظيف شجيرات القطن بممسحة مبللة بالزرنيخ لإبعاد خنفساء سوسة القطن. خلال مراقبته لها، بدأ قلبه في الواقع يؤلمه ألماً يشبه ذلك الذي يصيب العظام، راقبها تحرّك الممسحة جيئة وذهاباً وتتعثر بكتل الطين القاسي، فيما أحدث الدلو القصديري الساخن المليء بالزرنيخ خدشاً دامياً في قدمها الصغيرة القصيرة. تعثرت وكادت تقع أرضاً تحت ثقل الدلو. كانت التقلصات والانقباضات تجتاح معدته كلّما رأى المشهد. تصببت عرقاً، وتبلل فستانها الرث تماماً بالعرق والزرنيخ، واحمرّت عيناها الكبيرتان بسبب السم. تنفست بصعوبة لاستنشاقها روائح قاتلة. في نهاية النهار، ارتجفت وتقيأت وبدت منهكة مثل عجوز ضئيلة مصابة بالربو، ولكنها لم تشتكِ لوالدها، فبقدر خوفها منه، كانت خائفة من المدير الأبيض الذي تكرّم من وقتٍ لآخر بالمرور برفقة أصدقائه لمراقبة الطفلة السوداء الصغيرة الوحيدة تسمم قطنه، كانت مُجهَدة لدرجة بالكاد تستطيع رؤيتهم.

كانت الطفلة السوداء الصغيرة ابنة براونفيلد الكبرى، دافني. كان ذلك العام عام صحوة، صحوة أيقظته من غيبوبته، ليس هذا فحسب وإنما من أمل بأن ابنته ستصبح يوماً ما سيدة جميلة تحمل مظلة أنيقة وترتدي الحرير الناعم. في ذلك العام، اكتشف للمرة الأولى أن حياته أضحت تكراراً لحياة والده. لم يستطع إنقاذ طفلتيه من العبودية، حتى أنهما لا تنتميان إليه.

ديونه أحبطته، وكانت في ازدياد مستمر. فكر بالانتحار ولم تغب هذه الفكرة قط عن ذهنه، حتى وهو بين ذراعي ميم. صلّى طلباً للمساعدة، وابتهل كي يتولى رئيس صالح سدّة الحكم، صلّى ليسوع كي يصغي إليه. صلّى بين ذراعي ميم لنيل عمل محترم. ولكن صلواته مثل كل الصلوات الأخرى، تحولت إلى ثغرٍ آخر يطلب طعاماً، جسد آخر يرزح تحت وطأة الرق وهموم سداد ديونه. شعر بأن القدر كتب عليه ألا يكون أكثر من مراقب يشرف على مزرعة الرجل الأبيض، وأب يعتني بطفلتيه.

كان ذلك هو العام الذي اتهم فيه ميم بخيانته، بالسماح للرجال البيض، لمضطهديه، باستغلالها، تهمة أنكرتها بصدق والدموع تطفح من عينيها. وعندما احتقرها بثمله وأمطرها باتهاماته البذيئة، ذوت وأذعنت له كما تذعن لكنيسة، صاغرة بسلبية كاملة وببلادة تامة. كانت أنقى من أن تعرف كم تتقدس روحه بصمتها. عقد العزم في مثل هذه الحالات على معاملتها كزنجية وعاهرة، الصفتان اللتان عرف أنهما لا تنطبقان عليها، وصمم على إدانتها إن لم تتذمر. لم تستطع الكلمات الرقيقة التخفيف من حنقه، استطاعت فقط حرف نظره عن سخطه. لم يَحتمل تلميحات أصدقائه بأنها كانت أفضل منه.

سألوه بحسد، متفرسين في ملابسه المبيّضة والمنشاة، مبدين إعجابهم بكمية الكحول التي يستطيع شربها: «كيف نجحت في الزواج من معلّمة المدرسة هذه يا صاح؟».

قال وهو يحف عضوه من دون خجل: «أعطيها هذا الأفعوان الأسود»، كاشفاً النقاب عن حياته الخاصة على الملأ، «ثم أضربها. هذه هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع زنجية!».

بالنسبة إلى سيدة مثل ميم ناجية بشق الأنفس من «ثقافة الفقر»، فإن الانزلاق إلى تلك الثقافة كان أسهل شيء يمكنها فعله في العالم. فعلت هذا أولاً لإرضاء زوجها، وثانياً لأنها لم تستطع بحق تذكر أسماء هذه الثقافة وأفعالها، نسيت مفردات الجمع والمفرد، وبدأت مجدداً بالتحدث بلهجتها القديمة. تماسُك حديثها انفرط ببساطة وحلت مكانه كلمات مفككة، وتحدثت تماماً بالطريقة اللينة التي تحدث بها أسلافها، لكن طريقة كلامهم كانت جميلة لأنها الطريقة الوحيدة التي عرفوها وكانت جزءاً عفوياً منهم، فيما بدت طريقة كلامها مسطحة وقبيحة، مثل لسانٍ كليل يحاول انتشال نفسه من القنوط.

سأل براونفيلد ذات يوم ليتأكد من أنها عرفت حدودها: «أين كل كتبهم وأشيائهم المتعلقة بالمدرسة؟».

قالت، من دون أن تلتفت إليه، محاولة إصلاح جحر فأر كبير في أرضية غرفة النوم: «أحرقتها».

شعر للحظة بغصة مريرة، كما لو أنه تذوق طعم حضيض أسود ووضيع، ولكن ليداري هذا الشعور، ضحك بينه وبين نفسه. «كنتُ فقط أبحث عن شيء لأشعل به النار».

قالت بطريقة حيادية: «خذ هذه المجلات»، أخرجت أعداداً بالية من مجلة «ترو كونفيشنس» من تحت فستانها. ظنت أنه رأى نتوءاً تحت ذراعها، لكنه لم يكن قد لاحظ ذلك. مد يده لأخذها، وبتنهيدة واحدة تخلّت عن كل ما طمحت إليه وعن كل ما ستصبحه الآن.

غيّر كل شيء فيها، ليس لإرضائه، فقد أرضته عندما تزوجا. غيّرها لتصبح شيئاً لم يرغب به، لم يستطع أن يرغب به، مما سيسهّل عليه معاملتها بالطريقة التي شعر بأنها تستحقها. لم يشفق يوماً على النساء

القبيحات. إذ فكر بطريقة منطقية حول سهولة تجاهل زوجة قبيحة، وساعده هذا التفكير أيضاً عندما كان يضربها.

جاء وقت بدأت فيه بتوفير كل قرش ممكن من أجرها الأسبوعي الذي تتقاضاه من عملها بوصفها خادمة كي تشتري منزلاً يوماً ما. كان هذا أكبر أحلامها. أثناء عملها بوصفها معلّمة، عمدا معاً إلى توفير النقود لشراء المنزل، ولكنه استشاط غضباً في إحدى المرات التي كان فيها ثملاً، فسرق النقود واشترى خنزيراً من بعض الأصدقاء الذين قالوا له إن الخنزير ذكرٌ وسيكون فاتحة له لجني المال من تربية الخنازير. بكت ميم عندما عاد للديار مفلساً، لا شيء معه سوى الخنزير. ثم مات الخنزير. في المرة الثانية التي وفرت فيها النقود لشراء المنزل، استخدم المال كدفعة أولى لشراء سيارة حمراء صغيرة. كانت حانقة بل وأكثر من حانقة، كانت عاجزة عن استيعاب أن كل حركاتها الرامية لإحراز إنجاز ما قد يحسّن حياتهما يجب أن تمرّ أولاً عبره. في النهاية، تكرر سيناريو الخنزير ذاته، تعثر حظه ووضعت شركة التمويل يدها على السيارة. لم تحظ الطفلتان- لم ينجُ من أولادهما سوى طفلتين فيما قضى ثلاثة أطفال نحبهم- بأي هدية في عيد الميلاد تلك السنة. في ليلة عيد الميلاد، تحلّقتا حوله وسمّرتا أعينهما عليه فهرب من المنزل ولجأ إلى جوسي كي تقرضه مالاً ليشرب الكحول. عندما عاد إلى المنزل، أيقظ الطفلتين وبكى، ولكن عندما رأى أنهما خائفتان منه، أنحى باللائمة على ميم. عندما حاولت الدفاع عن نفسها من خلال إخباره أن الطفلتين كانتا خائفتين لأنه ثمل، ضربها بلا رحمة. كانت هذه المرة الأولى التي يخلع لها ضرساً. خلع واحداً وتسبب في خلخلة ضرس أو ضرسين آخرين.

أرادت هجره، ولكن لا مكان لديها لتلجأ إليه. لم يكن لديها أحد سوى جوسي، وجوسي تحتقرها. راسلت والدها الذي لم تره قط، ولم يكلّف نفسه حتى عناء الرد على الرسالة. وتحولت من سيدة مكتنزة إلى طيف نحيل. لم تبدُ بالنسبة إلى براونفيلد امرأة على الإطلاق. حتى

نهداها الرائعان جفّا وتقلصا، وتساقط شعرها، والثناء اليتيم الذي منّ به عليها كان محافظتها على نظافة جسدها. وبّخها على نظافتها، ولكن لأن هذا كان أمراً بسيطاً، ولأنها بدت في بعض الأحيان غير نظيفة نوعاً ما، لم يضربها عقاباً على ذلك.

قالت مستجدية جانباً فيه كبته في معظم الأحيان: «لم ألحق بك الأذى يوماً»، لكنه تجاهل الموضوع.

قال: «فقط تذكري أنك لست من البيض»، رغم كرهه من صميم قلبه للنساء اللواتي أراد ولم يرد لزوجته أن تقلدهن، راق له أن يرمي بثقل مثالية النسوة البيض عليها لأن اللون أمرٌ لا يتسنى لها تغييره، وعلى غرار شعوره بالدونية من لون بشرته، تعمّد أن يجعل لون بشرتها سبب ذلها.

لكنه رغم ذلك ورغم كل ما قاله، لم ينجح في دفعها إلى الشعور بالخجل من كونها سوداء البشرة. امتلكت نظرة بسيطة لذلك الجانب من الحياة، وتجسدت نظريتها في أن اللون شيء تهبه الأرض للأزهار، وكفى. كرهت انتقالهم من كوخ مزارع أجير إلى كوخٍ آخر، أبغضت غطرسة الرجال البيض الذين طردوهم، لسببٍ ما، من دون سابق إنذار أو تفسير. بغضت مغادرة المنزل الذي رتبته وأصلحته بيديها الاثنتين. مقتت هجر زهورها التي واظبت على زراعتها كلما وقعت يداها على بذور أزهار. انتحبت في كل مرة وطئت فيها قدمها مكاناً جديداً، لم يكن عادة ليتميز عن سابقه إلا بعدد جحور الفئران الذي كان دائماً في ازدياد. عليها في كل مرة تنظيف الغرفة من روث الأبقار لتصبح صالحة للسكن، لتعيش فيها طفلتاها، بدا الأمر كل مرة كما لو أنها مُنيت بضربة قاضية. وأُرغمت طوال الوقت على العيش في منزل محاصر بمراعٍ ممتلئة بأبقار وحيوانات توّاقة لالتهام أزهارها حتى قبل زراعتها، أمستْ مثل امرأة تمشي في حلمها، امرأة نسيت طعم الاستيقاظ. ثابرت على الكفاح، مشت بتثاقل مثل بقرة، كرمى لطفلتيها. صارت وداعتها ذهولاً، ثم أضحى ذهولها رعباً، وحشة وأخيراً كراهية.

استطاع براونفيلد، ويا للغرابة، تحمل كراهيتها أقل مما استطاع تحمل وحشتها. في الواقع، استمتع بوحشتها لأنها كانت يائسة تماماً بلا أي بارقة أمل، ضعيفة، من دون أفق على الإطلاق، من دون سماء. حاصره الضيق كلما احتقرته لأنها كانت بسبب كراهيتها تقاوم وتناضل، متسلّحة بالكلمات فحسب، لم تلكمه يوماً، وهذا دائماً كرمى للطفلتين. ولكن مافتئت الكلمات التي تخرج من فمها تخلخل انسجامه التام مع يأسهما.

جسّد العيش وفق أهواء المدير الأبيض بالنسبة إلى براونفيلد مثالاً آخر على حقيقة أن حياته، كما هو مُقدّر له، قد «انحرفت عن مسارها»، وكان بلا حول ولا قوة. قفز عندما طلب منه المجانين القفز، وترك لهم مهمة معرفة ما هو خير له. افتقر، على خلاف والده، إلى الرغبة في الهرب منهم. تخلّى عن إيمانه بوجود مكان أفضل للعيش. تأقلم مع الجحر الذي وجد نفسه فيه، وليتسلّى، صبّ الزيت في الجداول لقتل الأسماك، ودغدغ غروره بإغراق القطط.

-15-

اعتاد براونفيلد في سهرة كل سبت على التواجد في نزُل «قطر الندى». رحبت به جوسي، وصار المكان بيته. ولأنهما عاشقان، صارت علاقتهما الآن أقوى. كانا رفيقين. تبادلا الأسرار. هاجرت لورين إلى الشمال، وأدارت جوسي النزل بمفردها، من دون مساعدة أحد سوى شابتين موهوبتين في ريعان الصبا، شغلتا غرفة لورين القديمة.

أمضى براونفيلد وجوسي جلّ وقتهما يتبادلان أطراف الحديث. تحدثا عن اعتداد ميم بنفسها، والخطأ الذي ارتكبه براونفيلد بالزواج منها، وتكلما عن جوسي ومخاوفها وأحلامها والحيل القاسية التي حاكها القدر ضدها، وعن إرادتها الفولاذية المصممة على النجاة والتغلب على كل الصعاب، وعن ضرورة الانتقام لنفسها من الأشخاص الذين أساؤوا إليها. تحدثا عن براونفيلد، عن الخدر الذي راوده عندما سمح لنفسه بتذكر والدته على نحوٍ خاطف. تكلما عن مارغريت وابنها الوغد ستار. وتحدثا لساعات وساعات عن غرانغ.

«كانت والدتك *حمقاء*، يا لطيف. ظنت أن بوسعها المحافظة على غرانغ من خلال دفعه للغيرة من الرجال الآخرين». ارتجفت ذقن جوسي وصدرت عنها ارتعاشة خفيفة. قال براونفيلد: «حاولتِ بدورك في *غيابه* فعل الشيء ذاته. أم تنوين إخباري أنني حصلت على العمل هنا لمجرّد أنك أُعجبت بوجهي؟».

قالت جوسي: «لكني لم *أحاول* إثارة غيرة غرانغ».

«حقاً؟».

ارتعشت ذقن جوسي بشكلٍ خفيف «كلّا. كنت أحاول *قتل* ابن العاهرة».

ضحك براونفيلد لسببٍ ما. «ما كان ليقتله أن يراك برفقتي. لم يكترث لأمري قط أكثر من اكتراثه بغريب عابر».

«لم تفهم بعد طريقة سير الأمور، أليس كذلك؟»

«أعرف ما يكفي».

قالت جوسي: «لستَ إذاً الشخص المحظوظ. اجلس الآن واصغ إليّ».

جلس براونفيلد على كرسي أزرق مألوف بالنسبة إليه، مقابل جوسي التي استندت إلى السرير.

قالت جوسي: «حدث هذا قبل أسابيع من مجيئك، خططت وغرانغ لمغادرة جورجيا ورتبنا أمورنا على هذا الأساس. عزمنا شد الرحال نحو نيويورك. إلى هارلم، مدينة السود، حيث نملك كل شيء! أليس هذا أمراً مهماً؟ نوينا الرحيل للأبد. قد تتساءل عما فكرت به بخصوص لورين»، نظرت إلى براونفيلد: «حسناً، بيني وبينك، كنت *سأهجر* لورين. ظلت سلسلة تطوّق عنقي لفترة كافية. لولاها لكنت أنا ووالدك *معاً* منذ زمن بعيد. بدأت وغرانغ بارتياد الكنيسة في الأسابيع التي مكث فيها هنا. وأريدك أن تعرف أنه *وعدني* باصطحابي معه، ثم هرب ولم أر وجهه بعدها!». أسندت جوسي رأسها إلى الخلف وأراحته على الوسادة، تسمّرت عيناها على السقف. واصلت كلامها بعد دقيقة بصوت أخفض وأقل اكتراثاً.

«آآآه، معرفتي قديمة بغرانغ، نعرف بعضنا قبل زمن بعيد من ولادتك. قبل فترة طويلة من تعرّفه على والدتك».

لم يتفاجأ براونفيلد. تريّث لمعرفة هذا الجزء من حياة والده.

سأل: «كيف تمكنت من التواري عن الأنظار كل ذلك الزمن؟ لم أسمع أحداً في المنزل يتحدث عن امرأة اسمها جوسي».

«هل تذكر أنك أخبرتني عن تلك *القحبة* الشقراء البدينة التي اعتادت والدتك على ذكرها؟».

قال براونفيلد: «لا تعنين...»، كان ما يزال غير متفاجئ جداً.

مَن غير جوسي يرتدي ثوب كيمون أحمر من الحرير، وقد رُسمت على أكمامه تنانين أرجوانية. مررت يداً سمينة فوق ثوبها في المنطقة الفاصلة بين ثدييها.

قالت: «دعني أشرح لك ما حدث، ما كان غرانغ ليتزوج مارغريت أبداً لو لم تدفعه عائلته «المحترمة» اللعينة إلى ذلك دفعاً. لم يطق أشقاؤه في الأسقفية الميثودية الأفريقية وزوجاتهم ذوات الأثداء العامرة فكرة ضمّي إلى العائلة. لم أكن *صالحة* له بما يكفي. لم أكترث، بنيت منشأتي الخاصة بيديّ وعرفت كيف أصبح ثرية باستخدام عقلي. ومع ذلك بقيت غير صالحة بما يكفي. ما من شيء ناسب العائلة سوى أن يتزوج والدك مارغريت. الشيء الوحيد الذي امتلكتُه وافتقرت إليه هو فِرج بكر. ولكن هذا لم يثنِني أو يثنِ غرانغ عن البقاء معاً. لم يطعه قلبه لهجر والدتك تماماً. لكن في سهرة كل سبت، مثل الساعة، يأتي غرانغ كوبلاند إلى هنا، ويجلس تماماً حيث تجلس الآن.

«جاء إلى هنا إذاً، وتوليتِ أمر *العناية* به؟». أحس براونفيلد بعدم الارتياح من الجلوس على الكرسي، نهض وراح يمشي في الغرفة. قالت جوسي بفخرٍ: «أجل. اعتنيت به، لأنه كان *لي*. لم أشفق على والدتك ولم يرف لي جفن».

قال براونفيلد: «كانت أمور أمي تسير على ما يرام. حيّدت نفسها على الأقل. أتساءل لماذا فعلت ذلك. اعتنت بي في الوقت الذي عرفت فيه شيئاً لم أعرفه».

شخرَت جوسي: «أذعنت كثيراً، عرفتْ أنها لن تفعل لوالدك ما تفعله جوسي البدينة. هل تحسب أنه كان بوسعها ابتكار أفكار لانتشال غرانغ من الديون؟ رغم أن نصف رجال المقاطعة يلاحقونها؟ لم تخطر الفكرة على بالها قط! ثم، عندما خطرت، *نسيت أن تطالبهم بأجرها*! سحقاً».

قال براونفيلد محرجاً: «حسناً، مرت عشر سنوات تقريباً على مغادرة هذا المكان. فترة كافية بالنسبة إليّ لمواجهتك، والهرب منك، والعودة إليكِ». استدار ليواجهها، ملاحظاً شعرها الأبيض الذي نما حديثاً ولم يتسن لها صبغه، منتبهاً إلى التجاعيد التي حفرت أخاديد عميقة على كامل وجهها.

قال بحنوٍ، وقد خالجه شعور بأنه نضج كثيراً وأضحى ملمّاً وواسع الاطلاع على أمورٍ تفوق طاقته على الاحتمال: «يمكنك أيضاً التوقف عن مضاجعتي». «غرانغ لن يعود. إن كنت ما تزال ترغب بالاصطدام معه، عليك التوجه شمالاً إن كنت تود رؤيته. لن يفيدك مكوثك معي في شيء».

قرأت جوسي القرف الظاهر في عينيه.

افترّ ثغرها عن ابتسامة أمومية، خلعت ثوبها واقتربت منه لاحتضانه: «لكن حبيبي، ألم تكتشف بعد أنني أيضاً أحبك *لذاتك*؟».

-16-

أضحى براونفيلد مع مرور السنوات معتاداً على التفكير بغرانغ بوصفه شخصاً لم يعرفه عن كثب قط. لم يشر إليه بصفته أباه، بل اكتفى بذكر اسمه «غرانغ». خفف هذا من حدة شعوره بأن جوسي حمل ثقيل على كتفيه، كما هدّأ من الإحساس الذي لطالما راوده بأن جوسي تسخر منه، وتجعله يبدو كألعوبة، متظاهرة بأنها تهتم لأمره. لم يكن أكثر من مجرّد صبي اقتصر معنى رجولته على معنى واحد، وتغلغل هذا المعنى بسهولة في رأسه، بينما أكل البؤس قلبها حزناً على غرانغ.

لن ينسى أبداً وجه جوسي ليلة عودة غرانغ إلى مقاطعة بيكر، كيف ومض الذعر وإدانة الذات والذنب *والفرح* في وجهها. أبعدت براونفيلد عنها بتردد، كما لو أنه بغيضٌ كضفدع ووضيع كضربٍ من السحالي غير المؤذية. أضحى كلّ تبجحها حول رغبتها بـ «قتل» غرانغ في مهبّ الريح، كانت لتفوّت على نفسها فرصة قتله تلك اللحظة، حتى لو كلّفها ذلك حياتها. بسبب تلك النظرة المذنبة المذعورة، رغب براونفيلد أن يراها يوماً ما ملعونة ومحطمة. استلقيا بتكاسلٍ في السرير، يتلامسان ويتحسسان بعضهما جسد بعض. ارتدت جوسي ثوبها الداخلي الشفاف، تحدثا عن شغفهما النهم بعضهما ببعض، وهو موضوع دأبا على التطرق إليه كلما أضحى عنيناً. بعد ميم، أصبح في أغلب الأوقات عاجزاً عن ممارسة الحب مع جوسي، وأضعف التفكير بميم شهوته، وأطفأ شحوبها المتعب الدائم الذي لا يفارقها

حماسته. تحدث مع جوسي عن شغفهما، عن الأيام الخوالي، واختلقت جوسي أكاذيب عن ميم. وكي يمارس الحب مع جوسي، تظاهر أحياناً بتصديق كذبة مقززة ملفقة ضد زوجته، كذبة خسيسة تستدعي منه العودة إلى المنزل على الفور وضربها. لم تكترث جوسي بالوسيلة التي تستخدمها لإشعال فتيل رغبته، انصبّ اهتمامها على إشعالها فحسب. وكلما نام إلى جوارها واحتضنها، يتحرر ذهنها من ذكريات الخيانة، وتنسى الذعر الذي يسببه لها حلمها المتكرر، وتدخل في عالم من الرقة والقناعة. أضحى وجهها وجه فتاة سمينة وبريئة وطاهرة، كانت نقيّة ووادعة وحقيقية.

برغم ذلك، لم يمارس براونفيلد الجنس مع جوسي، ليس بطريقة كاملة ومُرضية كما اعتاد أن يفعل مع ميم. جوسي تأخذ وهو يأخذ. كانت تعمد في المرات التي تميل فيها للتصرف بلؤم أحادي الجانب إلى شتمه وقذفه بكلمات توصيفية حمقاء، أو للانغلاق والدخول في حالة من العزلة الآمنة، العزلة التي راق لبراونفيلد إرسالها إليها بإخلاص، بدا له حينها أن مضاجعتها فعل نابع من لطفه، وأراد أن يكون لطيفاً. أثرت فيه الكوابيس التي أزعجت جوسي لسنوات، ومن أضعف الإيمان أن يساعدها على النوم، هكذا حدّث نفسه.

لكن لم يتسنَّ له تلك الليلة مساعدتها على النوم. جاء غرانغ، وقد أمسى أشيب ونحيلاً كذئب. وقف عند باب غرفة النوم. أطلق براونفيلد الشتائم، وانتابته في البداية رغبة جامحة بضرب والده، بيد أنه أدرك على الفور- مما أدخله في نوبة من النحيب- أنه ما يزال يهابه. وخيّل إليه أنه ما يزال طفلاً بسبب الخوف الذي شعر به. ولهذا بدلاً من خوض شجار مع والده، لعنه براونفيلد وصرخ وترك إحدى فردتي جواربه بالقرب من سرير جوسي. وقف غرانغ أمام الجدار، بمحاذاة الباب، ينقّل بصره بين براونفيلد وجوسي، واستقرت عيناه أخيراً على جوسي.

لفّ براونفيلد عنق جوسي بذراعيه، وسالت دموعه على صدرها،

لكن نظر جوسي تجاوزه، وارتفع فوق كتفيه، وأبعدته عنها للمرة الأخيرة.

تناسى غرانغ وجوسي وجود براونفيلد، طرداه من الغرفة. غاصت جوسي في غطاء رزين لفها، مسدت عنقها وحنجرتها بيدين رطبتين، ونظرت إلى غرانغ بعينين تقولان إنها على استعداد للموت في تلك اللحظة إن شاء ذلك. وتجمدا بينما ترنح براونفيلد خارجاً من الغرفة، حانقاً ومرتجفاً، عاقداً العزم على احتساء الخمر. تجمدا مدفوعين بالتزام غريب بعضهما إزاء بعض، التزام لم يدرك براونفيلد كنهه. لم يهاباه، برغم كل تهديداته، ولم يبدُ أنهما يهتمان لأمره على الإطلاق. وفي غضون أسبوعين، كان غرانغ وجوسي متزوجين.

الفصل الرابع

-17-

فجر يوم مجيء روث إلى العالم، وحوالي الساعة الخامسة من أحد أيام الخميس الرمادية الرطبة من شهر تشرين الثاني، أيقظت ميم براونفيلد وطلبت منه إحضار القابلة التي تعيش على بعد ثمانية أميال. كان براونفيلد ثملاً يغط في نوم عميق، وبرغم محاولاته العديدة، فإنه عجز عن النهوض. قبل حلول الساعة السابعة، أنجبت ميم طفلتها بمفردها. استيقظ براونفيلد أخيراً، مترنحاً، ينتابه شعور بأن شيئاً جديداً قد أُضيف إلى حياته. وجد زوجته محاطة بحِزم صغيرة، ترتجف فوق السرير. كان سريره أقرب إلى النار من سرير ميم، مما حجب عنها الدفء المتواضع المنبعث من قطعة خشب الجوز المشتعلة في المدفأة. تأسف واعتذر لإهماله وحاول تعويض الأمر من خلال التحدث بصوتٍ ناعم وإطلاق عدة نكات حول ابنته الصغيرة، ولكن ميم لم تكن في مزاجٍ رائق يسمح بتعريض روث في هذا العمر المبكر جداً للرائحة النتنة لشخص مخمور محتقر.

همست له: «اغرب عن وجهي»، وأدارت له ظهرها، محاولة تدفئة الطفلة بما استطاعت إليه سبيلاً.

مشى غرانغ بقدميه نحو هذا الجو المشحون، حاملاً أكياساً ثقيلة ممتلئة باللحوم والملفوف والحلوى والبرتقال. نهض براونفيلد وقد خالجه شعور من الإحراج والتوتر والتشويش، وخرج لملاقاته. اجتاز غرانغ الدرب بخفة، مرتدياً ملابس أنيقة ونظيفة، ابتسم بخجل.

تلعثم براونفيلد وحيّا أباه عندما وصل إلى أول الفناء: «آه، غرانغ».

غضب براونفيلد حينما رأى الأكياس في يديّ والده. حرص غرانغ على أن يكون محمّلاً بالطعام والكسوة كلّما وطئت قدماه منزل ابنه. إصرار غرانغ على جلب هذه الأشياء رغماً عن أنف براونفيلد دفع الأخير وأكثر من أي وقتٍ مضى لتمني رؤيته في حالٍ يرثى لها في القريب العاجل.

قال بخجلٍ، مبتسماً لكنه مافتئ يصرّ على أسنانه: «لا ضرورة لإحضار أي شيء يا غرانغ»، كره نفسه لرغبته بمعرفة محتوى الأكياس التي حملها غرانغ بيديه. أدرك مشفقاً على نفسه أنه يتضوّر جوعاً وأنه لم يتناول أي وجبة منذ يومين.

تمتم غرانغ: «لا بأس»، انتظر بفارغ الصبر أن يقوده ابنه إلى داخل المنزل. شمّ براونفيلد رائحة أحد الأكياس في يديه، ثمّة فواكه بداخله، وحلوى ستحبها الطفلتان، وهو سبب إضافي يجعلهما مغرمتين بجدهما. لا تحظى ابنتا براونفيلد بالتفاح والبرتقال والعنب إلا في عيد الميلاد. لم ير براونفيلد في طفولته العنب أبداً. أمسك الأكياس ونهشته مشاعر متناقضة، كان جائعاً يعاني من عطبٍ في الروح، غار من حظ طفلتيه الطيب، تمنى لو أنه لم ينجب، وألا تمر الفواكه اللذيذة عبر أحشاء ابنتيه، تمنى لو كان طفلاً.

لم يكن براونفيلد يساوي غرانغ في الطول، وتعيّن على الأخير إحناء رأسه على صدره لدخول مخدع ميم وبراونفيلد. اعتادوا النوم في الشتاء في نفس الغرفة جميعهم. براونفيلد وميم ودافني وأورنيت، إذ من المستحيل تدفئة غرفتين في منزل مليء بالثقوب مثل هذا، من المستحيل تدفئة غرفة واحدة، فما بالك بغرفتين، ولكن عندما ينام أربعة أشخاص

معاً في غرفة صغيرة واحدة، ويبقون النار مشتعلة، بوسعهم حينها تدبر أمرهم كي لا يتجمدوا حتى الموت قبل حلول الصيف. عرف براونفيلد بأمر المزرعة والبيت المريح الذي بناه غرانغ وجوسي بأنفسهما، ودفعته الفكرة التي أخذها والده عن وضع زوجته وابنتيه للتظاهر بأن عائلته تنعم بالدفء والسعادة وتتلقى عناية ورعاية جيدتين. بيد أن نظرة واحدة على جدران الغرفة تكفي لإثبات استحالة أن تُدفئ ساكنيها. وضعوا على الجدران أكياساً ورقية، ربما نجحوا يوماً ما في ترتيبها بأناقة. فتحوا الأكياس ومدوها على أحد الجدران، وقلبوا جوانبها، غير أنها أضحت الآن متدليّة هنا وهناك، ترفرف وتصدر حفيفاً، وأمست متهلهلة تحت تأثير الرياح. ومن السقف حيث تدلّت الأكياس، يمكن للمرء النظر مباشرة إلى غرفة المخزن كما يتسنى له من أماكن عدة رؤية السماء عبر الغرفة وغرفة المخزن. سدوا أطر النوافذ الخالية من الألواح بقطع مربّعة من الكرتون المقوّى، ولكنها أضحت مبللة بفعل المطر المتسلل عبر هذه المربعات، فيما عملت الرياح على إزاحة الأكياس عن ثقوب السطح وقذف الكرتون المقوى إلى إحدى الجهتين، وتجمعت برك الماء المتجمد على أرض الغرفة الرمادية العارية.

أُخذ غرانغ فور دخوله بالحال المزري للغرفة ولم يتمكن من حبس تنهيدته، وخرجت منه آهة سمعها براونفيلد وفهمها فوراً على أنها استنكار وشجب، فكر أن المال الذي عاد به والده من الشمال كان كافياً لشراء مزرعة، ووافياً للزواج من جوسي، ولإقراض براونفيلد بعض المال بشرط توقفه عن معاقرة الخمر! وفكر بضرورة أن يتحين الفرصة الآن للحصول على المزيد مما بدا والده راغباً بشدة بتقديمه إلى العائلة. انتحب براونفيلد «مجرد قوم فقراء، هذا ما نحن عليه». مسح الدموع المتصلّبة المتجمعة في زاويتي عينيه ودعا والده للجلوس على السرير الصغير الذي كان بمنزلة سريره، بعد أن صارت ميم تنام على السرير المزدوج بأكمله.

تأمله غرانغ بصمت. خمدت النار وانطفأت، لم يؤت براونفيلد أي حركة تنمّ عن رغبته بإشعالها مجدداً. خلع غرانغ معطفه وبدأ بإشعال النار. تملّكه الغضب عندما عرف بنفاد الحطب.

سأل: «كيف لك ألا توفر الحطب *وزوجتك* على وشك الإنجاب؟».

نظر براونفيلد من فوق كتفيه إلى فراش زوجته الذي طوته كي لا ترى طفلتاه الدماء. لفت ميم الفراش بأناقة مثل جريدة وربطته بخيط. ثمّة لوح معلّق أمام سرير ميم، علّه يشكّل ستارة تحمي الطفلتين من رؤية عملية الولادة. فكر براونفيلد بالنعمة التي مُنحت لميم بسبب ولادة الطفلة في الليل بينما كانت دافني وأورنيت نائمتين، وغطّى صوت الريح والمطر على أصوات مكابداتها.

لم يقو براونفيلد، أو بالأحرى لم يجرؤ، على إخبار والده أن ميم قد أنجبت الطفلة بالفعل، من دون مساعدة الجحيم أو أي شخص. كل ما أمله أن يغادر والده البيت في أسرع وقت ولا يضطر مجدداً إلى «شرح»، كما يحاول غالباً، الأسباب التي دفعته لهجر عائلته. شعر غرانغ بالذنب لحالة ابنه المزرية وعمد إلى التخفيف من هذا الشعور بإغداق الطعام والمال على عائلة براونفيلد. لم يعط قط المال بشكل مباشر إلى براونفيلد بعد أن هدر الأخير أول مبلغ قدمه له غرانغ. بعد حدوث هذا، لم يحظ بفرصة ثانية. لم يكن غرانغ يثق به، هذا ما خمّنه براونفيلد وقد أصاب في تخمينه. ولكن بعد وضع الأكياس التي أحضرها، لم يبدِ غرانغ أي نيّة بالمغادرة. أراد التحدث إلى ميم، ليعرف احتياجات الطفلة، التي أزف موعد ولادتها، كما اعتقد غرانغ.

قال براونفيلد: «لماذا، إنها *نائمة*»، آملاً أن يهمّ والده بالمغادرة. غير أن غرانغ ثبّت نظره على المدفأة وبدأ بفرك يديه والتحدث عن أشياء تافهة مثل الطقس، ثم عما يُثقل صدره.

«كما حاولت مراراً وتكراراً إخبارك، منذ عودتي، أقدمت على أفعال كثيرة لا ترضيني. أحسب أن هذا بسبب الظروف القاسية، تعمل وتكد

من دون مقابل. وازدادت الضغوط في ظل الظروف الصعبة. عملت بجدٍ، أصدقك القول، تشابهت الأيام ومرّت بسرعة، لم يكن لها بداية أو نهاية».

حدّق براونفيلد بمرارة في الأرض.

«عانت مارغريت أيضاً من الظروف نفسها بعد مغادرتك»، نطق اسم والدته بصعوبة، وشاب صوته نبرة وشت بعاطفة جيّاشة، على الرغم من أنه كره ذكرى أيامها الأخيرة أكثر من أي وقت مضى. شعر براونفيلد بأنه منبوذ بسبب هجر غرانغ لهم وانتقاله من مكان إلى آخر وفق ما تأخذه الريح. لم ينتَبْه هذا الإحساس عندما هجرهم غرانغ، ولا أثناء إقامته في نُزل «قطر الندى»، وإنما لدى استعادة حياته الزوجية، التي رآها من خلال حياته التعيسة التي أقنع نفسه بأنه كان شجاعاً بما يكفي *لقبولها*. لم يكترث حقاً بشعور والدته إطلاقاً.

نظر غرانغ إلى براونفيلد، وبادله الأخير النظر. وقف طيف جوسي بينهما ليحول دون أن يكونا ما لم يكونا عليه يوماً على أي حال: أباً وابنه. هكذا كان انتقامها.

«لا بدّ أن يكون طفلاً قوياً كي يولد هنا. ويتعين عليه أن يكون أحد أقرباء الإسكيمو، وإلا سيتجمد حتى الموت، حسناً»، قال غرانغ وهو يهمّ أخيراً بالنهوض «عندما تستيقظ ميم، أخبرها أنني سأرسل جوسي لمساعدتها، أو ربما أعود بنفسي». وقف غرانغ ونظر نحو السرير. «يعرف الله أن الأمر برمته أشبه بمعجزة. من كل هذا الخراء، يخرج شيء نظيف وناعم وعطِر».

قال براونفيلد، وهو يرى الطفلة بطريقة مختلفة كليّاً، بعينين مسحورتين مركزتين على الناحية الاقتصادية: «إن كنت تحسبه عِطراً لهذه الدرجة، خذه».

استلقت ميم خلف لوح الموسلين، تكومت إلى جوار طفلتها التي لم يحممها أحد فبدت مبللة ولزجة داخل القماش الناعم الذي لفها. كانت

ميم تجفف النداوة التي غطت جسد الطفلة عندما دخل غرانغ إلى البيت، لكنها الآن آثرت حماية طفلتها من البرد القارس، وبدأت بهز جسد الطفلة الملتصق بجسدها الذي بالكاد يقوى على الحراك. تسللت من النافذة القريبة من سريرها رياح رطبة ومتقطعة. في منتصف الليل، طلبت من براونفيلد أن يغطيها بلحاف، ولكن اللحاف اليتيم الذي تسنى له توفيره، كما قال، كان ذلك الموجود على سريره، أو اللحاف الذي يغطيها.

تسللت الريح عبر النافذة، وحركت الجرائد التي صُنع منها السرير. نادت ميم بوهنٍ على زوجها. سألها: «ماذا تريدين يا حبيبتي؟»، اقترب منها ليلقي نظرة سريعة عليها من خلف الستارة. جاء غرانغ أيضاً. سمعت ميم شهقة غرانغ عندما وقف بالقرب من براونفيلد، سمّر عينيه عليها، وشاهد بعينين مصعوقتين غير مصدقتين الجسدين المكوّمين.

قال دافعاً براونفيلد ليتنحّى جانباً، انحنى بلهفة لتقريب سرير ميم من النار: «لست نافعاً في شيء، *أعتذر*، لا تنفع لشيء».

قالت ميم: «لا يمكنك تحريكه»، متفرّسة في زوجها «ثبّتناه بأحجار ثقيلة».

عيناها غائرتان وغائمتان جرّاء سهرها الليل بطوله، استجدت عيناها بخنوعٍ غرانغ كي يرحل ويتركهم وشأنهم. راقبت بقلقٍ غدوّه ورواحه في الغُرفة، أطعم النار مفرش السرير المصنوع من الصحف والجرائد والأسمال البالية. احترقت بأكملها رغم بقع الطين الرطب العالقة بها، ثم أفرغ خارج المنزل دلو الفضلات المليء بما يشي بفداحة الليلة التي قضتها. أنزل غرانغ الستارة المؤقتة، وأمر براونفيلد بمغادرة سريره والخروج لجلب الحطب، وتجهيز الطفلة لتراها شقيقتاها.

قالت ميم عندما مد غرانغ أغطية سريرها الرقيقة المحشوة بالقطن على جسدها: «أنا على ما يرام، أنا في حالٍ جيدة».

بهيئة مسيطرة تماماً على الوضع، أخذ غرانغ الحطب الذي جلبه براونفيلد وألقمه للنار، وراقب اشتعاله بامتنان.

قال: «لديك على الأقل الحس الكافي لتعرف أن الحطب الرطب لن يشتعل». وقف براونفيلد بتحفز، وعلت وجهه ابتسامة تظهر عدوانيته بحبور.

قال: «أحضرتها من الحظيرة».

قالت ميم: «براونفيلد، أحضر لي القليل من الماء الدافئ لأشربه أو بعض القهوة». رفع غرانغ رأسها ونشر معطفه على كتفيها.

لطالما أحب غرانغ ميم، فقد عرفها منذ نعومة أظفارها، عندما كانت تلعب خلف رواق النزُل. كانت لورين تدفعها دائماً للبكاء ودأبت على الهرب والاختباء في الغابة. سُعد غرانغ عندما أخبرته جوسي أن براونفيلد تزوجها. فكر بأن زوجة صالحة من شأنها تليين براونفيلد، حتى وإن كانت إحدى قريبات جوسي. رغم أن ميم افتقرت لأي من صلابة جوسي.

في ليلة عودته إلى نزُل «قطر الندى» وضبطه لجوسي مع براونفيلد، اكتشف المرارة التي يحملها ابنه في قلبه نحوه والبغض والكره اللذين يضمرهما له، لكنه أمل أن تكون التجربة التي خاضها براونفيلد كربّ منزل ومزارع أجير قد غيرته. بيد أن الهيئة التي آلت إليها ميم بعد قضائها لثماني سنوات مع براونفيلد صارت أشبه بهيئة خالة الفتاة التي تزوجها براونفيلد وليست هيئة زوجته، هيئة خالة جرباء ومسنّة. افترش شعر ميم الذي كان يوماً كثيفاً جداً وحالك السواد الوسادة وقد تساقط جلّه وأضحى رمادياً كالفحم. أحس غرانغ بأنه يتحمّل جزءاً من الذنب فيما آلت إليه ميم، إلى جانب الكثير من الذنوب الأخرى. ولهذا قضى الكثير من الوقت معها ومع حفيداته، وأغدق عليهن اللحوم والخضار، وقدم لهن المال سراً، وجنى حتى آخر قطرة حنق زوجته ومرارة ابنه الراسخة.

كان براونفيلد يناول ميم كوباً فاتراً من القهوة.

قال غرانغ: «أعرف أن هذا ما طلبتْه، ولكن يوجد بلا شك شيء ما يؤكل في هذا المنزل. أعني القليل من الحساء أو شيئاً من هذا القبيل».

مشى براونفيلد بهدوء نحو الباب، تصلّب وجهه، وأراق القهوة في الفناء.

«أعطيها ما تطلبه، ماذا تريد أكثر من ذلك؟». جلس بجمود أمام النار، متمنّعاً عن إعطائها أي شيء الآن. أمسى وجهه مشاكساً كوجه طفل.

صنع غرانغ يخنة من المؤونة التي أحضرها. حَبَت دافني وأورنيت بعد أن تحررتا من الأغطية الرطبة وقدمتا من الغرفة الثانية، جذبتهما رائحة التوابل الحارّة التي أضافها إلى اليخنة وألسنة اللهب المتصاعدة من النار المشتعلة. أنف براونفيلد أولاً تناول اليخنة، راقب تدريجياً الطفلتين المتعلقتين بجدهما، لكنه سرعان ما شرع بالأكل، لم يولِ جوعه أدنى اهتمام لأنفته وكبريائه.

قال لوالده: «مشكلتي أنني استطعت دائماً تدبّر أموري من دون وجود البنات». راقب دافني وأورنيت تتناوبان على تفحص القبضة الصغيرة للطفلة الرضيعة. «لم يرق لي أن أكون جليس ذلك الطفل الذي ألقيتم على كاهلي مهمة الاعتناء به». نظر براونفيلد مباشرة إلى عيني والده.

«لم أحب قط أخي- تعرف ذلك- لأنك لم تحبه أيضاً. شاهدتك تقرصه عندما لا يكون أحد منتبهاً. أستعيد ما حدث الآن ويبدو أن الأمر برمته دفعك لتقرف من الاعتناء بابن مارغريت الوغد، وبي أنا أيضاً».

أطرق غرانغ برأسه وتمسك بحبال الصبر.

-18-

منح براونفيلد بناته الثلاث فتات اهتمامه ورعايته، هذا عندما يكون نصف ثمل. لم تكن البنات بالنسبة إليه من البشر حقاً، رغم أن قلبه انفطر عليهنّ أحياناً. لم يستطع رؤيتهن بريئات أو حتى طفلات. وبّخ أورنيت التي تكبرها دافني بعام، وأنّبها بأقذع الكلمات، وخاطبها بألفاظ لا تُقال إلا لمومس، أما الطفلة روث، فلم يلمسها أو يحنُ عليها قط.

عندما كبرت البنات قليلاً، أخذت دافني- الوحيدة التي تذكر «الزمن الجميل» البخيل الذي سبق احتقار براونفيلد لهن- الطفلة الصغيرة وأورنيت وجلسن تحت الأشجار وأخبرتهما كم كان بابا براونفيلد طيباً ذات يوم. استرق براونفيلد السمع لها وهي تهمس قصصها في أذني الطفلة، كما لو أنها تود أن تكبر شقيقتها الصغرى مؤمنة بأن نصيباً نالها من الأوقات الغالية الشحيحة التي عاشتاها مع براونفيلد.

الفصل الخامس

-19-

لم يصدق براونفيلد أن ميم ستتمكن من العثور على منزل، إذ إنه لم يعثر على منزل لائق في عملية بحثه الأولى والأخيرة، والأدهى، أنه لم يصدق أصلاً أنها تبحث عن منزل.

«قلتِ لجميع أصدقائك القدماء المنكوبين أنني طُردت من المنزل وأنك تبحثين عن قصر تسكنين فيه على سبيل التغيير؟».

مد ذراعه وشدها بسرعة من معصمها.

قالت وقد فقدت حذاءها: «على رسلك يا براونفيلد».

«عليّ أن أرغمك على مناداتي بسيدي»، قال ذلك وهو يلوي ببطء معصمها، لإجبارها على الركوع على ركبتيها أمام قدميه. «سيدة سوداء بقبحك يجب أن تنادي الرجل بسيدي».

«لم أجد بيتاً اليوم»، نخرت متهكّمة لأنها تعبة وقدميها تؤلمانها. «ولم أقابل سوى من يعرضون بيوتهم للإيجار».

دفعها فارتطمت بصندوق أزهارها، ووقعت الأزهار والأوساخ على الأرض. ارتجفت وحاولت تمالك نفسها والاتكاء على ركبتيها ثم الوقوف على قدميها المتقرحتين المجروحتين، أنّت ووضعت يدها الخشنة المجعّدة على رأسها. وقفت ابنتاها أمام باب المنخل الممزق تراقبان ما يحدث، وحملتا أختهما الصغرى. علينا القفز عليه وقتله، فكرت ميم بينما حاولت تحاشي النظر في أعين بناتها، أخذت الطفلة روث وحملتها، ودخلت إلى المنزل.

تمتم براونفيلد واللعاب يتطاير من فمه: «اللعنة عليكِ أيتها الفرس التي يتناوب الناس على ركوبها»، سند ساقيه على درابزين الشرفة الأمامية المخلخل والمهلهل.

-20-

في نهاية وجبته الثانية، وبينما كان يعيد الملاعق إلى أكياس الطعام، دخل الكابتن ديفيس ووقف في المدخل يمضغ شيئاً ما ويبصقه، متظاهراً بأنه نصف مكترث بما يفعله براونفيلد، ونصف مهتم بتأكيد فكرة أنه مالك الأبقار والحظيرة وكل شيء تقع عليه عيناه. اكتفى بالوقوف هناك، رفع أكمام قميصه ورأسه المبرقش الأصلع، متباهياً بأنه المدير.

قال: «أخبرتُ السيد دجي إل بأنك ستبحث عن سكن آخر في القريب العاجل»، أخفض رأسه قليلاً وراقب براونفيلد يطوي أكياس الطعام. زمّ شفتيه عندما سقطت بضع حبات من القمح على الأرض الإسمنتية.

«أخبرته أن أداءه سيكون أسوأ من أدائك إن جمع بين العمل في الحقل وبيع الألبان».

«توقفت يدا براونفيلد للحظة عن طي الأكياس».

«أجل يا سيدي».

تحرّك كما لو أنه سيقف منتصب القامة، لكنه اختار أن يقف منحنياً بعض الشيء ليشعر بضآلته ولون بشرته الأسود، كما لو أنه حشرة، بينما بدا الكابتن ديفيس بشعره الأبيض الخفيف عملاقاً أبيض قادراً على دعسه.

قال مجدداً: «أجل يا سيدي»، بينما مسحت عينا الكابتن ديفيس السقف وجالت ببطء فوق أرداف أبقاره.

اللعنة على ابن العاهرة ذي اليد الواحدة، لعنه براونفيلد بينه وبين

نفسه، انحنى من دون حركة، رفع رأسه ونظر إلى الرجل الأبيض الطويل وانتظر أن يخفض بصره في اللحظة التي يدير الكابتن وجهه نحوه.

لماذا لا أقول ما أود قوله، عوض التظاهر بأنني انتظرت على مدار اليوم اللعين سماع أخبار ابنه الذي يمص دماء العبيد حتى آخر قطرة. فليجد بنفسه المساعدة اللعينة التي يريدها عوض مساومتي! عندما استدار الكابتن، تحاشى براونفيلد النظر إلى عينيه، وارتسمت على وجهه ابتسامة قسرية باهتة خالية من أي معنى.

قال الكابتن ديفيس: «بالطبع لن تحظى بحياة هانئة مثل التي تعيشها هنا»، أخفض بصره إلى مستوى براونفيلد، والأخير بدوره أخفض بصره، حريصاً على أن يبقي على الابتسامة مرسومة على وجهه، ابتسامة محذرة وموقرة في الآن معاً.

سأل العجوز: «هل يهمك الأمر يا بـراون؟»، تنحنح وبصق في المسافة التي تفصلهما، من دون أن يكلّف نفسه عناء لف رأسه إلى الجهة الأخرى ليبصق بعيداً. «لقد أخبرت السيد دجيه إل مسبقاً بأنك مهتم».

قال براونفيلد: «نعم يا سيدي!»، أخرج منديلاً نُقشت عليه بعض الرسوم، ومسح يديه، مولياً عناية خاصة لمنطقة ما بين أصابعه. فكر بشخصية السيد دجيه إل، كم هو جشع ولئيم وغير جدير بثقة النسوة السود، وسرت قشعريرة في بدنه. لم يرغب بالعمل لديه. تذكر كيف عمل مرة هو وميم مع الكابتن ديفيس. أرسلهما شقيق الكابتن ديفيس ومات بعد أن حصل على ما يريده من براونفيلد، وبعد موت زوجته لم يعد هناك أي ضرورة لوجود ميم. مقابل هذه الخدمة، سمح الكابتن ديفيس لجرّاره بحراثة حقل شقيقه لموسم واحد. أُبرمت الصفقة وتم التبادل كما لو أنه وعائلته مجرّد ثيران فلاحة.

أومأ براونفيلد محرّكاً رأسه للأعلى والأسفل، ابتسم فيما عيناه تتحاشيان بحذر النظر إلى عيني الكابتن ديفيس: «سأكون ممتناً لك إن كتبت توصية لي». فكر برفض العرض ولكن عندما أضحت كلمات

الرفض على شفتيه، اكتشف أنه لا يقوى على نطقها. تنحنح وضربت قدمه الأرض كما لو أنه على وشك التحدث، لكن لم تخرج أي كلمة من فمه، صدرت عنه نخرة مترددة فحسب، بدت تعزيزاً لقبوله الضمني.

سأل الكابتن ديفيس بنبرة حادة وقد نفد صبره: «ما رأيك يا براون؟». استدار قليلاً وغيّر وقفته عند الباب، فبدا شعره الأبيض تحت أشعة الشمس مثل هالة من الحلقات الرفيعة. ألقت عيناه الزرقاوان الفاتحتان نظرة خاطفة على براونفيلد، فيما وقف الأخير عاجزاً عن نطق كلمة واحدة.

قال أخيراً: «نعم يا سيدي»، كما لو أن العجوز الذي يحجب عنه الشمس نوّمه مغناطيسياً.

هز الكابتن ديفيس كتفيه البيضاوين النحيلتين، وابتعد متجهاً نحو بيته الأبيض الذي تدفئه مدافئ لا تنطفئ نيرانها.

فكر بينه وبين نفسه أن مسألة الاعتناء بهم محزنة بالفعل، ولفّت يده الطيبة عقب سيجارته.

-21-

تأخر من دون أن يعلمها بأنه سيتأخر، لكنهن رغم هذا لم يتجرّأن على الشروع في تناول العشاء من دونه: كانت دافني تتأمل صفحة مليئة بصور مستلزمات الحمامات، سمّرت نظرها على ضوء مصباح الكيروسين المعلق بحبل فوق المائدة، وشابَ عينيها طيف حَوَل خفيف.

سألت أورنيت: «هل هذا مرحاض الأطفال الذي سيكون في بيتنا الجديد يا ماما؟»، نظرت بذهول من فوق مرفق دافني المعقوف إلى كل المستلزمات اللامعة.

همست بإلحاح: «انظري إلى هذه المراحيض البرّاقة!»، لمست أصابعها الممتدة على الصفحة المراحيض الأربعة المخصصة لكبار السن، أضفى الحماس مسحة على صوتها، فأمسى خشناً وقوياً. لكزتها دافني بغبطة بمرفقها الذي أبقته بين كُتيِّب «سيرز، روبوك» وشقيقتها.

قالت: «دعيني أرى يا بنت!»، وحاولت الاستحواذ على الكتيّب، لكن أورنيت أحكمت قبضتها الصغيرة على زاوية الكتيّب، وغطت يدها كامل الصفحة، باستثناء زاوية لامعة منها، واختفت تحت يدها صورة حوض استحمام أبيض غميق مملوء بمياه زرقاء مائلة للأخضر، مثل المياه التي تملأ حوض سباحة البيض في البلدة. باعدت ميم بين ساقيها تحَت الطاولة، فيما سرت تقلصات بين حين وآخر على وجهها الجائع المغطى بالكدمات، افترت شفتاها عن ابتسامة طفيفة، وعكفت على مراقبة صفحات الكتيّب التي تولت مهمة تقليب صفحاته.

قالت بحدة: «مهلاً يا دافني، لم أر جيداً الأحواض ورفوف الأطباق

هذه»، بينما رغبت دافني بالوصول سريعاً إلى الصور البرّاقة لـ «اللمبات» الملونة والمصابيح الفاخرة التي تبعث على الدفء.

سألت أورنيت بتوق: «هل سنملك مصابيح كهربائية في المنزل الجديد؟»، وداعبت صفحات الكتيّب الملساء. غمر شعاع المصباح الأصفر ميم وبناتها القبيحات بدائرة من الضوء الرقيق العذب، مما جعلهن يبدون جميلات بعضهن بأعين بعض. قرقرت الطفلة روث التي كانت أصغر بكثير من أن تهتم بالأثاث المنزلي، ومن داخل صندوقها الموضوع قرب الموقد، بدأت بإصدار صوت كهديل الحمام. حاولت من دون جدوى لفت انتباه والدتها.

قالت ميم: «لا أعدكن بشيء»، وضحكت من النظرة الجدية التي طفحت بها عينا أورنيت الكبيرتان، ومسدت يدها الخشنة رأس الصغيرة، وأردفت: «لا يمكنني التصريح بما سيكون لدينا، ولكن إن أذن الله سنملكها يوماً ما!»، قالت الجملة الأخيرة بنبرة حاسمة، كما لو أنها تبوح بذلك لنفسها، وسمعت صوت فتح الباب الخلفي وإغلاقه، وأحست بخلخلة الأثير جراء دخول براونفيلد، كما تذبذب لهيب المصباح وكاد يخبو.

قال براونفيلد بلهجة آمرة حالما وطئت قدمه المنزل: «لماذا لم تضعي العشاء على المائدة؟».

قالت ميم بنعومة: «لم نعرف موعد قدومك يا براونفيلد». نهضت بسرعة عن الكرسي، واصطدمت ركبتاها بالطاولة. مشت بوهن نحو الفرن لتخرج البازلاء ولحم الخنزير من القِدر. وضعت طبقاً ممتلئاً أمام براونفيلد وعادت إلى الفرن لتحضر الطعام لها وللفتيات. لاحظ براونفيلد أنها تعرضت لحرق أثناء حركاتها الخرقاء، وابتسم وانكبّ يلتهم البازلاء بشراهة، وانسكب الطعام على المائدة وقميصه، وسالت خيوط الحساء على حنجرته. جلست أورنيت مبهورة، تراقب والدها يقطع اللحم بيديه، سكب المرق فوق غطاء المائدة الذي حرصت ميم بفخرٍ على إبقائه ناصع البياض. أثناء تناول والدها لطعامه، لم تستطع أورنيت تشبيه والدها سوى بالخنزير. فتحت عينيها وأغلقتهما بسرعة، فقال لها بفم مليء بالبازلاء والخبز «إلام تنظرين؟».

ثبّتت عينيها مجدداً على طبقها وبدأت بتناول طعامها على مهل، حاولت تجاهل الصفير الذي يُطلقه والدها خلال مص اللحم والتهام البازلاء.

أكلت ميم مطأطئة الرأس، أضافت الطعام إلى طبق زوجها حالما خمّنت أنه قد يرغب بالمزيد. وجلست دافني تحت المائدة محبطة تماماً، تلوك بعصبية فستانها وتنتزع خرزه، التصقت بوالدتها قدر الإمكان. وتخيلت بمرح براونفيلد يأكل البازلاء من دون توقف إلى أن ينفجر. رأت نفسها تساعد بفرحٍ في دفنه ومن ثم تخيلت بفزع غصون البازلاء الملتوية الطافحة بالحبوب تخرج من جسده. وانبثقت منها حشرجة مرتفعة غريبة، بينما خلت عيناها من أي تعبير.

«ماذا دهاكِ أيتها الغبية؟»، تسمّرت عينا والدها المتوترة والقاسية مثل عيني جرذ كبير عليها.

أتمنى لو أنه ينتفخ وينتفخ حتى يموت! قالت لنفسها متوارية خلف وجهها الحزين المتيقّظ الخالي من أي تعبير. ليته يفعل ذلك كرمى لنا، فيصير بوسعنا دفنه!

سأل براونفيلد أخيراً: «ما هذه الأخبار التي سمعتها حول منزل جديد؟»، أصدر صوتاً عالياً أثناء مضغ الطعام، تصبب عرقاً وهو يتناول الطعام بوحشية بالغة. نخر بخبث كما لو أنه يختنق بضحكة. «سننتقل للعيش في منزل السيد دجيه إل».

سُعد لتحسسه ثقل ردة فعلهم الصامتة المتوترة.

قالت ميم: «لن أنتقل، لن أنتقل، والبنات أيضاً لن ينتقلن»، صلّبت عنقها النحيل الخشن استعداداً لضربته، ولكنه اكتفى بالضحك ومواصلة طعامه، طاحناً حبوب البازلاء التي فرّت من لفافة خبز الذرة.

زعق مخاطباً أورنيت التي تظاهرت بأنها تجمع فضلات الطعام من أجل الخنزير: «احضري لي كوباً من الماء».

أطرقت رأسها واتجهت نحو الثلاجة وتمتمت: «حاضر سيدي».

قالت ميم وقد اشتمت الرائحة الكريهة الصادرة عن الثلاجة: «كان عليك إحضار بعض الثلج البارحة».

«كان عليكِ المكوث في البيت البارحة عوض التجول في أرجاء المعمورة بحثاً عن قصرٍ للعيش فيه. لو تصرفتِ كسيدة تتمتع ببعض اللباقة لكان لدينا ثلج الآن». قلب عينيه للأعلى في إشارة إلى حماقتها، وسعل في وجهها دون أن يدير رأسه.

انتاب زوجته شعور بالغثيان، حدّثت نفسها: «لا يعدو أكثر من كلب عجوز»، وبدافع الشعور بالذنب، حثت بناتها المتوترات على إنهاء أطباقهن.

كان ذات يوم رجلاً وسيماً، أهيف ممشوق القامة، وكان له يدان نحيلتان جميلتان. حاولت على ضوء مصباح الكيروسين رؤية عينيه اللتين كانتا في قديم الزمان صافيتين، وامتلأتا الآن بعروقٍ حمراء وصفراء، يشوبهما حَوَلٌ مزمن. وجرّاء الجري حول أبقار البيض- إذ لم يمتلك يوماً أي بقرة في المرات القليلة التي تولى فيها مهمة الاعتناء بإحدى بقرات البيض- أُصيب بمرض سعفة الرياضي الحاد، مما تسبب في عرجه خلال الطقس الحار أو الرطب. وبسبب رعاية الأبقار في الحقول في شتى حالات الطقس، أصيب بالتهاب رئوي مزمن، وتفاقمت حالته بعد إصابته بطفح جلدي وحساسية. لم يكن رجلاً صحيحاً مُعافى، وعندما بدأ عمله في رعاية الأبقار، تشققت يداه وصار جلده يحكه لدرجة كاد يكشطه. وتطلّب تخلّصه من الحكة سنيناً من العمل اليومي في حلب الأبقار، وأمسى جلده حينها مثل جلد رمادي من الخارج وحراشف من الداخل وبدأ بالتشقق على مهل، وتشوّه لدرجة تحول دون قدرته على مزاولة أي عمل، سوى الأعمال المتعلقة برعاية الحيوانات. وكلما أضحى جلد يديه ثخيناً بلا إحساس مثل جلد فيل، أمعن في ضرب زوجته على رأسها بقبضتي يديه. لن أتزوج قط رجلاً مثله، أقسمت دافني بينها وبين نفسها، راقبت اليدين الضخمتين القبيحتين اللتين لطالما فاحت منهما رائحة أبقار وحليب فاسد.

قال براونفيلد: «لقد حُسم الأمر»، تجشأ بصوتٍ مرتفع وحفر الأرض تحت المائدة بين ساقيه. «سننتقل للعيش في منزل السيد دجيه إل يوم الإثنين المقبل»، وقال محذراً ميم: «لا أريد لأحد أن يتحاذق!».

قالت: «سبق لي أن أخبرتك، لن تجرّني أو تجرّ الفتيات إلى أي زريبة خنازير. لقد تعفّرنا بالتراب بما يكفي. أرغب بأن تصبح دافني شابة محاطة بأناس محترمين، لا أريدها أن تترعرع هنا في الغابة، على أرض رجل أبيض على غرار زمان الرق. أود أن تحظى أورنيت بفرصة الالتحاق بمدرسة محترمة. والطفلة روث» أردفت وقد تهدج صوتها: «لا أريد لها حتى أن تعرف بوجود شيء اسمه المرحاض الخارجي».

«من الأجدى لك أن تخرجي كل هذه الحماقة من رأسك قبل أن أحطمه!».

قالت زوجته: «لا أهابك». كذبت.

«في الوقت المناسب، ستفهمين ما عليك فعله أيتها القبيحة»، قال ذلك قارصاً خديها المتوترين المرهقين. حتى عندما أقدم على فعل ذلك، راودته رؤى رتيبة مستحيلة عن زمنٍ كان فيه ذلك الخد دافئاً ومدوّراً وأملس، ناعماً ومغرياً، غير أنه بات من النادر الآن أن يتكوّر لتفتر عن شفتيها ابتسامة. «لنا الحق أنا والفتيات في العيش بمنزل لا نتبلل فيه عندما تمطر، منزل تخلو أرضيته من الحفر»، قالت ساحبة خدها من تحت يده. عرف من مقاومتها الطويلة له في الليل أنها تمقت يديه. وضع إحدى يديه الضخمتين أمام عينيها حتى بات بإمكانها رؤيتها وشمها، ثم أنزلها بقوة على فستانها.

لو كنتُ رجلاً، قالت لنفسها لاحقاً، قاطبة حاجبيها أثناء تنظيف الأطباق، لو كنت رجلاً لركلت كل رجل تقع عليه عيناي وكل رجل سألتقي به، ربما طعنتهم بسكيني، يا لهم من أوغاد لهم رؤوس خنازير.

-22-

«مساء الخير يا براون» قالت بنبرة رسمية في عصر اليوم التالي: يوم الأربعاء.

قال براونفيلد: «مساء الخير يا دميمة»، عبَر الشرفة، رمقها بنظرة متشككة. رصد ظل ابتسامة حزينة تحاول شق طريقها عبر الشفتين المكتنزتين. أشعة الشمس المتسللة عبر شعرها جعلته يلاحظ الشيب الذي كاد يغطي رأسها بالكامل. وقفت بجمود عند الباب، أمارات وجهها القبيح تتأرجح بين رزانة عميقة وبهجة مباغتة. مضت سنوات طويلة منذ آخر مرة رآها فيها بهذه السعادة، أو حتى بنصف سعادتها اليوم.

سألها وقد أصبح في مواجهتها تماماً، ويده على باب المنخل: «لماذا ترمقيني بهذه النظرة البلهاء؟». لم يحتقرها يوماً كما يحتقرها الآن. هل كانت لتوحي بأنها ستصير بهذا القبح عندما تزوجتها، سأل نفسه، بينما الوجه المعلّق أمامه انبسط على هيئة فطيرة طريفة الشكل، وضحكت ميم بنعومة ومن أعماق قلبها، كما اعتادت أن تفعل خلال الفترة الأولى من زواجهما، حين لم يكن ليمرّ يوم من دون كلمة غزل وغرام وعشق. قالت: «بات لدينا بيت جديد»، كما لو أنها أوقعت شيئاً ثميناً سيُحدث انفجارات من البهجة والغبطة. همست بفرح: «بات لدينا بيت جديد في *البلدة*».

نظر حوله ورأى أن ابتسامة عريضة أيضاً قد علت شفاههن، ولاحظ مدى شبههن بوالدتهن.

قال بصبرٍ: «أعرف أنه بات لدينا بيت جديد، ولكنه سيكون فوق بيت السيد دجيه إل، وليس في أي مكان آخر!».

قالت بمرح: «آه، كلّاا»، والضحكة الخشنة المتصلبة التي تشي بأن الضحك نسي طريقه إلى شفتيها ما تزال مرتسمة على محياها. «ثمّة داخل هذا البيت مغاسل ومرحاض، وفيه مصابيح كهربائية وحتى حديقة لزرع الأزهار والنباتات. أنت من أخبرني بهذا»، قالت ذلك وقد اتسعت ضحكتها، «ذلك البيت الموجود فوق بيت دجيه إل تداعى أحد جوانبه وهو مصنوع من القش على أي حال». بدا أن الحديث عن البيت يصيبها بالدوار. تهاوت على الكرسي، ووضعت يديها على عينيها، كما لو أنها تحاول التفكير بصفاء. قالت وقد أضحت فجأة تفكر بوضوح: «إضافة إلى أنه لن يكلفنا سوى عشرين دولاراً في الشهر، وبوسعك جني ما يكفي من المال إن عملت في مصنع البلدة لدفع الإيجار: العمل في المصنع سيقيك من التبلل *بالمطر*. مدرسة البنات قريبة، ويبدو الجيران لطفاء. وفوق كل هذا...». عادت مجدداً إلى تعداد مزايا البيت. تلألأت عيناها، ثم ما لبثت أن خبت وانطفأ بريقهما ولاح التعب عليهما. أمضت النهار بأكمله تبحث عن البيت. «إضافة إلى كل هذه الأشياء»، قالت بصوت خالٍ من أي نبرة، ووقفت منهية الحديث: «أخبرت الرجل أننا سننتقل للعيش في المنزل صباح الإثنين. لقد وقعت العقد».

استشاط غضباً: «*وقعتِ العقد؟*». لم يكن باستطاعته القراءة أو الكتابة، رغم محاولاتها تعليمه. تبخر ما تعلمه مع كلمات الغزل وتلاشى مع الزواج. «عليّ أن أقطّع أصابعك اللعينة إرباً!». قالت ميم التي عاد قرارها بتسليم أمور المنزل له لمدة تسع سنوات عليها وعليه بتسع سنوات من البؤس المقيم: «أعتذر بحق يا براونفيلد». لم يعترف لها قط بأن بوسعه القراءة بما يكفي لتوقيع عقد، وقد كانت عازمة على حفظ ماء وجهه ليحتفظ بذرة من الكبرياء. لكنه صار الآن مسناً ومريضاً وبدا أكبر من عمره بكثير، فيما أضحت ميم عجوزاً وشريرة، ترغب في

كل يوم بأن يقع على الأرض ويموت. سخاؤها كبّلهما وقيّدهما معاً. قالت بلطف: «يتعين على أحدنا أن يوقع العقد يا براونفيلد»، نظرت إلى عينيه الحانقتين. «لقد سئمت وتعبت من التشرد والانتقال من كوخٍ إلى آخر، يتبادلني البيض كما لو أنني آلة». شدت كتفيها وأحضرت بناتها ليقفن إلى جوارها، بينما الطفلة روث بين ذراعيها. «أخبر ذلك العرص الأبيض العجوز- **أغلقن آذانكن يا بنات!** - أن بوسعنا تدبر أمورنا بأنفسنا. قد نكون فقراء وسوداً، ولكن لسنا أغبياء». ساد الصمت. قالت بفظاظة: «لست غبية على الأقل»، ودفنت وجهها في شعر طفلتها.

«أحسب أنك تعرفين أنه لن يكون بوسعك في البلدة الخروج إلى الحقول عندما تجوعين وملء كيس كامل بما يسكت جوعك. آمل أنك تدركين عواقب أفعالك أيضاً، ستخسرين نعمة جمع ما يؤكل من البريّة بمجرّد مغادرتنا المكان».

قالت من دون أن تخفّف من حدة صوتها: «يبيعون الطعام في البقاليات في البلدة. وأنا زرعت هذه النباتات بيديّ واعتنيت بها بنفسي، لتحل عليّ اللعنة إن سمحت لأبيض تعس، لا يكترث إن مت جوعاً، بسلبي إياها!».

قال براونفيلد: «لو أنك تتمتعين ببعض اللباقة لعرفتِ أن هذا ليس صائباً»، اتكأ على مرفقه لينهض «سننتقل إلى بيت السيد دجيه إل الإثنين القادم وستخرجين للعمل في الحقل يوم الخميس». أزاح بصره وثبته على قدميها المتشققتين. «لطالما أوصتني أمي ألا أورّط نفسي مع سيدة قبيحة ملونة لا تتمتع بأدنى درجات الأدب».

قالت ميم واضعة يدها على وركها: «أعتقد أن والدتك سوداء يا براونفيلد، وعرفت منذ زمن بعيد أنك لا تستطيع *أكل* أي من ذلك».

قال براونفيلد برويّة: «أتظنين حقاً أنني أنوي الانتقال للعيش في البلدة»، أدار ظهره كما لو أنه على وشك أن يغط في النوم. أدار وجهه نحو الجدار وابتسم. «أنا *رجل*، ولا أنوي العمل في معمل أي *أحد*، اللعنة».

نظرت دافني وأورنيت إلى والديهما من خلال غشاوة سوداء غطت أعينهما فجأة. اقتربتا ووقفتا عند باب المطبخ، خلف أمهما، وراحتا تراقبان بصمت.

نهض براونفيلد مترنحاً ثم ثبّت قدميه بالأرض: «هل سمعتِ ما أقول يا امرأة! سننتقل للعيش في المكان والزمان اللذين أحددهما. طالما أعيل هذه العائلة اللعينة، أنا من يقرر أين سنعيش». أفزع زوجته النحيلة بنظرته القاتلة وعينيه الحمراوين. «قد لا أعرف القراءة أو الكتابة، لكنني ما زلت الرجل الذي يرتدي السراويل في هذا البيت!». اتجه نحوها بغضب، وغطى لعابه جبهتها.

ينبغي ألا أقف هنا وأسمح لهذا الزنجي بالبصق في وجهي، فكرت بينها وبين نفسها بهدوء نوعاً ما، وبجدية للمرة الأولى. من يحسب نفسه، رئيس البلاد أم ماذا.

قالت، وتنحّت بسرعة مبتعدة عن مجال قبضته: «افعل ما يحلو لك يا براونفيلد». «افعل ما يحلو لك واذهب إلى حيث تشاء. ولكن أنا وهؤلاء الفتيات سنعيش في البيت الذي استأجرته. لن نعيش بعد الآن في حظائر الكلاب. سيكون لدينا مراحيض وحمامات ومصابيح كهربائية مثل الآخرين!».

«أحسب أنك تعتقدين أنك لن تحتاجي لمن يدفع لقاء كل هذه المراحيض والحمامات والمصابيح الكهربائية، أيتها القحبة المتهالكة!»، اندفع براونفيلد متجاوزاً بناته اللواتي وقفن في وضعية الدفاع عن النفس وأمسك كتفي ميم، وأدارها لتصبح في مواجهته. قالت ميم بحيادية، رغم أنها بالكاد تقوى على التنفس: «دعني أخبرك أمراً أيها الرجل. عملت بجدٍ واجتهاد طيلة حياتي، حاولت أولاً أن أكون شيئاً مهماً، ثم صار جلّ ما أطمح إليه أن أكون فحسب. لقد قُضي الأمر بالنسبة إليّ الآن، ولكن إن كنت تظن أنني لن أعمل بجد أكثر من أي وقت مضى لإعالة هؤلاء الفتيات، فهذا يعني أنك لست لئيماً وشريراً وكسولاً مثل شيطان فحسب، بل وأحمق أيضاً!».

«من تظنين سيقبل بتوظيف بغلة حراثة عجوز ذات أسنان متراكبة»، كان يطلق الشتائم وشعر بأن يديه بدأتا تحكانه. «عليكِ أن تنظري في المرآة بين حينٍ وآخر»، قال ذلك وقد ضمّ قبضتي يديه «لستِ قبيحة ومتهالكة فحسب، أنت عجوز هرمة أيضاً!».

أرادت أن تقول له إنها لم تبلغ الثلاثين بعد، ولكنها آثرت قول: «أعرف كيف يبدو شكلي، وأعرف كم عمري». بدا أنها تستطيع مواجهته من دون أن تنتحب. «ولكن معرفة هذين الأمرين لن تحول دون حصولي على عمل يعيننا على الانتقال للعيش في ذلك البيت صباح الإثنين».

صرخ خارجاً من البيت: «أحب مراقبتك وأنت تحاولين ذلك»، دفعها ورماها على ابنتيها. استيقظت روث من قيلولتها وبدأت بالبكاء. هدهدت لها ميم ورفعتها لتنام على كتفها.

قالت مرتجفة، مقبّلة طفلتها قبلات خاطفة على رأسها الأشعث وعيناها تطفحان بالدمع: «وهذه ستترعرع في بيت تتوفر فيه الكهرباء وتدفئته على الغاز!».

-23-

«كيف حال ميم؟» سأل الكابتن ديفيس بغبطة ظهر يوم الجمعة، عندما كان براونفيلد على وشك الذهاب إلى بيته لتناول الغداء. «ما موقفها من الانتقال والعيش في منزل السيد دجيه إل؟ أخبرتُ زوجة دجيه إل عن الكعك الذي تعدّه. ما أطيبه»، قال بروحٍ رياضيّة: «لا بد أنها طاهية جيدة!».

قال براونفيلد بحماس: «آه، إنها بخير! بخير وجاهزة للانتقال إلى منزل السيد دجيه إل». عجز عن التنفس على نحوٍ طبيعي وشعر بثقل سواد بشرته ودهنيتها تحت وطأة نظرة الرجل الباردة.

عليّ أن ألتقط حجراً وأفجّ به رأس هذا العجوز الأصلع، لا أرغب ولا ترغب ميم بالعمل لدى ابنه المجنون ابن القحبة! بماذا يفكر بحق الجحيم، هل يحسبنا مجانين أم ماذا. ابتسم ابتسامة عريضة في وجه الكابتن ديفيس، وشبك يديه خلف ظهره. كانت فرائصه تصطك تحت سروال العمل.

قال بيأس: «نحن الاثنان على ثقة بأن الأمور ستسير على أحسن ما يرام»، حاول التملّق ورسم أمارات السعادة قدر الإمكان على وجهه، وَأضاف: «على أحسن ما يرام». قال العجوز بحزم: «أرى أنك تؤدي عملك على أحسن وجه»، تنحنح واستدار مولّيا وجهه جهة منزله. «أنت وميم لستما عاملين كليلين على الإطلاق»، قال هذا بعد تفكير. «سعيد لأنكما ستظلان من أفراد العائلة!».

ولكن نحن في العام 1944! ودَّ براونفيلد لو يصرخ، لكن عوضاً عن ذلك قال: «حاضر سيدي»، وانتظر إلى أن أصبح الكابتن ديفيس على بعد ثلاث ياردات قبل أن يتحرك. همس: «عليّ أن أغرز سكين طعامي في أحشائه!»، تصبب عرق غزير من جسده. تهادى سائراً نحو البيت، راكلاً الحصى والأحجار والشجيرات.

-24-

«براونفيلد، لقد وجدت عملاً في البلدة»، قالت ميم، ساندة نفسها إلى درابزين الشرفة، جلست وتدلت ساقاها النحيلتان الخشنتان. جلس براونفيلد صامتاً، استطاع أن يستشعر وجود الفتاتين خلفه، وأنهما ترسمان تكشيرة كبيرة على وجهيهما المتلهفين اللذين يشبهان وجهي قردتين.

«حصلت على عمل في البلدة، أتقاضى لقاءه اثني عشر دولاراً في الأسبوع!»، تحدثت ميم برقّة ولكن رنين الفرح كان جلياً في صوتها. قالت إن الأمر أشبه بطائر سيتحدث عن تجربته الأولى في الطيران.

ظل صامتاً، لكن يديه تمسكتا بأسفل كرسيه بقوة، حتى آلمته أصابعه.

سألت ميم التي لم يخبرها أحد قط عما يجنيه زوجها: «اثنا عشر دولاراً في الأسبوع أكثر مما تتقاضاه، أليس كذلك يا براونفيلد؟». تجعد فمها القبيح عند زاويتيه. سمحت للتجعّد بالتلاشي على مهل، وراقبته بصمت لوهلة. جاءت ابنتاها لتقفا قربها، ورنا الجميع بنظره نحو براونفيلد.

سألت: «ستأتي معنا أم لا؟»، خلا صوتها من أي اهتمام. «إن كنت ستأتي معنا، عليك أن تجد عملاً وتؤدي نصيبك من المهام، إن لم تأتِ، سَنمضي قدماً على أي حال».

تركته جالساً، يرفع قدميه على الدرابزين، يفكر بكل سنة من سنوات عمره القليلة نسبياً التي بات فيها عجوزاً ومريضاً، كما لو أنها أضحت عشرات السنوات.

-25-

وجدت سهرة ليلة السبت براونفيلد كعادته جاهزاً تماماً لشجاره الأسبوعي مع ميم. ترنح سائراً نحو المنزل وقد امتلأ جوفه بالويسكي، أطلق اللعنات والشتائم بأعلى صوته. استلقت ميم وولّت الجدار وجهها، متظاهرة بالنوم.

صرخ: «تحسبين أنك أفضل مني، أليس كذلك؟ إياكِ، إياكِ أيتها الخنزيرة القبيحة!»، مد يده إلى تحت غطاء السرير، وشدها من كتفيها المقاومتين المتصلّبتين.

قال: «انهضي *وانظري* إليّ عندما أكلمك!»، تداخلت كلماته بعضها مع بعض، انحنى لمسافة قريبة وحاول تقبيلها بفمه الغبي النتن الذي تفوح منه رائحة الويسكي.

«أنت وبناتك النزقات الحزينات المبجلات الموقرات، اللواتي ألّبتهن ضدي!»، اختنقت حنجرته بغصة حانقة عندما قال جملته الأخيرة. كما لو أنه يهتم لأمرهن. لم تنبس ميم ببنت شفة، استلقت صامتة كأنها لم تعد تتنفس أو تفكر أو حتى كأنها غير موجودة، لكن عينيها التعبتين تسمّرتا عليه، ووشت نظرتها بانتظار مشحون بتوتر راكمته السنون وكل سهرات السبت التي دأب فيها على ضربها.

قالت: «لقد ضقت ذرعاً بك وتعبت من هذه الفوضى»، نهضت فجأة، منتظرة أول ضربة على رأسها أو جنبها أو نهديها. قالت: «تباً»، دفعت غطاء الفراش عنها. بدت نحيلة مثل خيط في ثوب نومها المهلهل. «لقد ضقت ذرعاً بك».

لم تكد الكلمات تخرج من فمها لتحدث انفجارات صغيرة متتالية حتى تهاوت قبضة براونفيلد الكبيرة كقدم فيل على فمها الذي يشبه المربّع.

«لا تقاطعيني عندما أتحدث أيتها العاهرة!»، قال هذا وهو يهز جسدها إلى أن سالت الدماء من شفتيها المتقرّحتين. ضربة واحدة قلّصتها لتغدو لا شيء، تدلت بين يديه إلى أن فرغ من صفعها عدة مرات، ثم هوت متراخية كما اعتادت أن تفعل.

زعق براونفيلد قائلاً: «تنتقلين إلى حيث آمرك بالانتقال، هل تسمعين ما أقول؟»، ركلها بقدمه على جنبها. «سننتقل للعيش في بيت دجيه إل أو لن نبرح هذا المكان!»، كان هستيرياً. استلقت ميم وأغمضت عينيها.

«أصغي لما أقوله أيتها العاهرة!»، فتحت ميم عينيها كما لو أن أحدهم يفتح غطاء كفن، قالت بهدوء: «لن أنتقل للعيش في بيت السيد دجيه إل. سبق أن أخبرتك بهذا يا براونفيلد». حرّكت يدها بتردد لتمسح الدم الذي سال على ذقنها. أضافت بروّية وبصوت أهدأ وأكثر ثباتاً: «سمحت لك بلعب دور الرجل لفترة كافية لتكتشف أنك لست أهلاً لذلك. بوسعك ضربي حتى الموت، ومع ذلك لن أقول إنني سأنتقل معك!».

قال براونفيلد وقد جنّ جنونه: «أيتها القحبة الزنجية السوداء اللعينة التي غطت التجاعيد وجهها. انطقي كلمة واحدة، حرفاً لعيناً واحداً فحسب وسأقتلع حنجرتك اللعينة!». بحث في جيبه عن سكينه ومد يده ممسكاً بميم وجذبها إلى حضنه الثمل الرخو. أغمضت ميم عينيها بينما دفعها فجأة لتقع على دعامة السرير، وركلها ركلة قوية على إحدى جهتي رأسها. رأت عدداً من النجوم الشاحبة التي غطتها الغشاوة، ثم دخلت في غيبوبة. في الغرفة المجاورة، سالت دموعهما ببطء، مما أيقظ داخلهما رغبة في العطاس، أمسكت دافني وأورنيت بأذرع بعضهما النحيلة والمرتجفة، ولعقتا بلسانهما الأحمرين الدافئين دموع بعضهما المالحة، تملّكتهما رغبة يتيمة، رغبة واحدة لا ثاني لها، أن تتعثر قدما

والدهما، ويهوي على سكّينه المشرّع، وبطريقة ما ينجح السكين في اقتلاع قلبه من مكانه.

أطلقت روث نشيجاً مخنوقاً متوتراً. سألت أورنيت شقيقتها: «هل تظنين أنه سيأتي إلى هنا؟»، وشرعت تفكر في سبيلٍ للهرب وبطرق أخرى تحوّلها إلى رجل قادر على حماية شقيقتها.

همست دافني وقد شاب صوتها برود يشبه برود الكبار: «عندما يأتي إلى هنا، عندما يأتي إلى هنا، اتركيه يمسك بك لوهلة، بينما أهرب إلى المطبخ وأحضر السكين الحاد». مررت برفقٍ لسانها على خدي شقيقتها لتمسح دموعها. «إن ضربك في هذه الأثناء، إن ضربك ولو لمرة، سأنتزع أحشاءه العفنة!».

تكوّمتا تحت السرير، سمعتا صوت العصافير تزقزق مع بزوغ أول خيوط الفجر. غطّتا في النوم حالمتين، وقد تملّكهما يقين بارد بأن قتل والدهما سيحررهما.

براونفيلد لم يحلم، أصابه مسّ من الجنون، وغرزت شمس ظهر يوم الأحد أشعتها في جفونه كما لو أنها فأس سفاح. عندما مط جسده، شعر بأن أحدهم قد جرّده من ثيابه. تمطمط بكسلٍ على السرير ومد يده ليقرّب منه امرأته ويعانقها عناق الصباح. «افتح عينيك!» قالت ميم بصوتٍ مخنوق كما لو أنه نهر مُحتجز خلف سد. توقف ببطء عن التقلّب في الفراش وفتح عينيه ببطء، ضيّق حدقتي عينيه بقوة لاتقاء أكبر قدر ممكن من الضوء. كانت ميم مستندة إلى الجدار، جالسة على جهتها من السرير، تحمل بندقية. رأى في بادئ الأمر مقبضها فحسب، ناعماً وأسود وكبيراً، قريباً من رأسه، وإحدى أصابع ميم الطويلة المجعدة تضغط على الزناد. قفز كالمفزوع، نصفه مائل نحوها ونصفه الآخر مائل نحو الجهة المعاكسة. شعر باللكزة الحادة في جسده تحت أغطية السرير، وبسبب ألم الإصابة، تقلصت عضلات وجهه وارتمى على السرير.

قالت ميم بخمول: «لا تتحرك قيد أنملة»، ضغطت سبطانة البندقية

الباردة والقاسية على المنطقة بين فخذيه. سرعان ما بدأ يتصبب عرقاً بارداً، ورفرفت عيناه بهلع وأصابه الدوار وشعر بالغرفة تدور حوله.

سأل بصوت أجش: «*ما خطبك يا ميم؟* »، فاحت من فمه رائحة نتنة كما لو أن شخصاً مات داخله منذ أسابيع مضت. جال ببصره في الغرفة: «ما الذي يزعجك بحق الرب صباح الأحد؟». سأل: «أين البنات يا امرأة»، توقع أن يكن هناك. «ألا تملكين أدنى إحساس بمعنى الأدب؟»، صدر عن حنجرة ميم صوت اختناق مكبوت. ناجى براونفيلد الله بينه وبين نفسه، وبدأ جسده يرتعش تحت الملاءة، تلك الضربة التي وجهتُها على رأسها ليلة أمس أفقدتها صوابها! لكزته ميم بالبندقية لكزة خفيفة، التفّت يدها بأكملها على أخمص البندقية. صرخ براونفيلد متألماً وأنزل ببطء يديه الكبيرتين الثخينتين إلى الجزء السفلي من جسده.

أخفضت ميم يدها الأخرى لتصل إلى أسفل البندقية وقالت: «تحرّك ولو لجزء من نصف بوصة، ولو حتى لسنتيمتر واحد يا سيد براونفيلد، وستخسر خصيتيك للأبد».

بدأ يتأوّه: «آه يا ميم، حبيبتي، لا داعٍ.».

حدقت ميم فيه بعينيها اللتين أحاطت بهما هالات أرجوانية وقالت: «اخرس. البنات ذهبن للكنيسة وسيمضين هناك النهار بأكمله. عرّج جدهن وسمحت له حتى باصطحاب الطفلة الصغيرة معه. لا أحد سوانا نحن الدجاجتين، لا أحد هنا ليعرف أو ليكترث إن كان أحدنا سيُلقى في المقلاة اليوم».

شرع براونفيلد يبتهل إلى الله بأنينٍ مسموع: «آه يا ربي».

قالت ميم: «استغث بمن تتعبده أيها الفتى»، ضحكت ضحكة ساخرة مكتومة «استغث بمن تتعبده».

انصبّ تفكير براونفيلد على الكابتن ديفيس ولم يستطع مقاومة التفكير به، قفز الوغد الطويل العجوز إلى تفكيره كما لو أنه الله أو ما شابه.

بدأ يغمغم: «الكابتن ديفيس لن يعفيك من العقاب»، وتقيأ.

قالت ميم عندما أبصرت يده ترتفع نحو فمه: «لا تدع أياً من هذه القذارة تسقط على السرير». أسند رأسه إلى إحدى جهتي السرير وأفرغ كل ما في أحشائه على الأرض. تقيأ لفترة طويلة وخرج قيء من أحشائه له رائحة موتى، وعاد ليستلقي على السرير منهكاً وواهناً. نسي تقريباً وجود ميم والبندقية، كان رأسه يدور.

قالت ميم، وقد استنشط جلد أنفها وانكمش قرفاً من الرائحة. قالت وهي تلكزه مجدداً بالبندقية: «لا أرغب بأن تستلقي إلى جواري هنا! ابتعد، انزل عن السرير!». انزلق براونفيلد وجلس على الأرض، خرّ على القيء العطن، وسقط مبللاً على مؤخرته العارية على أطراف البركة الصفراء الآسنة. لم يسبق له أن شعر بمثل هذا القرف في حياته كلها. راقبته ميم من على السرير بعين باردة. كشفت الطول الكامل للبندقية الكبيرة وصوّبتها إلى حيث صوّبت من قبل. استلقى براونفيلد للحظة، ثم جثم على فخذه، ليحمي نفسه منها. ابتسمت ابتسامة عريضة. خطر على باله أنها تشبه غوريلا نحيلة صلعاء.

قالت: «أعتقد أنني ورطت نفسي في المتاعب عندما تزوجتك. وأظن أنني أقحمت نفسي في المشاكل لإنجابي كل هؤلاء الأطفال من أجلك ولم تكلّف نفسك حتى مشقة إحضار القابلة سوى مرة واحدة، تتحجج بأنك إما *ثمل جداً* أو أن البرد قارس!»، ضربت سبطانة البندقية الطويلة بيدها اليسرى.

سألته: «أتظن أن الكابتن ديفيس يأبه حقاً إن أطلقت عليك النار يا براونفيلد؟ ماذا تحسبه سيقول؟ أجزم أنه سيقول: طيب يا ميم، من سمع بشخص أطلق النار على خصيتيّ شخص آخر؟ لِم أيها الملونون لا نسمع قط بشخص من البيض يطلق النار على خصيتيّ شخص أبيض. يا للعار! يا للعار! لطالما اعتقدت *أن الزنوج مجانين!* وها هي ميم تثبت لي صحة ظني، أطلقت النار على خصيتيّ زوجها، حبّاً بالله. بالطبع سيتابع

حياته، باصقاً على الأرض كما لو أنه سبب هذه القذارة، حسب معرفتي ببراونفيلد كوبلاند، لم أعرف قط أن لديه خصيتين أصلاً!». واصلت ميم حديثها وعيناها مفتوحتان، ثم بدأت بإغلاقهما كما اعتاد الكابتن ديفيس على إغلاقهما عندما يأنف النظر إليها أو إلى براونفيلد، وهو ما كان يحدث في كل مرة يتحدث فيها إليهما.

«لم يكترث أحد لأمرك سواي أيتها الحمقاء العجوز اللئيمة! ألم تدركي هذا بعد!».

همس براونفيلد بوهنٍ: «أيتها الكلبة السوداء القميئة!»، حاول استعادة السيطرة على جسده. حرّكت ميم أخمص البندقية بيديها الاثنتين وأحدثت على جبهته جرحاً عرضه بوصة. سال الدم الأحمر الداكن ووصل إلى بطن براونفيلد العارية، ثم سقطت قطرات الدم على الأرض، مما أحال خشب ألواح الأرضية المتآكل الأحمر القاني إلى الأصفر. وانخرط في البكاء.

«طيلة حياتك التي لن تكون طويلة، نظراً لصحتك العليلة- لم تناديني يوماً باسمي!»، جلست ميم بسكون، تراقب قطرات الدم. قالت بنعومة كما لو أنها في حالة ذهول: «أفكر بالمرات التي سمحت لك فيها بجرجرتي من كوخ إلى آخر لأنني لم أرغب بجرح مشاعرك. وأفكر بالمرات التي تلقّى فيها رأسي الضربات كي تشعر ولو قليلاً بفحولتك يا براونفيلد كوبلاند». ضيّقت عينيها وكادت تغلقهما، مصوّبة نظرها عليه.

«أتذكر كيف عاملتني على مدار تسع سنوات وكأنني كلبة وضيعة عجوز». أحكمت قبضتها على البندقية. بدأ جسد براونفيلد بالارتعاش وانتفض تحت تأثير تشنجات حادة. قالت زوجته وشخرت: «على النساء القبيحات مثلك مخاطبة الرجل بسيدي، واظبت على ترديد هذا منذ عكفت على ضرب القبح في مظهري!».

انتحب متضرّعاً: «ميم»، تكهن من أمارات وجهها بأن الضعف بدأ يتسلل إليها «تعرفين قسوة ظروف رجل أسود هنا». سالت الدموع والدم

والقيء معاً على ساقيه. «تعرفين أني لم أرغب يوماً بأن أكون سوى رجل حقيقي!، ميم، حبيبتي، البيض لا يفسحون مجالاً لأحد كي يرغب بفعل أي أمر صائب».

سألت ميم: «تعجز عن التصدي لهم، هذا قصدك، أليس كذلك؟»، استعادت رباطة جأشها، وأسندت ذقنها براحة يدها اليمنى، نقّلت البندقية إلى يدها اليسرى. «انظر إلى حالك الآن، تبكي مثل طفل صغير سيُعاقب لأنه بال في سرواله».

«يا ربي، ميم، تعرفين كم ناضلت لأفعل الصواب. لا أجني الكثير من المال، تعرفين ذلك. ولا يمنحنا البيض منازل كريمة نسكنها، تعرفين هذا. ماذا بوسع رجل أن *يفعل*؟ سأل ممسكاً رأسه مثل كلبٍ جُلد بالسوط. «ماذا بوسع رجل أن يفعل!»، أضمر خطة لمد يده وخطف البندقية. أعادت ميم وضع يديها الاثنتين على البندقية وأمسكتها بإحكام، وألصقت ركبتيها بعضهما ببعض.

قالت: «باستطاعته التوقف عن العويل مثل أبله عجوز دنيء». انزلق براونفيلد وتخبّط بالقذارة الموجودة على الأرض، واستلقى منهكاً عاجزاً عن الحركة.

«ما عرفته عنك منذ زمن بعيد أنك تتظاهر كما لو أنك في المكان الذي تنتمي إليه. طيلة الوقت!»، نزلت عن السرير ووقفت على الأرض عند قدميه.

«سأعيد ما قلته مرة واحدة فقط، أدركت أخيراً أنك لا تعدو أكثر من شخص وضيع عاجز عن فهم أي شيء، لكن من الأفضل لك أن تفهم ما أقوله جيداً، أنا والبنات سننتقل معك أو من دونك». ركلت رجله اليسرى العرجاء واستهدفت بقعة لم تتلوث بالقيء بعد «هل تسمعني يا فتى؟»، تأوّه براونفيلد وأومأ صاغراً.

لقد جنت على نفسها براقش، جنيتُ على نفسي بالتورّط مع امرأة مجنونة! فكر بوهنٍ، مستشعراً ألم إصابة ربلة ساقه.

«إن عقدت العزم على القدوم معنا، فقد وضعتُ بعض القوانين الملزمة، ولكن واضحين، سيكون بيتي أنا، وفي بيتي لا نأخذ ما يفرضه الأبيض علينا في عين الاعتبار! بادئ ذي بدء، سيكون عليك أن تناديني بميم أو السيدة كوبلاند أو السيدة ميم آر كوبلاند. اختر اسماً. ثانياً ستنادي بناتنا بأسمائهن: دافني وأورنيت والطفلة روث، لكن باستطاعتك مناداة أي منهن «حبيبتي» إن رغبت بذلك. ثالثاً إن ضربتني مجدداً، سأفجّر دماغك اللعين، بعد أن أفجّر خصيتيك، التي تنحصر فيهما كل رجولتك. رابعاً، المس شعرة واحدة من شعر بناتي، وسيكون مصيرك الصلب، وسأثبت شفرة في جوفك، تماماً مثلما فعلوا ليسوع، إن استحسن يسوع الأمر، ستستحسنه بلا ريب. خامساً، عليك أن تتعلم كيف تأكل مثل رجل نبيل، لن تأكل مثل خنزير بعد الآن على مائدتي. ستستعمل الملاعق والشوك والسكاكين مثل كل من يتمتع بلباقة وكياسة. سادساً، لا آبه لكونك داعراً، لكن إياك أن توقظني قط صباح الأحد وتغتصبني بينما تقضي طيلة ليلة السبت ترجّ قضيبك. سابعاً، إن نطقت بشتيمة واحدة في بيتي الجديد، سأقصّ لسانك اللعين. ثامناً، ستتحمل مسؤولية كل خطأ تقترفه، وستتوقف عن تحميلي أنا أو الكابتن ديفيس أو دافني أو أورنيت أو روث أو أي شخص آخر يوجد على بعد خمسين ميلاً مسؤولية خطئك. تاسعاً، ستحترم بيتي بألا تدخله ثملاً. وعاشراً، لن تناديني بعد اليوم بالقبيحة أو السوداء أو الزنجية أو العاهرة، لأنك رأيت للتو ما الذي بوسع هذه الزنجية السوداء القبيحة فعله عندما تغضب!» تراجعت ميم خطوة للخلف، زعقت قائلة: «انهض الآن، ارفع مؤخرتك اللعينة ونظّف نفسك!».

وَقف براونفيلد رويداً رويداً على قدميه، أطرق برأسه، جسده لزج وقد غطاه العرق والدم والقيء، عيناه غائمتان يملؤهما الخوف. كان ما يزال يذرف دموعاً غزيرة، وسال مخاطه على جسده. «وعندما تفرغ من تنظيف نفسك، عد إلى هنا ونظف هذه المزبلة. عندما تعود بناتي من

الكنيسة مع جدهن، سيجدن أباً مثالياً، وإن لم يحدث هذا، سنتحرى أنا وأنت عن السبب! هل تسمع ما أقول يا براونفيلد؟»، سألته ميم والبندقية ما تزال مصوّبة عليه. كان مختنقاً لدرجة حالت دون قدرته على نطق كلمة واحدة. عرج متجهاً نحو المطبخ.

«هل سمعت ما قلته يا فتى!؟» ركضت ميم خلفه ووضعت سبطانة البندقية على مؤخرة رأسه. ارتعدت فرائصه، لكنه تمسّك بإطار الباب. تحاشى النظر بعينيه الداميتين إلى عينيها الفولاذيتين الصفراوين.

تمتم: «نعم يا سيدتي»، انكمش على نفسه واستند إلى الباب، لم يرفع نظره: «نعم يا سيدتي»، قال ثانية، تنفس الصعداء عندما ركنت ميم بيدٍ متعبة البندقية في الزاوية.

الفصل السادس

-26-

قبع براونفيلد منتظراً لحظة ضعف ميم، وتكفّل تعاقب الأشهر والسنوات في مجيء هذه اللحظة. وجّه جسدها لها ضربات ما كان هو نفسه قادراً على توجيهها لها، وأعفى وهنها كلاً من صَلَفه وتبجحه من ضرورة التدخل لتوجيه ضربة قاصمة لها. انتفاخ رحمها دفع عظام ظهرها مرة بعد مرة نحو الأمام، فبرز بطنها. رصد باهتمام خبيث ابيضاض كل تجعيدة على بطنها المترهل. تربّص بها منتظراً. خارت قواها ولم تستطع التصدي له على ضوء كل ما تعانيه من غثيان وألم في الساقين والأسنان، وانتفاخ رجليها، وانفجار الأوردة والرأس، أو جرّاء الحقيقة القاتمة التي أصابتها بدوار حول ذاتها المسجونة ويأس بناتها. استطاع براونفيلد إنزالها إلى دَرك لم يكن ليخطر قط على بالها أنها قد تصل إليه.

-27-

كان دوره هامشياً في بيت البلدة- وهو عبارة عن «قصرٍ» مكون من أربع غرف مصنوعة من الألواح الجصيّة، خالٍ من الثقوب، وله فناء عشبي، وصندوق بريد على الشرفة. عاش التحول الذي سبّبه رعبه منها في ذلك اليوم حتى بعد مرور فترة طويلة على تلاشي الرعب، ليحل محله عزم كبير على إظهار غضبه وإذلاله وكراهيته العميقة.

خلال عمله في مصنع للفطائر المجمّدة، أغاظه الرضا الذي شعر به. لم يبدُ من العدل بالنسبة إليه أن العمل الجديد أسهل من عمله السابق في الألبان أو في زراعة القطن أو الذرة. صحيح أن وضع صواني فطائر الدرّاق على خط التجميع عملٌ رتيب، ولكن بعد التشرد لسنوات وراء أبقار البيض، هدّأته الرتابة. البرودة العذبة للمبنى جعلته ينسى تقريباً قيظ العمل في الحقول تحت الشمس. أضحت يداه أقل تعرّضاً للرطوبة، إذ باستطاعته الآن ارتداء قفازات مطاطية عندما يزاول عملاً يتطلّب منه تبليل يديه. راق له صب المزيج الذي تُصنع منه الفطائر في أحواض كبيرة، وأحب تنظيم الأنابيب التي تجري المياه عبرها لينتهي بها المطاف في طناجر ضغط، وانتظر بلهفة يومياً تنظيف الأواني الضخمة البراقة الجديدة دَائماً. ساد في المنزل الجديد أيضاً شعور بالقفزة التي قفزوها، فثمّة مرحاض داخليّ ذو حوض أبيض، تجويفه على شكل وجه، وثمّة أيضاً مرآة وأدراج بيضاء. يمكنه الآن التبرز ورؤية نفسه في المرآة أثناء نهوضه. وفي هذه الأثناء، ترتاح عيناه من رؤية الأوردة الكريهة والخطوط الصفراء

التي تشبه الخطوط على جسد النمور، دون تكلّف عناء شم روائح كريهة أو التبلل بالمطر، يتبرز بطريقة تحاكي طريقة تبرز رجل نبيل، أو، وكما درجت عادته على التفكير بالأمر، يتبرز كرجلٍ أبيض.

أُرغم تحت التهديد على الإمساك بفرشاة الدهان وطلاء الجدران المتسخة، وزرع الشجيرات، وبذل مجهوداً مضنياً لإصلاح الأسلاك الكهربائية الموصولة على نحوٍ خاطئ. ولأن هناك أضواء كهربائية في المنزل الجديد، تشجع أحياناً على قراءة (أو بالأحرى النظر إلى صور) الكتيّبات التي تصل لزوجته عبر البريد، ورؤية صور الملابس والبنادق والأحذية الجديدة، وبدا كل شيء مفرط الجمال على ضوء المصباح العزيز. صار يستيقظ الآن في الصباح متنعّماً بدفء مدفأة تعمل على الغاز لا تصدر أي أصوات، أما الثلاجة، وهي مثال آخر على قوة ميم المكتسبة، وبرغم أنها ليست جديدة ومُستخدمة لعدة سنوات، فلم تعرف يوماً ثلجاً ذائباً أو طعاماً فاسداً.

لو كان له دور في أي من هذا، لو أصرّ على الانتقال، لما قاوم في أعماقه الراحة وشعور الأفضلية والتفوّق. لم يستطع التغلّب على إحساس المرارة الذي تسببه له زوجته، فقد أثبتت أنها أذكى وأكثر حنكة منه، وتذمّر من كل شيء بصوتٍ مرتفع في معظم الأوقات، تلذذ سراً بالتفكير حول «انهيار» زوجته عندما سيرغمها مجدداً على العيش في كوخ حقير.

وعندما تصالحا مجدداً وعاشا سعادة تشبه، لكن لا تقترب كثيراً في عمقها، من سعادتهما أول زواجهما، كانت ميم وحدها من يتطلع قدماً لمستقبل أقل بطشاً وأكثر إنسانية. لم يستطع تجاهل أحاسيسه، وكبح نفسه حتى عندما كان يغمرهما شعور طاغٍ- حيث خالجها شغف غالباً ما كان يتحول إلى رغبة جيّاشة بالإنجاب، ورسم خططاً للأيام القادمة. زرع في داخلها بذور انهيارها، وكل ما من شأنه دفعها للاعتماد عليه في كل شاردة وواردة، لينتهي بها المطاف مدمَّرة ومستسلمة. وعلى ضوء

المقاتلة التي كانت عليها في جوهرها، فكرت ميم بأن معركتها على وشك الانتهاء. لم تكن شريرة، واستغل براونفيلد هذا أحسن استغلال.

وعوض الرغبة بمداواة الجراح القديمة، حلّت رغبة بمحوها كما لو أنها لم تحدث أبداً.

عندما فكّر بصحة زوجته العليلة، وحدث هذا في ساعات الوحدة القليلة التي أُتيحت له، تأمل هزالها وأسنانها المتعفّنة (وتلك التي كسرها والسنّين اللذين طلاهما بالذهب طبيب أسنان حسب أنها ترغب بطلاء أسنانها بذهب برّاق)، عجز عن مواجهة ما يتذكره عن الحال التي كانت عليها، كيف كانت ممتلئة ومكتنزة، تصطف في ثغرها أسنان نظيفة، لكنه عمد هو وأسنانها على حرمانها من ابتسامتها المعهودة. وعندما تقهقه الآن بهستيرية على نكات سخيفة، حابسة توترها الطفيف في أعماقها، كان بوسعه رؤية صورته على المرآتين المتطابقتين لنابَيها، ورغب بضربها ضربة مميتة، ضربة قاضية يوجهها لها بنفسه، من دون انتظار أن يوجهها لها القدر، ضربة تمحوها عن وجه الأرض.

-28-

يا للغبطة الماكرة الظافرة التي غمرته عندما خسرت عملها. كان جسدها عليلاً، فقد حبلت مرتين في المنزل الجديد، ورغم أن الحَملين اللذين فرضهما عليها لم يكتملا، فقد فتكا بما تبقى من عافية جسدها. وفي الوقت ذاته، شابَ هذه الغبطة بعض الحزن، إذ ما يزال يتعيّن عليه أن يكون قوياً وحراً ليذهب من مكانٍ إلى آخر، بينما بات لديها الكثير من الوقت للعناية بقدميها، ورعاية البنات عندما يُصبن بالزكام، مؤكدة لهن مراراً وتكراراً أنهن لن يعشن في الريف مجدداً، إذ إنها ستجد لنفسها عملاً في البلدة. لكن هذا كان بلا بارقة أمل، وبدأ الحلم الذي لطالما رسمته لنفسها ولهن بالتلاشي، بذلت جهداً مضنياً، وظنت أنها حظيت مجدداً باحترام الجميع، بمن فيهم زوجها. لم تسأل نفسها إن كانت تحبه. عاشا في سلام، لم يعد يضربها منذ انتقلوا للعيش في منزل البلدة. ذهبت البنتان إلى المدرسة وانفرجت أساريرهما. ودُرّبت الطفلة على استخدام مرحاض داخليّ.

تبخر اعتدادها بنفسها مع تبخر صحتها، بينما راقب براونفيلد شامتاً ومترقباً. لم تصدق أنه خطط لذلك، اعتقدت أنه بات يُحسن التصرف، ويأخذ في حسبانه كل شيء، وكان هذا ما أراد لها أن تعتقده، إلى أن كان جاهزاً لإماطة اللثام عن خطته، ثم جاء اليوم الذي عجزت فيه حتى عن النهوض من السرير لتبحث عن عمل.

انهمر المطر لأيام، وحاولت ميم في كل يوم العثور على عمل، أي

عمل، في مصنع أو متجر أو مطبخ، لكن لربما توجس أرباب العمل من نحولها الشديد واعتبروه أحد أعراض مرض السل، ورفضوا توظيفها. كانت تعود كل يوم خائرة القوى.

حذت البنات حذوها وصمتن، وأدركن، قبلها بوقت طويل، الخطر الرابض وراء عودة والدهن إلى سابق تجبّره وتولي زمام السيطرة من جديد بعد مرض والدتهن. وبالتأكيد، من دون أدنى ريب، في هذا اليوم بالذات، وفي خضم معاناة ميم من السعال والارتعاش، وقعت الكارثة.

قالت بصوت ترافق مع صفير أنفاسها عندما عاد براونفيلد من عمله:

«لِم السخان معطّل؟».

«لم يدفع أحد الفاتورة».

«حسناً، ولماذا لا تدفعها؟»

«لأنه بيتك، أنت من يدفع الفواتير اللعينة».

أنّت ميم وأشاحت بوجهها نحو الجدار. دنت روث منها وحاولت لعب لعبة التصفيق بالأيدي، لكن والدتها أعرضت عنها. أضحى لونها باهتاً بلون الرماد، كما لو أنها رأت شبحاً.

قالت لزوجها: «لكنك تتحمل أيضاً جزءاً من المسؤولية. لا يمكنك ترك البنات يتجمدن من البرد».

«إيجار المنزل لم يُدفع أيضاً»، بدأ بإخراج كل ملابسه من الخزانة الموجودة خلف سرير زوجته.

«منذ متى؟». تعلّقت أعينهن به، كنّ مذعورات ومتجمدات من البرد، كما لو أن بقبضته الرئات التي يتنفسن بها.

«منذ بدأت بإحضار كل تلك الأدوية وإنفاق كل المال على نفسك وعلى البنات. أعتقد منذ شهرين». ثم ضرط. أخرج من جيبه شعار إخلاء ورماه على السرير. «اقرأي هذه الورقة اللعينة، وأخبريني عما ورد فيها».

أمسكت زوجته إشعار الإخلاء وقرأته بتمعّن وبدأت ترتجف. ووسط ذعرها وشحوبها ووهنها، راقبت زوجها يحزم ملابسه.

«ماذا تفعل؟»

«أجهّز نفسي للرحيل».

«لكن- الرحيل!»، جالت ببصرها في أرجاء بيتهم الصغير الأنيق والأشياء التي اشترتها بالدَين. نظرت إلى الجدران الزرقاء النظيفة، والأرضية الخشبية اللامعة، وعتبات النوافذ المليئة بنباتات دائمة الخضرة.

«لكن إلى أين؟ لم نرسم أي خطط. لماذا لا تدفع الإيجار؟ إنك تجني ما يكفي من المال». ثم أردفت: «مرضنا، كلنا أصبنا بالزكام، لهذا أنفقت كل المال الشهر الفائت». دخلت في حالة هيستيرية، جلست الفتاتان على طرف السرير، في النطاق الذي انتشرت فيه رائحة مرهم «فابورب» الذي دهنته على جسدها، لكنها لم تنتبه لهما. «أين باعتقادك سنذهب الآن؟». سألت مجدداً بوهنٍ وعلى نحوٍ مثير للشفقة، محاولة التظاهر بقوة لم تعد تملكها.

قهقه رغماً عنه: «لماذا؟ ألا تسعفك تخميناتك المثقفة في معرفة الجواب؟ سننتقل للعيش في منزل السيد دجيه إل إس!».

كان الأمر أشبه بكابوس قلب حياتها رأساً على عقب. فقدت ميم وعيها وحُملت نصف مغمى عليها، ووضعت في مقصورة السائق داخل الشاحنة التي جاءت لتقلّهم: لم تحظ بفرصة حزم الحقائب وتغطية أشيائها لتحميها من عوامل الطقس وتوديع منزلها. كانت أوهن من أن تتشاجر مع الأصدقاء الذين أحضرهم لمساعدتهم عندما كسروا أطباقها الغالية، ومزقوا ستائرها، وعفّروا فساتين الفتيات بالوحل.

وصلوا في منتصف الليل إلى المنزل الذي حجزه تمهيداً لـ «انهيارها»، اقشعر بدنه لدى رؤية المنزل. كان السيد دجيه إل قد قطع عليه وعداً بأن يوكل لأحدهم مهمة تنظيفه، لكنه كان ممتلئاً عن آخره تقريباً بقش رطب. النوافذ بلا ألواح، ولا شيء يغطيها سوى «أبجورات» خشبية. ملأت مياه المطر الغرف الثلاث الصغيرة، ولم يكن هناك ما يمكن تسميته أرضية،

هناك فقط ألواح قصديرية تقوم مقام سقف قديم ممتد تحت أكوام القش ليحول دون تبللها.

صرخ براونفيلد: «انزلن، انزلن، هذا منزلكن الجديد!». كنّ خائفات من لمس الأرض. المنزل غير بعيد عن الطريق السريع، وطغى عليه السواد، وبدا وكأنه منزل مهجور مُهدَّم.

«لا- لا أقدر». سحبت ميم نفسها من يديه وأُغمي عليها مجدداً. عندما استفاقت، وجدت نفسها ممددة بين بناتها على القش، وكامل أثاث المنزل الذي اشترته حديثاً مكدّس عشوائياً حولها. عاد براونفيلد إلى البلدة مع أصدقائه وأخبرت البنتان ميم أنه كان عليهما خوض صراع مع أصدقاء والدها للحصول على كامل الأثاث، إذ عقد براونفيلد عزمه على وهبه لهم، كما قالتا.

-29-

قال عندما عاد إلى المنزل، ورائحة الكحول تفوح منه للمرة الأولى منذ قرابة ثلاث سنوات: «انتظرت انهيارك طويلاً يا امرأة». «هذا ما أستطيع دفع إيجاره وهذا ما عليك التعامل معه. لنرى كيف *سأعجبك* عندما تكون اليد الطولى لي!». كان يزهو بنفسه بطريقة جنونية غبية.

أضاف: «وددتِ امتلاك منزلك الخاص، منزل خالٍ من العيوب، ضيّق ومدهون ونظيف، مثل بيوت البيض. وددتِ فعل هذا وفعل ذلك، خراء. ظننتِ أنني أجامعك لرغبتي بذلك؟ جوسي أفضل منك في هذا. مشكلتك أنك لم تعرفي قط كيف تتجنبين الحَمْل. إلى متى تحسبين أن بوسعك الاحتفاظ ببطن ممتلئ بالأطفال؟». وقف متجهّماً، يحدق فيها. لم يكن هناك كهرباء في المنزل، لكن خيوط الفجر لاحت وبوسعهما رؤية أحدهما للآخر بوضوح كافٍ لمعرفة أن براونفيلد خلع قناعه عن سبق إصرار وتصميم.

«أيتها الآنسة المبجّلة الموقّرة، ترجلتِ عن صهوة حصانك أخيراً»، لم يستطع كبح قهقهته، كانت أوهن من أن تأتي بأي ردة فعل.

قال مجدداً، ضاحكاً بصوتٍ عالٍ، متأملاً مظهرها الذي يوحي بأنها على وشك أن تقضي نحبها: «حان أوان أن تترجلي عن صهوة حصانك».

قالت ميم: «براونفيلد أنا مريضة. لكن لن أتوسل رحمتك ولن أموت وأترك بناتي. لن أصاب بالتهاب رئوي رغم الطقس والظروف التي أخضعتني لها. سأستعيد عافيتي مجدداً، وأعاود العمل مرة أخرى، وحين أنجح في فعل ذلك، سأهجرك».

«لا شيء سيوقفك، أليس كذلك؟ أنت بالفعل كرة نار ملتهبة!»، واصل ضحكه. توقف فجأة وشخص ببصره نحوها من تحت قبعته، وقال لها: «أيها الهيكل العظمي. لا تقوين على فعل أي شيء سوى الاستلقاء *والنحيب*. وإن حاولتِ رفع مؤخرتك اللعينة، فسأبذل قصارى جهدي لأحول دون نجاحك في تحقيق ذلك، لن تبرحي مكانك، لأصبح محط سخريتك، ويهزأ الناس بي!».

سألته بعد أن لاحظت ارتعاش البنات وخشيتهن من أن تتفوه بأي كلمة قد تستفزه: «أتظن حقاً أن بوسعك الوقوف في طريقي؟».

قال ناظراً إلى شيء مُغطى بغطاء بلاستيكي: «سأقف في طريقك».

«لا يمكنك تغيير مجرى الكثير من الأمور بمجرّد حمل بندقية».

«يمكنني منعك من فعل أي شيء أيتها القحبة. يمكنني الوقوف في طريقك!»

غصّت دافني بدموعها فيما أجهشت أورنيت بالبكاء، روث وحدها نظرت حولها باستغراب وقرف طفلة صغيرة. لم تعرف البنات الثلاث أباهن، ظنن أيضاً أن التغيير قد يجد طريقه إلى شخصيته. اعتقدن أنه تغير. حسبن أن الأمر منوط ببذل جهد أقل في العمل، والتخفف من القلق، ووجود تدفئة على الغاز ومصابيح كهربائية. أسأن تقدير الأمور لصغر سنهنّ وجهلهنّ لمعظم الذكريات التي لا تبارحه. أدركن الآن فقط أنهن ارتكبن خطأً فادحاً، وعرفن أن والدهن لم يتغير كثيراً مثل أي شخص مرن. استطاع ارتداء قناع لخداعهن وخون ثقتهن.

زعقت روث بجدية من تحت بطانيتها المغطاة بالقش: «اسمع». ابتعد والدهن عنهن، وحاولت دافني إسكاتها. «مهلاً، قلت لك اسمع»، قالَت مجدداً بصوت عالٍ لا يشوبه أي خوف، رغم تقلصات معدتها. التفت والدها نحوها. كانت أصغر بناته، لم تكمل الرابعة بعد. «أنت ابن قحبة لا أكثر»، قالت هذا وغطت رأسها بسرعة ببطانيتها، كي تخفف من بطش أولى اللكمات القوية التي وجهها لها براونفيلد.

-30-

في هذا المنزل، المنزل الوحيد الذي اختاره والدها وستتذكره دائماً بوضوحٍ نوعاً ما، شهدت روث أعياد ميلادها الرابع والخامس والسادس. بدأت بارتياد المدرسة في الخامسة من عمرها. التحقت بدافني وأورنيت ورافقتهما كل صباح إلى المدرسة. اعتادت والدتها على وصف منزل السيد دجيه إل للأصدقاء الذين لم يزرنها قط في بيتهم الجديد على أنه «منزلنا المتهالك». امتلأ منزل السيد دجيه إل بدلاء المياه الصقيعية في الشتاء، فيما دأبت مياه العواصف المطرية في الصيف على إزالة الأتربة عن الأجزاء المدببة من الزجاج الملون الموجود في الفناء الخلفي وعن ألواح القصدير والمشمّع الممزق. فاح المنزل في الصيف برائحة واخزة ناجمة عن الرطوبة والعفن، وامتلأ بهمهمات أشبه بطنين ذباب، وغص هواؤه بالغبار الذي تثيره الأقدام عندما تدوس الروث والقش العفن.

جلبت العائلة المياه من نبع جارٍ يقع على الهضبة الموجودة خلف المنزل تماماً، حيث حظيرة خنازير. نما عشب بري على جانبي أكوام الحطب التي تجاورها مخازن ذرة استحال لونها إلى الرمادي جرّاء عوامل الطقس، وامتلأت بسكك محاريث وأنابيب ومراهم للخيول وُضعت في زجاجات خضراء ملونة مغطاة بخرق ممزقة. عاشت في المنزل تباعاً عشرات العائلات من المزارعين المستأجرين، وعلق العفن في خشب المنزل المُشبّع بروائح كل فرد من أفراد العائلات التي تناوبت على العيش في المنزل، وتشرّب عرقهم وفضلات خنازيرهم.

وجدت دافني وأورنيت منزل دجيه إل لا يُحتمل وفاضت عيناهما بشكوى مقيمة. مقارنة بمنزل البلدة، مثّل المنزل انحداراً كبيراً بالنسبة إليهما، وذاقتا الأمرين أثناء حمل المياه من النبع إلى المنزل وخوض طرق موحلة لتصلا إلى الكوخ الذي تفوح منه روائح كريهة، لا سيما عندما تُمطر. حسبتا أن مثل هذه الأيام ولّت من دون رجعة. أما روث التي كانت ما تزال طفلة صغيرة، فقد طالها أذى أقل، رغم أنها أدركت أن الانتقال إلى المنزل الجديد أحزن والدتها ولهذا فقد كرهت ما حدث. لكنها وجدت ما يشغلها في الحقول المليئة بالقش والممتدة خلف المنزل، واستمتعت بالاخضرار العذب للسراخس والزنابق النامية في محيط النبع الذي استوطنته السلطعونات النهرية.

كانت دافني في التاسعة من العمر عندما انتقلوا للعيش في منزل دجيه إل، وأورنيت في الثامنة. أما الفجوة الزمنية الكبيرة بين عمر أورنيت وعمر روث فمردّها إلى الأطفال الذين ماتوا في هذه الفترة بعد ولادتهم. حملت ميم مجدداً عندما كانت روث في الرابعة، وبعد فترة وجيزة، غص المنزل بطفل جديد. أحبت دافني وأورنيت حمله على ذراعيهما كي تراه روث. دأبت دافني- الخلاقة دوماً- على اختلاق قصص حول مستقبل الطفل. قالت إنه سيكون طبيباً يدير مستشفى كبيراً في البلدة، وسيتزوج إحدى، أو ربما (إن لم تسر الأمور على ما يرام مع الأولى) اثنتين من الممرضات اللواتي تعملان معه. كان صغيراً وهادئاً ورمادياً. اعتقدت روث أنه بدا مثل فأر الأبسوم، أكثر مما بدا بشرياً. تكوّر على نفسه أثناء نومه، عيناه رماديتان وقد احمرّت أجفانهما، فيما شعره الأصفر مشعث، كان شعره أميل للأبيض منه للأصفر. بدا شبحاً، وأبعد ما يكون عن هيئة كائن حقيقي. لم تستطع روث تخيل أنه سيصير أي شيء، لم تتخيل حتى أنه سيكبر مثلها نظراً إلى الطعام الرديء والشحيح الذي تناوله. صراخه أشبه بأزيز رفيع مثير للشفقة. على الرغم من ذلك، في لحظات الوحدة القليلة، عندما ادعت دافني وأورنيت أنها كانت أصغر من أن

تلعب معهما، فكرت روث بأخ أصغر صلب شقيّ تلعب معه، وقد تُملي عليه ما يفعل وتصدر له الأوامر. لكن الطفل الجديد كان هادئاً جداً وينام لساعات طويلة، ويكاد يكون من الصعب الجزم بأنه موجود أصلاً. لم يفتقدنه كثيراً عندما مات. بكت دافني وأورنيت وهمستا بعضهما لبعض أن الطفل تجمّد حتى الموت لأنه كان أزرق بالكامل عندما أبصرتاه جثة هامدة. ولكن مع زحمة المشاغل والمدرسة واللعب وروتين العيش في منزل دجيه إل، سرعان ما طوى النسيان الأخ الصغير الشاحب.

بعد موته، باشرت ميم عملاً يبقيها خارج المنزل طوال النهار، عملت كخادمة في أحد منازل البلدة. لم تفهم روث سبب هجران والدتها لها مجدداً. عندما عاشوا في البلدة، طفح كيلها من البقاء مع نسوة غريبات، مدخنات ضخمات منهكات، صدورهن مغبرّة، ومن البقاء برفقة فتيات عصبيات بلا طموح، يتحدثن معها بفظاظة، هذا إن تحدثن معها أصلاً. أخبرتها دافني أن ميم تعمل ليتمكنّ يوماً ما من مغادرة المقاطعة وهجر جورجيا وبراونفيلد. لم تعرف روث أي شيء عن الأمرين الأولين، ولكن فكرة هجر والدها أسعدتها.

كانت دافني أكثر اطلاعاً على مجريات الأمور من أورنيت، وأطلقت على نفسها لقب «حافظة أسرار عائلة كوبلاند»، وعنى هذا استغلالها لكل فرصة كي تتحدث عن لعب براونفيلد معها عندما كانت طفلة، كيف اشترى لها الحلوى، ومرجحها بين ذراعيه، وكيف غنى معها ورقص. غارت أورنيت وروث من ذكرياتها وحوّرتاها لتصبح ذكرياتهما، وأضحت ذكريات دافني عن براونفيلد بوصفه أباً شغوفاً ذكرياتهما، برغم أن براونفيلد الذي ادعين تذكره لا يمت بأي صلة (سوى بالنسبة إلى دافني) للرجل الذي عرفنه. وأصبح «تذكر» أبي عندما كان صالحاً لعبتهن الأثيرة. عندما استرق براونفيلد السمع على أورنيت تثرثر أمام روث عن معاملته لها بطيبة استثنائية («اشترى لي فستاناً» أو «أصلح دميتي»)، لم يسعفه عقله على التفكير أبعد من أن أورنيت ستصبح كاذبة

لا يمكن إصلاحها. عرفن أنه لم يفهم لعبتهن وهذا ما زاد من متعة اللعبة، اعتبرن أن والدهن «الصالح» كان ليفهم لعبتهن، مما أثبت أن براونفيلد لا يُقارن به على الإطلاق.

كانت دافني متسامحة أكثر من أورنيت. لكن مزاجها يتحول إلى مزاج قاتل عندما يسيء براونفيلد معاملة ميم. حينما ضرب براونفيلد دافني، حاولت رغم الغضب الذي اعتمل في صدرها امتصاص الضربة من خلال تشتيت ذهنها والتفكير في اللاشيء. سعت جاهدة للاحتفاظ ببعض الحب لوالدها في قلبها، ربما كرمى لذكرياتها والأيام الخوالي، مما جعلها عصبية جداً، تجفل لمجرد سماع أقل همسة أو عند أدنى حركة، ولأنها كثيراً ما كانت تجفل، دأب براونفيلد على إغاظتها والصراخ في وجهها. أخبرها أنها غبية ومجنونة، شتمها، وأسماها «دافي[2]» عوض «دافني»، وقرص جوانبها حتى ازرقت. على الرغم من كل هذا، قاومت بشجاعة، كابدت لإخفاء ارتجافها قدر الإمكان. اشمأزت من المنزل لأنه لا يبدو نظيفاً مهما نظفنه، ولأنها عرفت نوعاً ما، أكثر من روث وأورنيت، أنه السبب في الصراع الذي أُقحمت ميم فيه. أبغضته لأنه بارد في الشتاء ولا يدفئها رغم كل محاولاتها، وكانت ترتجف داخله صيفاً وشتاءً. واستطاعت بشكلٍ أو بآخر إبقاء مشاعرها نحو والدها بمعزلٍ عن كرهها للمنزل. لم تعرف روث وأورنيت كيف استطاعت فعل ذلك. لم تستطع روث وأرونيت النظر إلى براونفيلد على أنه شخص محسنٌ وخيّر كما فعلت دافني، وكان في نظرهما مجرد شيطان بشري، وشعرتا بأن الجحيم سيكون حتماً بانتظارهما أينما أخذهما. خشيتا منه كما خشيته دافني، لكن بطريقة محايدة أكثر منها وغير شخصية. كان مثل طقس سيئ، ألم في الأسنان، أخبار غير سارّة.

تتمتع أورنيت بحس دعابة معظم الأوقات، كانت خفيفة الظل وصاخبة ومفعمة بالحيوية، وقحة ومتمردة لا تهاب شيئاً، جسمها مكتنز

2- Daffy وتعني المعتوهة. (المترجمة)

ودهني، بشرتها ناعمة كبرتقالة فاتنة، وملمسها كالفواكه المشمّعة. وبدا براونفيلد أنه يميل إليها أكثر من الفتاتين الأخريين. فكر أنها ستصبح عاهرة ممتلئة الجسم وسهلة المراس عندما تكبر، وما انفك يخبرها بذلك عندما بلغت الثامنة. تعلّمت أورنيت كيف ترجع رأسها للخلف بعصبية ومن دون اهتمام عندما يكلمها. في سن السابعة، رفضت ارتياد الكنيسة أو ترتيل صلواتها الليلية. عرفت في الثامنة وضعيات جنسية مرنة، وخبرت في عمر التاسعة اهتماماً عن سبق الإصرار والتصميم بالفروج والنسوة القبيحات. أما رأيها في المنزل فقد كان أنه حظيرة وأن أغبى الأبقار وحدها ترضى بالعيش في مكان أسوأ من بيتهم. لم تكن محط ثقة، لا يمكن الركون إليها لمسح الأرضية أو حتى اختيار القش المناسب لصنع مكنسة. راق لها الجلوس وسط حقول القش وترديد أغاني موسيقى «ريذم آند بلوز» التي سمعتها عبر المذياع. اعتادت ميم أثناء جمع القش وربطه لصنع المكانس والتنقل في أرجاء الحقل على سماع غناء أورنيت كما لو أنها في حلم. لم توبخها، فقد كانت أورنيت وقحة في التعامل مع والدتها، نظرت إليها على أنها عجوز بلا قيمة، واعتبرت أن ميم تزوجت شخصاً يقلها شأناً، وكان عليها الزواج من مدرّس أو شخص يعمل في المهن الحرة أو أي رجل يملك أرضاً ومنزلاً. لم تكنّ أي احترام لميم، واعتادت من وقت إلى آخر سرقة المال من حقيبة أمها.

حزن ميم على خسارة «المنزل المحترم» لم يتسبب لها في الكثير من الكدر والغمّ. شُفيت من المرض الذي كان سبب خسارتها للمنزل، وعملت بإصرار صارم على رأب الفجوات والصدوع التي ملأت سقف المنزل الجديد، وأصلحت «الأبجورات» المتهالكة ونظفت الفناء الخلفي وأزالت الأوساخ التي خنقت العشب. لم تبذل جهداً في هذا المنزل مثل ذلك الذي بذلته في المنزل السابق. حاولت النظر إليه على أنه نظيف نوعاً ما، أو نظيف بالقدر الذي تسمح لها جهودها وجهود

دافني بالحصول عليها، وأنه لم يسرّب الكثير من الماء، والجرذان لا تحكم قبضتها عليه مثلما كانت تفعل عندما انتقلت مع عائلتها للعيش هنا، ورمت بيأس وبلا اهتمام بضعة بذور في التربة الخصبة الرطبة حول أكوام الحطب، وتخلّت عن فكرة زرع الأزهار في صناديق أو أحواض.

الفصل السابع

-31-

فتحت روث بمشقة عينيها الناعستين في أول صباح قضته في منزل غرانغ، تلاشى آخر صدى رنان لساعة الجد المركونة على رف المدفأة وتبخر في أرجاء غرفة الجلوس والسرير البارد. أخذت نفساً عميقاً بعد أن شعرت بأن أنفها مسدود، واتكأت على الظهر الطويل الدافئ الجالس إلى جوارها، لكن ذلك الظهر انسلّ تدريجياً مبتعداً عنها ووقف إلى جوار السرير. سمعت صوت خطى تقترب وتبتعد في أول الغرفة. تنهدت ورفرفت عينيها، وتقلّبت في سريرها. استلقى الشخص الموجود على الجهة الأخرى وواصل شخيره، مولياً وجهه نحوها، فاحت منه رائحة البصل والخشب ونبات الهندباء. تقلّبت روث واستلقت بكسلٍ متدثرة بالدفء الذي خلّفه وراءه الشخص الذي نهض. كانت مدركةً لشعور الغرابة وانعدام الأمان، كما لو أنها قطعت رحلة طويلة أثناء الليل، بدت رائحة الصباح مختلفة قليلاً بالنسبة إليها، وعندما فتحت عينيها لتتلصص على أغطية السرير، لم تستطع تذكر أنها غطّت في النوم في هذه الغرفة. جالت ببصرها في أرجاء المكان، ثمّة في الزاوية خزانة لتعليق الملابس ذات أدراج زجاجية صفراء يكسوها خشب بنيّ. وهناك تحت النافذة المقابلة للسرير أريكة وثيرة بلون زهرة الغرنوقي الفوشي، وعُلّقت على الجدار صورعديدة قديمة لأناس يرتدون قبعات عالية، مشطوا شواربهم ودهنوها بالشمع، شعرهم أجعد رغم عنايتهم به ودهنه بالزيوت، فرقوه من المنتصف. ظهرت سيدة شاحبة في إحدى الصور، بدت علامات المرض ظاهرة على وجهها، ولربما أسلمت الروح قبل أن

تُحمّض الصورة. كان هذا رسماً ملوناً لجدة روث، زوجة غرانغ الأولى، مارغريت.

أضحى ذهن روث متنبّهاً شيئاً فشيئاً، لكنه لم يسعفها على الفور لإعلامها عن مكانها، لكن أخيراً أخبرها في صعقة واحدة أنها في منزل جدها وأن زوجته جوسي هي من نام إلى جوارها. حاولت تذكر كيف أوت إلى الفراش هنا في الليلة السابقة، لكنها لم تستطع.

سمعت طقطقة صوت الخشب المتقد القادمة من أول الغرفة عندما صبّ جدها الكيروسين على النار، وصوت شخير زوجة جدها الذي كان أشبه بأزيز فوضوي يصمّ أذنيها. تحاشت تحريك الأغطية كي لا تصدر أي صوت، وتفادت إعطاء أي إشارة تدل على استيقاظها، وبدأت بالتذكر.

الليلة السابقة كانت ليلة عيد الميلاد، ترقبت روث الحصول على دراجة ثلاثية العجلات كهدية، وظنت أنها ستحصل عليها. لكن والدتها ما فتئت تردد على مسامعها أشياء من قبيل أن سنة السيد بابا نويل كانت عصيبة، لأن السيدة ماما نويل ماتت (أو لاذت بالفرار) وفَقَد السيد بابا نويل الرغبة في فعل أي شيء، لا سيما صنع الألعاب، وشقّ عليه رؤية الجميع سعداء بينما يقبع في إحدى زوايا القطب الشمالي يبكي أنهاراً، وأقصى ما يمكن انتظاره، كما أخبرت روث وأورنيت ودافني، بضعة برتقالات وربما أعواد حلوى ملوّنة.

عاد براونفيلد من البلدة تلك الليلة ثملاً جداً، زمجر بكلمات غير مفهومة قائلاً إن دافني أخذت روث وأورنيت وأنهن اختبأن في قنّ الدجاج. تذكرت روث كيف بدأت كل الدجاجات بالنقيق وقد فاحت منها رائحة طازجة، ليست طازجة تماماً، وإنما طازجة كرائحة اللحم النيء. غطت الأوساخ أيديهن ووجوههن أثناء زحفهن في القنّ، لكن دافني أجلستها في ركنٍ تفوح منه رائحة عفنة، واختلست النظر من خلال أحد شقوق جدار القن. انفجرت البنتان ضاحكتين عندما قالت أورنيت،

التي كانت في الصف الخامس، إن صبياً في المدرسة دائماً ما يحاول إنزال سروالها أثناء فترة الاستراحة. لكن دافني صفعتهما على وجههما بقوة. كانت ترتعد، لم تعتد التصرف بغرابة كما فعلتا لأنها تدخل في نوبات غضب بين حينٍ وآخر، وكانت صارمة وجدية دائماً. اعتقدتا أن الأمر برمته مجرّد نكتة إلى أن صفعتهما. كانت صفعة قوية، لا تخلو من الطرافة. بدا لهن أن براونفيلد لئيم وعنيد وثمل طوال الوقت.

اعتاد ألا يعود إلى البيت، وغالباً ما أمضى لياليه يتشاجر مع رواد حانات البلدة، وكثيراً ما تعرّض للضرب على يد الشخص الذي يختاره بنفسه ليتشاجر معه، ثم يشفقون عليه ويرغمونه على السماح لهم بإيصاله إلى البيت، بينما يتعالى صراخه ويتمتم بكلمات مبهمة: «أنا رجل ذو *كبرياء وعنفوان* ، أؤكد لكم!»، ثم يغط في النوم على الطريق. بعدها يرمونه على الشرفة وقد أمسى عاجزاً عن الحراك، تفوح منه رائحة كريهة، أو كان أحياناً يغني ممدداً على الشرفة. صوت ارتطام! وبعده يُلقى على الشرفة، وفي حال أيقظ صوت الارتطام كلاً من روث وأورنيت، تعمد البنتان إلى السخرية منه تحت أغطية فراشهما.

شعرت دافني بتوتر كبير في المنزل، وعجزت روث وأورنيت عن فهم سبب توترها. تعين عليها دائماً البحث عنهما لأن براونفيلد، حتى في الأوقات التي يكون فيها صاحي الذهن، يضربهما ويطردهما. كرهنه عندما كان يفعل ذلك، وبين هذا وذاك، أمضين النهار بطوله يلعبن برضا تحت الأشجار خلف المنزل، حيث يتجنبن التفكير فيه.

بذلت ميم قصارى جهدها لكبحه عندما يضربهن، وما انفكت تقول: «براونفيلد، يجب أن تتوقف عن التصرف بهذه الطريقة. تعرف أنه لن يكون بوسعك احترام نفسك عندما تكبر في العمر وترحل الفتيات». وقد كان يرد على قولها هذا بركلها على رأسها أو ساقيها.

ميم وحدها كانت تعمل، فقد طرده دجيه إل من العمل. استأجرا المنزل، وغطى راتب ميم تكاليف الإيجار، فقد كانت تتقاضى سبعة

عشر دولاراً في الأسبوع، وكان هذا مبلغاً كبيراً بالنسبة إليهم، وبمنزلة ثروة يجنونها دفعة واحدة. وما كانت تتقاضاه لقاء ستة أيام عمل فاق بكثير ذلك الذي تقاضاه براونفيلد خلال عمله في بيع الألبان وزراعة القطن لدى دجيه إل. ألمح براونفيلد لندمائه أنه سمح لميم بالعمل هناك، لكنها لم تغادر البيت قط صباحاً من دون أن يحاول منعها. كان أحياناً يستلقي في السرير يراقبها وهي تجهز نفسها للذهاب إلى العمل، وفي اللحظة التي تهمّ فيها بالخروج، يمد يده ويمسك بذراعها ساعياً لجرها على الاستلقاء إلى جواره.

كان يقول: «هيا يا حبيبتي، ما رأيك بالاستلقاء إلى جوار رجلك المسكين؟»، فيما تحافظ عيناه الصفراوان القلقتان على جمودهما وخمودهما وافتقارهما لأي حياة.

كانت البنات يكففن فوراً عما يقمن به عندما يضع يده عليها (لماذا يريد منها أن تستلقي في السرير؟»، أما ميم فتعقد حاجبيها وتجول ببصرها على البنات وتقول: «حرر ذراعي يا براونفيلد، تعلم أن عليّ الذهاب إلى العمل». تثبّت عيناها على حذائها الأبيض مثل أحذية الممرضات، ثم تفلت منه وتهرول إلى أن تختفي عن الأنظار.

كان براونفيلد يقول: «تباً، كل ما تفكر به تلك النسوة اللعينات هو *العمل*. سأذهب يوماً ما إلى اليابات[3]، حيث تعرف المرآت[4] ما هو العمل الحقيقي!»، ثم يبصق على المدفأة الخامدة أو يضرب إحداهن بالحذاء، وغالباً ما يصيب إناء زهور أو صورة قصتها ميم من إحدى المجلات وعلّقتها على الجدران العارية المتشققة.

دأبت البنات الثلاث على ارتداء ملابسهن على عجل، وأخذ أرغفة الخبز الموجودة في السخان فوق الموقد، والبسكويت المتبقي من عشاء أمس، والهرولة إلى المدرسة.

3- وردت في النص الأصلي Jay-pan، كدلالة على جهل براونفيلد. (المترجمة)

4- وردت في النص الأصلي womens، كدلالة على جهل براونفيلد لقواعد اللغة. (المترجمة)

قال لهن مستلقياً بتكاسل فوق السرير ويداه خلف رأسه: «لن تتعلمن فعل أي شيء مفيد، ما لم يعلموكن الحراثة!»، جرحت الكلمات روث أولاً جرحاً بالغاً لا براء منه، لكنها فاجأته ذات يوم عندما حاولت تهجئة بعض الكلمات البسيطة الواردة في كتاب القراءة. عندما أبصرها براونفيلد تنظر إليه، قذفها بالكتاب. تفادت الضربة، لكنها شعرت بحزنٍ شفيف، ركضت ضاحكة وخرجت من الغرفة. وعندما كانت في الصف الأول، عرفت الحسد لأول مرة عندما رأته طافحاً من عينيه.

عطسن بسبب غبار قنّ الدجاج، ومشى والدهن ببطء على الشرفة ونظر إلى الجنبات المحيطة بالمنزل. أطلق الشتائم واللعنات، شاهراً بندقيته، وتعثر أثناء دخوله إلى البيت من جديد.

أصبح جليّاً بالنسبة إلى روث وأورنيت أخيراً أنهما خارج اللعبة. طالهما الخوف في نهاية المطاف عندما أبصرتاه حاملاً البندقية، وأدركتا من دون أن يخبرهما أحد بأنه ينتظر والدتهما، وانفجرتا باكيتين.

دافني دائماً مكتئبة وعصبية، وتصاب بالتشنجات إن دلف أحدهم إلى الغرفة في غفلة منها وقال «مرحباً!»، تتشنج وتضع يدها على بطنها. دأبت على فعل ذلك كلما شعرت بالضيق أو الاضطراب. كما تصاب بغثيانٍ حادٍ مرة في الشهر وتدخل في نوبة من البكاء، وذات مرة، وضعت يدها على بطنها وشرعت بالبكاء، تصبب العرق من وجهها وسال مثل فقاعات دهنية، ركلها براونفيلد تماماً حيث وضعت يديها. كان يحاول النوم، ولم يستطع ذلك بسبب الضوضاء التي أحدثتها، كما زعم.

أخذت ميم دافني إلى عيادة طبيّة، لكن الممرضة قالت إنها على ما يرام، باستثناء كونها عصبية. قالت ميم إنها تعرف ذلك ورغبت بأن تسدي الممرضة لها نصائح حول كيفية التصرف حيال ذلك، لكن الممرضة كانت مشغولة جداً في التحدث مع ممرضة أخرى حول تغيير لون شعرها، وعمدت الممرضتان إلى تجاهل ميم التي وقفت مستاءة، وأمسكت دافني المرتجفة بيدها. شعرت دافني بالذعر من البيض على

نحوٍ خاص، لم تَهَبْهم لأنها وجدتهم في غاية الفظاظة، فقلما تعاملت معهم، لكنها هابتهم بطريقة طفولية نوعاً ما، لهيئتهم الشبحية، وضوء وجوههم الخالي من أي ظلال، والخواء اللامع لعيونهم الرخامية. آمنت أنهم أنقياء، بلا شغف أو رائحة أو دماء، وأنهم ينتمون، على خلافها، إلى رب مريع. لفّ خوفها العالم وغلّف الظلمة والأبنية والأشجار والأزهار القديمة المسماة تيمناً بأسماء حيوانات. خافت من العالم، لكنها هي من تولت مهمة حماية شقيقتيها، وتطوّعت لتلقّي ضربات والدها بالنيابة عنهما رغم أنها كانت ترتجف تحت قبضته وبالكاد تقوى على الوقوف، كانت أورنيت وروث تلوذان بالفرار تصرخان وتبكيان مذعورتين، تجتازان الفناء الخلفي، وتهرولان نحو الغابة.

أخبرتهما بصوتها المرتجف أنها ستذهب لتتجول في البلدة بحثاً عن ميم قبل وصولها إلى المنزل. قالت إنها لربما تستطيع منعها من العودة إلى البيت حيث ينتظرها براونفيلد الثمل. رغبتا بالذهاب معها لكنها أجابت بأن ذهابهما معها سيعرقلها وأنها ستمشي أسرع إن بقيتا في المنزل. راقبتاها تتسلل كشبحٍ داكن، لم ترتد سترة صوفية رغم البرد القارس. كان البَرَد يتساقط خفيفاً، مشت بخفة مثل أرنب بنيّ رشيق وقطعت الطريق السريع بأكمله. تبللت وغطاها سواد الليلة الحالكة الذي اصطبغ بالرمادي بسبب تساقط البَرَد.

ظلت أورنيت وروث وحيدتين في قنّ الدجاج، بكت أورنيت فيما قبعت روث ترتجف من البرد، ما انفكت تنظر إلى الفناء عبر أحد شقوق الجدار. كان قنّ الدجاج أمام الفناء الأمامي، وهو بناء مائل عفن مصنوع من أحجار ملساء جمعتها قطع قصدير صدئة، فيما تنمو في الصيف أمام البَاب مساحات متفرقة من العشب الأخضر، ولكن الآن والفصل شتاء، المنطقة برمتها موحلة ورطبة وزلقة بفعل الصقيع. بُني البيت بعيداً عن الطريق السريع قرابة ثلاثين ياردة، بينما يتفرّع عن الطريق السريع درب ضيّق مرصوف بالحصى المدببة، يعلو ويتوقف عشوائياً عند الباب. لم

يتغير الشكل الخارجي للبيت كثيراً منذ انتقالهم للعيش فيه. ثمّة جنبات قديمة أنهكتها عوامل الطقس، تتخللها أزهار أرجوانية خلال الصيف، أما في الشتاء فلا شيء إلا الأشواك المشوّهة بفعل الرياح تنتشر على الجانب البعيد من الفناء. الشرفة مائلة ويزداد ميلانها على نحوٍ حاد عند أحد جوانبها. وحول الشرفة على الحافة المجاورة لقنّ الدجاج، ثمّة بقايا باب منخل قديم صدئ تتخلله ثقوب كبيرة. صُنع الدرج من جذعي شجرة قطعتهما ميم من شجرة ضخمة، ثم قطعتهما إلى نصفين ورمتهما في الوحل. البيت مصنوع من ألواح رمادية عارية رقيقة، تفتقر إلى أي تعزيزات. وضعت ميم علب الكرتون المقوى فوق الألواح من الداخل، وكان الكرتون يهتز عندما تهبّ رياح قوية وتعبر الشقوق، فتنتصب الصناديق وتهتز كما لو أنها تنبض بالحياة.

رأت روث ضوء غرفة نوم والديها مُناراً، استُخدمت الغرفة أيضاً كغرفة معيشة. اشتمل البيت على ثلاث غرف، شغل المطبخ إحداها. كان البيت أفضل من بيوت أناس آخرين، إذ لم يتوجب عليهن مشاركة إحدى غرف النوم مع أهلهن، وعلى الرغم من صغر غرفتهن، فقد تمتعن داخلها بشيء من الخصوصية. صحيح أن الجدران غير عازلة للصوت، ولكن على الأقل تحجب عنهن رؤية ما يجري في غرفة نوم أبويهن. كان يلوح ظل والدها أحياناً عندما يقف أمام النافذة ليلاً. بدت روث قزمة وسط الغبار. لم تكن وأورنيت على دراية كاملة بسبب جلوسهما في قنّ الدجاج رغم أنهما على وشك التجمد، لكنهما عرفتا أنهما خائفتان ومذعورتان ولا تأمنا التواجد في أي مكان آخر.

اعتادت ميم قطع المسافة من وإلى البلدة سيراً على قدميها، وكانت توفَّق أحياناً بمركبة توصلها مجاناً، كما كان زوج السيدة التي تعمل لديها يقلّها في بعض الأوقات في سيارته الطويلة الزرقاء من طراز كرايسلر. كان رجلاً غريباً نوعاً ما، حسب قول ميم، لأنه أصر على دفع سبعة عشر دولار لها أسبوعياً، أي بزيادة قدرها خمسة دولارات عن الأجر المدفوع عادة

للخادمات. كان من الشمال وقيل إنه يُحتضر بسبب سرطان الفم. قال البعض إنه يهودي، ولكن لم يعرفوا كيف يجعله هذا مختلفاً عن الآخرين. وعلى خلاف عيون الرجال الآخرين، فإن عينيه لا تدفع المرء للنظر إلى قدميه، ولم يهابوه كثيراً. أُعجبت ميم به لأنه سمح لها بأخذ بعض المجلات إلى المنزل كما اعتاد على إرسال كتب إلى دافني وأورنيت. لم ترق لها زوجته، التي كانت حسناء جنوبية يمتلك والدها مزرعة كبيرة خارج البلدة. ما انفكت تذكر طوال الوقت مدى «ظرافة» الأطفال الملونين وتهبهم بضعة قروش. مقتتها روث لأنها كانت تنادي ميم قائلة «ميم، فتاتي الملونة».

جفلت روث عندما سمعت صوت سيارة تتوقف على الطريق السريع. سمعت والدتها تشكره بصوتٍ خفيض، ثم صوت خطواتها الثقيلة بعد ترجلها من السيارة. اختلست النظر عبر الشق لترى إن كانت دافني معها ولكنها لم تلحظ أن والدتها تتحدث إلى أحد، وفكرت بأن والدتها والرجل الأبيض لم يلمحاها على الطريق السريع. سرعان ما تمكنت روث من رؤية ظل ميم.

لم تغادر ميم العمل قبل حلول الظلام في الساعة السادسة. كانت تحمل بيديها الاثنتين خطافاً علقت عليه عدة أكياس، وأطرقت لتأمن سلامة خطاها. أرادت روث الخروج من قنّ الدجاج والجري نحوها، ولكنها عدلت عن رأيها وقبعت وأورنيت متجمدتين في مكانهما. حدقتا فيها عندما عبرتهما، بالكاد استطاعتا التنفس عندما شاهدتا ضوء الشرفة يعكس ظل براونفيلد الطويل يترنح خارجاً إلى الشرفة ملوّحاً ببندقيته. نظرت ميم إلى الشرفة وحيّته. كانت تحية بهيجة، على الرغم من أنها بدت منهكة وبالكاد تقوى على التنفس. بدأ براونفيلد بإطلاق الشتائم، اقترب، وقف على الدرج إلى أن أضحت ميم في دائرة الضوء، ثم صوّب البندقية على وجهها بقدر ما أتاح له جسده الثمل من دقة تصويب، وأطلق النار.

تصاب روث بالغثيان كلما تذكرت ما حدث، وينتابها شعور بموت بارد، تتذكر كيف تمددت ميم بلا وجه محاطة بحصى متناثرة، جامدة

وسط بركة من الدماء التي تجمّعت حول رأسها مثل هالة. ثمّة إلى جوارها بضع برتقالات صفراء لامعة. ركضتا وصارتا عندها في غضون لحظة، لم تلقيا بالاً لوالدهما الذي استدار وابتعد، مواصلاً السباب وإطلاق الشتائم، ثم دلف إلى المنزل. حدقتا في البرتقالات وأعواد الحلوى الملونة وفي المشهد برمته. ولاحظتا للمرة الأولى أنه على الرغم من أنهم في منتصف الشتاء، فقد امتلأ أسفل حذاء والدتهن بثقوب كبيرة تتدلى منها خيطان. كان الحذاء في قدم والدتها اليمنى أكبر من مقاس قدمها وكاد يخرج منها لكنها حالت دون ذلك بوضع قصاصات جرائد على طرف الحذاء. صرخت دافني وركضت وألقت بنفسها على قدمي والدتها، وبدأت بفرك قدمي ميم علّها تدفئها.

ما الذي حدث عقب ذلك، روث لا تتذكر، ولا رغبة لديها الآن لمعرفة ما جرى. دفنت وجهها في الوسادة وانتحبت. لماذا واصلت والدتها السير بعد أن رأت البندقية؟ هذا ما لم تستطع فهمه قط. ألم يكن بوسعها الهرب؟ ميم لم تغيّر حتى إيقاع خطواتها أثناء اقترابها من زوجها. وبعد تحيتها الفرحة المتعبة، لم تنبس ببنت شفة، وصدمتهما على الفور ردة فعلها الدموية التي بدت كإذعان مشوّه لراحة أبديّة حتميّة.

سألت أورنيت، محاولة البحث عن عينين مغمضتين في حين لم يكن هناك عينان على الإطلاق: «إنها نائمة يا روث، أليس كذلك؟».

قال جدها: «هنا، هنا»، اقترب منها وجلس إلى جوارها على السرير «لا نرغب بإيقاظ السيدة العجوز، أليس كذلك؟» هزت رأسها بالنفي، انتحبت بصوت خفيض مطوّقة عنقه بذراعيها. كان قد بدأ بشرب الكحول وفاحت منه رائحة عصير الذرة، لكن الرائحة القوية لتبغه وللذرة كانت منعشة، وربّت برفقٍ على ظهرها.

«قد أروي لك قصة شيّقة عن الثعلب برير العجوز، لكنك لن تصغي...»، نظر إليها بحزن. «الآن، أعرف أنك لن تصغي، ولا ضرورة لقول كلمة واحدة. لا أعرف عمّا أتحدث. سحقاً يا صغيرتي، مصيبة

جديدة تُضاف إلى مصائبنا، لكن لا ابتلاء أكبر من خسارة أمك»، هز رأسه. «يا إلهي، إنها الحقيقة و»، نظر إلى زوجته وقال «أتمنى فعلاً أن تغلق زوجتي فمها اللعين، شخيرها يدفعني إلى الجنون».

أمعنت روث النظر إليه وحدقت فيه مطوّلاً، كانت عيناه دامعتين وخداه يرتجفان.

نهرها بحدة قائلاً: «لا تنظري إليّ، ما قلته هو كل ما أعرفه عما حدث» - رفع ذراعه للأعلى وحركها عندما قال «كل ما أعرفه» - «ثم أنتِ!». لم تسمعه يوماً يدّعي بجدية، حتى في أقصى درجات تباهيه، أن لديه أدنى فكرة عما حدث.

كان غرانغ طويلاً وهزيلاً، شعره كثيف رمادي داكن، أضحى أبيض دفعة إثر أخرى على مدار السنوات القليلة التالية، إلى أن أبيضّ بالكامل، وصار نقياً تماماً كالثلج. كان فمه نظيفاً على نحوٍ غير عادي رغم أنه قلّما نظّف أسنانه، ورغم مضغه للتبغ واستنشاقه له، إلى جانب معاقرة مشروبات كحولية قوية. كان يفركهما أحياناً بطرف ثوب نومه، لكن روث لم تفهم أبداً كيف لهذا أن يبقيها بهذه النظافة والبياض. وحسبت- لفترة طويلة بعد أن رأت أسنانه تضحك لها من داخل إناء موجود على الشرفة الخلفية وقد أحاطت بها الفقاعات من كل جهة- أنه يخرج أسنانه كلها من فترة لأخرى ويغليها. كما عرفت أنها تفقد أسنانها اللبنية المسوّسة واحداً بعد آخر.

كان يسقط صريع مرض قوي أحياناً، ويقع في أحيان أخرى ضحية اليأس والقنوط، فيبدأ بالتحدث عن إنهاء حياته. وأدركت في لحظات معينة أنه بأمس الحاجة لكلماتها كي يتماسك ويتمالك نفسه. كان يستلقي مِن دون حراك على الأرض كالميت، فتدنو منه لتجرّب التأثير السحري لضمّاتها وقبلاتها. وسرعان ما تعلّمت التغاضي عن الاختلافات بينهما. سارت الأمور بينهما على خير ما يرام كجدٍ وطفلة، ولم تواجه علاقاتهما أي مطبات تافهة. لم يصفعها غرانغ قط وكان مستعداً لضرب أي شخص

يحاول فعل ذلك، بمن فيهم جوسي، لم يسمح لها بضربها. المسكينة جوسي، لم يُتح لها يوماً توبيخها.

قال غرانغ عندما رفضت جوسي تكليفها بأي مهام: «لا تعرفين شيئاً عن تربية الأطفال. انظري إلى الفوضى التي نتجت عن تربية ابنتك»، ودت جوسي أن تبدي امتعاضها، لكن كان لغرانغ الكلمة الفيصل.

شعرت روث في بداية الأمر بالغيرة من جوسي، ربما لأنها اعتقدت أن غرانغ يراها جميلة. وغرانغ فكر أيضاً أن زوجته لم تكن حسناء، ودأب على ترديد ذلك بصوتٍ عالٍ. قال إنها عاشت مثل قطة، تهجر منزلها لفترات طويلة. كانت جوسي إحدى تلك النسوة البدينات ذوات البشرة الصفراء التي يغطيها النمش، عيناها فاتحتان، واتفق معظم الناس على أنها جميلة وجذابة، لكنهم لم يروها عن كثب. لكن روث تمعنت في وجهها، وما رأته كان فتاة بدينة صفراء البشرة، ذات أسنان كريهة، وتضع الكثير من أحمر الشفاه الأرجواني، وصوتها يطفح بالتملّق والشكوى، صوت فتاة صغيرة بدينة مدللة تشعر دائماً برغبة في التبول بعد انطلاق السيارة.

حدست روث أن جوسي لم تكن سعيدة بوجودها معهما. واستنكرت جوسي عندما طلب منها غرانغ ذات يوم غسل شعر روث وتجديله وقالت له: «ماذا أعرف عن ضَفر شعر فتاة صغيرة في الثامنة؟»، أجاب غرانغ: «لاحظتُ أنك قصصتِ شعر لورين عوض تخصيص بعض الوقت للعناية به، لكن هذه حفيدتي، اعتني بشعرها وإلا أقتلعت شعرك من جذوره». ضحكت روث ذلك اليوم بينما استشاطت جوسي غضباً وهي تجدل شعرها. لم تكن هي وجوسي صديقتين، كان هذا جلياً.

قبل انتقالها للعيش معهما، اعتاد غرانغ إمضاء أيامه في الصيد والنجارة والتمدد تحت أشعة الشمس. لكن بعد مجيئها، بدأ بزرع القطن. سمح لروث باللعب في الحقول إلى جواره طوال النهار خلال فصل الصيف، رغم أنها مُنعت من قطف القطن عندما أبدت رغبتها بفعل ذلك، بعد أن جذبتها نعومة القطن وخفته وجماله لا سيما صباحاً حين

تكسوه قطرات الندى المتلألئة. لم تفهم سبب منع غرانغ لها من العمل في الحقل. وعندما طلب من جوسي قطف القطن، تمنّعت قائلة إنها لن تقطف القطن ما لم تفعل روث ذلك. قالت جوسي بسخرية: «يمكن لك أن تطلب مني مساعدتك في شراء هذه *المزرعة* اللعينة، لكن إن قطفت كيساً آخر من القطن، آمل أن يبادر أحدهم بأخذي إلى مستشفى الأمراض العقلية». لم يكن لدى غرانغ ما يعينه على قطف القطن سوى كيس طويل ويدين عاريتين، وتُرك ليتدبر أموره مع القطن. سمح لروث بالركوب في مؤخرة الشاحنة عند أخذ القطن إلى المحلج، لكن كلّما اجتازوا الطريق الترابي واقتربوا من الطريق السريع، كان غرانغ يوقف الشاحنة ويعمد إما إلى إرسالها إلى المنزل أو إجلاسها على المقعد المجاور لمقعده.

تمتم بحدة عندما أفصحت عن رغبتها باعتلاء القطن على طول الطريق إلى البلدة: «لستِ فلاحة».

سألته للمرة الأولى: «لكن يا غرانغ، يا إلهي. ألا يمكنني اعتلاؤها حتى نصل إلى *الجسر*؟». بدا مغتاظاً جداً لدرجة تمنعه من الرد عليها. بدأت تشعر بأنها متميزة جداً. تحاشت في المدرسة التواصل مع الأطفال الذين يسمح لهم أهلهم بالركوب في مؤخرة الشاحنة. هزئت قائلة: «زنوج مبتسمون، محط سخرية البيض». أطلقوا عليها اسم «الآنسة المتكبرة» وعندما لاحظوا أن هذا اللقب لا يزعجها، لقبوها بـ«السيدة غرانغ».

الأوقات التي قضتها على متن الشاحنة كانت أوقاتاً طافحة بالسعادة. واستطاعت من عليائها فوق القطن رؤية حقول وغابات وسماء على مد النظر. كانت سماء صافية عذبة حينما تخلو من أي غيوم. وغالباً ما عمدت وغرانغ إلى ترك جوسي في المنزل. قلما فكرت روث ببراونفيلد، وفي كل مرة كان يخطر براونفيلد على بالها، كان غرانغ يسارع إلى تأكيد أن سجون جورجيا من أمنع السجون.

زرع غرانغ أيضاً الخضار في حديقة المنزل الأمامية. وكان بإمكانهم الجلوس على الشرفة ومراقبة نمو شتلات البندورة. قص جذوع

الملفوف الكبير الخشن بسكين عريض كليل ووضع أحدها كتاجٍ على رأسها. زرع الجزر والبندورة والبازلاء، ودأبوا في الخريف بعد تجفيف البازلاء تحت الشمس على الجلوس حتى وقتٍ متأخر من الليل يثرثرون ويقشرون البازلاء. مقتت جوسي كل أنماط العمل، سواء في المزرعة أو غيرها، وتخلت على مضض عن الحكايا المطوّلة التي تتمحور حول «الأيام الخوالي» أو أيام شبابها وبدأت بغسل أواني الفاكهة، وساعدها غرانغ صباحاً في تعليب البازلاء.

في مثل هذه اللحظات الحميمة، لمست روث بوضوح رفض جوسي لها، وتفجعت على خسارتها لوالدتها. باغتتها الذكريات- كانت ذكريات عادية ما كانت لتعني كثيراً أي طفل أكثر براءة منها ولم يشهد ما عانته، لا سيما مع وجود منزل جديد مليء بمصادر لعب جديدة- وهاجمتها ذكرياتها في لحظات غريبة أثناء يقظتها أكثر مما راودتها في أحلامها. في أيام الخريف الطويلة البليدة والثقيلة، بعد أن ينفضّ جمعهم لتعود إلى وحدتها، استحضرت ذكرياتها الجميلة مع والدتها، وبلغت مرارة الذكريات أوجها خلال فصول الصيف الحارة، عندما كانوا يعلّبون البطاطا ثم يرتبونها على شكل تلال ليخبئوا مؤونتهم التي ستقيهم من الجوع خلال الشتاء.

الكبار الآخرون الذين رأتهم لم يأتوا على ذكر والديها. تصرفوا كما لو أنهما لم يُخلقا أصلاً. التزمت جوسي الصمت كلّما واجهت سؤالاً بسيطاً حولهما أو يحدث ما يستدعي تذكرهما. لكن غرانغ انبرى للحديث عنهما. قال إنه يجب عدم نسيانهما، وخاصة ميم، التي كانت قديسة. أحب استخدام بعض القرائن للدلالة على حسن تدبير ميم أو طيبتها واجتهادها في العمل ووظفها كمدخل لقائمة من المقارنات التي لا تنتهي بينها وبين جوسي. كان يتمادى كثيراً في هذا الاستذكار الحيّ لميم ويعاتب زوجته بشراسة لأنها لم تكن ذلك النوع من النساء اللواتي يشبهن زوجة ابنه. كانت جوسي تنخرط في البكاء، أو تتظاهر بأنها تعاني.

اعتاد أن يستهلّ حديثه قائلاً: «أيتها البقرة السوداء الكسولة، لا تنطقي

بحرفٍ واحد دفاعاً عن نفسك. إنك باغية فضائحية عديمة الجدوى، زانية شبه بيضاء، طفلة عجيّة، خنزيرة، بقرة منتفخة مطلية بمواد التجميل! انظري إلى ضرعيك المنقلبين المعلقين اللذين يرتكبان جريمة جماعية بحق كل من يراهما! أيتها العنزة الشهوانية! اغلقي ساقيك المفتوحتين أمام هذه الطفلة البريئة ورأسي الأشيب!» لكنه كان يلوم نفسه عندما تنخرط في البكاء. «تباً» تمتم أخيراً. «لماذا تقفين متخشبة هكذا وتفتحين فمك على اتساعه. اقتربي واجلسي على ركبتي اللعينة عندما أتحدث إليكِ!». تكررت مشاهد الصفح والغفران هذه في بادئ الأمر، وكانت أحياناً مبهجة جداً. تقترب جوسي منه بوداعة وهي تمضغ علكتها، ترطب بلسانها الصغير الماكر أحمر الشفاه الأرجواني الذي وضعته، وتتبخر دموعها. يغمغم غرانغ من تحت الجهة الأمامية من فستانها «آه، يا إلهي، لقد وجدته، تباً، *أضعته مجدداً*».

لم تنم روث معهما دائماً في الغرفة ذاتها. أخبرها غرانغ بلطفٍ قرار منعها من النوم معهما في نفس الغرفة، لكنه كان حازماً في الوقت ذاته.

«ليس من الصحيّ أن تنام كومة من الناس في السرير نفسه، ألا تعرفين ذلك. حسناً، لا بأس إن كانا اثنين، فقط إن كانا من الكبار».

بعد إبعادها عنهما، تقلبت روث في سريرها ولم يغمض لها جفن، حاولت حل لغز احتقار جدها لجوسي واستسلامه المحتوم لها في آنٍ معاً. عندما جافاها النوم، عادت ميم لتبرّد خاطرها؛ لتمسد جبهتها بيديها الخشنتين الدافئتين، وتقبّلها بشفتيها المتشققتين الناعمتين، وتتأملها بعينيها اللتين استعادتا حزنهما وألمهما القاسي والحنون.

-33-

تدريجياً وبقنوط، تلاشى حضور جوسي وتراجع إلى خلفية المشهد، وأصبحت روث وجدها لا يفترقان. لم يخططا للأمر، ولكنهما كانا معاً دائماً، عندما يذهب غرانغ، تذهب روث، يفعل هذا وذلك، فتحذو حذوه. بعد بيع جوسي للنزُل كي تساعد غرانغ على دفع ثمن المزرعة، لم يعد لديها مكان تلجأ إليه، ولم يزرها أحد من أصدقائها القدماء للاطمئنان عليها. حاولت روث وغرانغ بفتور إخراطها في مشاريعهما، لكن المزرعة لم تكن لتثير اهتمام جوسي، حسبت نفسها فتاة مدينة. نحّتهما جانباً وقد كانا سعيدين لذلك. تركاها تتمتم وتجوب المكان جيئة وذهاباً، تطلي أظافرها الأرجوانية.

خلال الشتاء، قبل بضعة أيام من سهرة كل عيد ميلاد، اعتاد غرانغ على الشروع في تحضيراته لإعداد مائدة عامرة بما لذ وطاب. كان رجلاً غير متعلم، لكنه ما انفك يتذكر أن أحدهم، ابنة عجوز بيضاء بلا ريب، أخبرته أن المائدة العامرة هي ما اعتادت الآلهة تناوله قبل أن تندمج معاً ليصبحوا إلهاً واحداً، وبعد أن أصبحوا كذلك، ما عادوا يأكلون أي شيء البتة. «لأن الإله أُتخم أثناء خلقه لنفسه»، كان هذا تفسير غرانغ المقتضب.

لتحضير مائدة الآلهة العامرة، احتاج غرانغ إلى جوز الهند والأناناس والبرتقال المقطّع يدوياً. كان له أن يضيف شيئاً آخر مثل جرعة من الويسكي أو النبيذ، لكن روث تتذكر البرتقال وجوز الهند على وجه

الخصوص. أرسلت شقيقة غرانغ التي تعيش في فلوريدا هذه الفواكه في صندوقين أحدهما كبير والآخر صغير، إضافة إلى الجريب فروت، وبدا المنزل برمته مثل كشك لبيع الفواكه. راق لغرانغ أن يضع كل قطعة فواكه في «مكان مرتفع» مثل رف المدفأة أو أعلى الخزائن أو الخزانة ذات الأدراج، وعندما يأتي الأطفال لزيارتهم في أعياد الميلاد- إذ كان غرانغ لا يسمح لهم بالدخول إلا في المناسبات- كان له طريقة سخية في مد يده إلى خلف ظهره أو رفعها فوق رأسه وإخراج برتقالة لامعة أو جريب فروت براقة، ثم يبتسم في وجه زائره الحائر ويقول بعد صمت، كما لو أنه نسي الكلمات لوهلة «هوكوس بوكوس لك يا فتى!».

الشيء الآخر اللازم لتحضير المائدة هو قِدر ضخم. امتلك غرانغ قِدرين، واحد أبيض للحليب نُقش عليه رسم باهت جميل لثور أزرق، وآخر خزفيّ بنيّ. كان القِدران لوالدة جوسي، وقال غرانغ إنها أحبت استخدام القِدر الأبيض أثناء الأسبوع والبنيّ أيام السبت. ووفاءً لذكراها- كانت صورتها التي تظهر فيها عيناها الكبيرتان بين الصور الموجودة في الغرفة الأمامية- استخدموا القِدر البنيّ لتحضير مائدة عيد الميلاد العامرة.

جلس غرانغ وروث وجوسي حول البرتقالات المقشرة وجوز الهند المقطّع حتى الثانية صباحاً. كان من الممكن بالطبع إنجاز العمل برمته خلال ساعة، لولا توقف غرانغ لعشر مرات أو خمس عشرة مرة لقصّ حكاية، أو ليخبرهما عن حقيقة أمر ما أو شخص ما. حفظ كل حكايات العم ريموس[5] عن ظهر قلب، رغم قدرته على ابتكار قصص أفضل حول صاحب مزرعة ذكي اسمه جون. أضحى جون بطل روث لقدرته على إخراج نفسه من أي ورطة، كما ذكّرها بغرانغ.

5- شخصية خيالية وبطل مجموعة من الحكايات الشعبية الخاصة بالأمريكيين الأفارقة، جمعها جويل تشاندلر هاريس في كتاب يحمل عنوان «العم ريموس» نُشر عام 1881. يبدو غرانغ يتحدث هنا عن قصة «كيف تتحدث العصافير- How the Birds Talk» التي تظهر فيها شخصية مارس جون، مالك المزرعة، وابنه الصغير الذي يسأل العم ريموس إن كان بإمكان العصافير النطق. (المترجمة)

اعتقد غرانغ أن العم ريموس كان أحمق، فلو كان ذكياً جداً لجعل الحيوانات ذكية أيضاً، ثم لماذا بحق الجحيم، سأل غرانغ، لم يتخلص من الصبي الأبيض الصغير (أو لم يربطه ويحتجزه لطلب فدية) ثم يقصد الكونغرس ليرى ما يمكن فعله لجعل البلاد بأكملها أذكى. ومن وجهة نظر غرانغ، فقد كان تصرفه ضرباً من الغباء أو الحماقة، بل وأكثر من ذلك. «عوض السماح للبيض بالهرب بجلدهم وهضم حقوقنا، جثم على مؤخرته السوداء السمينة يشرح لحفنة من البيض الأغبياء كيف أن تناول الكثير من الزبدة خلال الحمية الغذائية يجعل المؤخرة أكبر! نحتاج لرجل دولة حباً لله، لكنه اكتفى بالتصرف كمطرب سوقي عجوز!»

حنّ لفترة صباه المليئة بمواجهات شتّى مع موتى وأرواح وأحياناً مع الروح القدس، وكانت الروح القدس كما قال أشبه بقشعريرة قد تتحول إلى التهاب رئوي في الروح إن لم يكن المرء حذراً.

روى حكايات عن رجال ونساء غرباء ومشعوذين لكل واحدٍ منهم رأسان، مفرطي الحساسية، وتفوق حساسيتهم الأطياف العادية. قالوا إن بوسعهم إعطاءك شيئاً ترتديه تحت قبعتك من شأنه أن يعيد زوجتك إليك (إن هربت منك)، أو يجعلها تهرب منك إن سئمت منها. حكى عن رجل عجوز يصنع تمائم، ويدّعي الناس أن باستطاعته التحول إلى خفاش، كان قد شفاه بالفعل من مرض البواسير عبر إعطائه حقيبة صغيرة تحتوي على شيء عُجن مع براز ويشبه المسحوق أو الرماد. سألت روث: «ما هو مرض البواسير؟»، أجابها: «مرض خطير يصيب الكبار».

روى أنّ هناك سيدة ذات رأسين تعيش في إحدى البلدات اسمها الأخت مادلين. غيّرت نفسها وتحولت من سيدة بيضاء ملونة إلى عرّافة غجرية. سألت روث: «لِم فعلت ذلك؟»، قال غرانغ: «لأنها لا تريد أن تكون طاهية تحضّر الطعام لأي شخص». كانت سيدة قوية، حسبما قال غرانغ، لكن ليس بقوة السيدة ذات الرأسين التي عرفها غرانغ في صباه.

انتحب قائلاً إن الرأسين كانا يذويان. «أيها القوم، الكائنات التي بوسعها النظر في أكثر من اتجاه غدت أمراً نادراً».

أما حكاية روث المفضلة فكانت تلك التي يرويها عن انضمامه إلى الكنيسة.

حدث هذا في ربيع قصيّ عندما كان في السابعة أو الثامنة من عمره، خلال فترة الردة الدينية. دأب حينها على خوض شجارات مع أطفال بيض يعيشون في الجوار، «أبرحتهم ضرباً» ليسمحوا له بالإبلاغ عنها. لم تحاول والدته الورعة التي عملت كخادمة مجدّة معظم حياتها منعه من خوض هذه الشجارات (قالت بحنان بالغ إنها لم ترغب بتحطيم روحه)، لكن عوضاً عن ذلك شجعته أكثر على الارتماء في «حضن» الكنيسة. لم يستطع غرانغ قط قول كلمة حضن من دون النظر إلى أسفل الجهة الأمامية من فستان جوسي. على أي حال، قاوم بكل قواه، إذ مقت إعادة إحياء النزعة الدينية، كره الكنيسة، وأكثر ما بغضه هم الواعظون. حاولت أمه إقناعه بلطف بالانضمام إلى الكنيسة عندما زارهم ذات ليلة شقيقها باستر. كان خال غرانغ لئيماً أشبه ببرميل ولا سيما في المنطقة المحيطة بصدره. بغضه غرانغ لأنه لمحه من خلال النافذة الزجاجية يضرب زوجته، أي عمة غرانغ. تحت تأثير كلمات شقيقته اللطيفة الحانية، وتوسلاتها الركيكة على نحوٍ واضح، أمسكه خاله بقوة من كتفه وألقى عليه محاضرة مطوّلة حول استقبال الروح القدس، وروى له مدى جمال الخلاص، وكيف أنه إن فتح قلبه فإن الضوء النقي سيطير ويغوص في قلبه. باختصار، قال إنه إن لم يصبح غرانغ مؤمناً في الليلة ذاتها، فسيضربه بالسوط عندما يعود إلى البيت.

كان غرانغ يتوقف عن سرد حكاياته لبرهة ليطلق قهقهات جذلة، مما أدهشهما، على الرغم من أنهما توقعتا هذه القهقهات. قصّ الحكايات بأسلوبٍ بارع وأحب مراقبة عيونهما المتسمّرة عليه وهي تبرق وتعكس ضوء النار المتقدة التي كان يصوّب بدقة بصقته نحوها من دون أن

يخطئ التصويب. أحبته روث حتى عندما يبصق، وراق لها متابعة ما يحدث للبقعة التي تخلّفها بصقته، ومراقبة الشفاه البنيّة الداكنة الناعمة المصقولة وأسنانه البيضاء النظيفة، ثم الأزيز الطنان لقضبان المدفأة الحديدية عندما تلسعها النيران، وخمود النيران المؤقت، وصوت البخار المتصاعد بسرعة، ولحظة التقاء البصقة مع اللهب الذي يصاحبه صوت فرقعة ينتظرونها كلهم، محدقين في النيران بأنفاس محبوسة.

أجلسوه أو وفق كلماته «ركنوه» بجلافة على مقعد الاعتراف. فيما طغت على المكان روح محفزة لإحياء الردة الدينية. في المقام الأول، فاحت من «الإخوة» - الذين أُنعم على كل أخ منهم بالخلاص- روائح مشروبات كحولية واخزة، معظمها مشروبات مصنوعة من الذرة أو روائح نبيذ مصنوع منزلياً. في بداية القدّاس، كان جميع هؤلاء الإخوة جالسين متخشبين كمدكات البنادق، وفي المساء، وكي يمنعوا أنفسهم من الوقوع عن مقاعدهم، سمّروا أعينهم على غرانغ الجالس بقنوط على المقعد الخشبي. خاله باستر كان أحدهم، وخُيّل لغرانغ أن بوسعه أن يشم بوضوح رائحة البراندي المصنوع من الخوخ المقشور التي تفوح من فمه، وخُيّل إليه أن رائحة خاله تملأ أرجاء الكنيسة برمتها.

كانت الأخوات بأبهى حلّة، قال غرانغ إنهن «ارتدين فساتين طويلة الذيل، وكان من الوارد في تلك الأيام أن تكسر عنقك في سبيل رؤية جزء يسير من ساق إحداهن». ارتدت الأخوات ملابس فاقعة الألوان كالأحمر والأصفر والأخضر، شعرهن مسترسل «بشكلٍ مثالي»، ابتسم غرانغ، «لو سقطت سحلية على رأس إحداهن، لانزلقت وانكسر أحد مخالبها أثناء محاولاتها التشبث!». وكن يجلسن قبل أن يبدأ الواعظ إلقاء عظته ليغتبن الناس فيما تسود المكان جلبة كبيرة كما لو أن مجموعة طواويس تزقو معاً. «يا ربي، كيف حالك يا أخت فلانة! يا صغيرتي، أنت من الجمال بما يكفي لتؤكلين!» أو «أغلقي فمك يا فتاة، لن تحظي قط بأطفال أحياء. تبدين تماماً مثل شخص مغفل وساذج!»

بصقن من النوافذ وفي المدفأة،وحاولت كل واحدة منهن إظهار كاحلها من تحت ذيل الفستان. وحالما اعتلى الواعظ المنبر، صحن فوراً «الآثم المسكين!»، وانتحبن من أجله، محدقات في غرانغ طوال الوقت وقد علا الحزن وجوههن.

في نهاية الخطبة، بدأ الواعظ ينادي على «معتنقي المسيحية[6]». (سألت روث: ينادي على من، المدانين[7]؟ «الشيء ذاته» أجاب غرانغ دون أن يوقف سرد قصته). سجل مسبقاً مراهقان أو ثلاثة ممن كانوا معذبين وسعداء أسماءهم مطأطئي الرؤوس. ربما سرقوا شيئاً في الليلة السابقة، حسب قول غرانغ. بدأت الكنيسة تصدح بالأغاني، كانت الأخوات يزعقن واعتلى الواعظ المنبر والعرق يتصبب منه. وعمد بين فينة وأخرى إلى مسح أعلى رأسه الأصلع بمنديله. لاحظ غرانغ أنه المنديل نفسه الذي بصق فيه طوال فترة القدّاس. كان بوسعه استشعار نظرات والدته المثيرة للشفقة، عرف أن ارتياده للكنيسة هو أقصى رغباتها وأحلامها. أراد رؤية الروح القدس أيضاً، إذ خشي حتى الموت من سياط الخال باستر التي توعده بها.

فكر بخاله وهو ينظر إلى والدته، ورنا بنظره نحو ركن الابتهالات بحثاً عنه. كان ما يزال هناك، ولكن بينما نبضت أرجاء الكنيسة بحياة الله وروحه، وفي حين كان الآخرون يتسلقون الجدران، غط الخال باستر في النوم. علا صوت شخيره، وتجمّع خيط لعاب فضي طويل حول جيب سترته. نظر غرانغ، مفتوناً، إذ ما انفكت ذبابة كبيرة سمينة تنبش بإصرار الأوساخ التي تجمعت حول فم الخال باستر. ولمعت أجنحة الذبابة تحت أضواء مصابيح الكيروسين مثل حجر الكهرمان الكريم. المشروع الذي كانت الذبابة منهمكة في إنجازه حول فم الخال كان أشبه بعمل ربة منزل تكنس إحدى زوايا البيت، أو صبي صغير نهم يأكل فطيرة

6- Converts.

7- Convicts.

مسروقة. في تلك اللحظة، عقد غرانغ صفقته مع رب الكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية.

قال في سريرته أثناء مراقبة فم الخال باستر المفتوح على آخره، الذي وجدت الذبابة فيه ملعبها: «إن دخلت الذبابة إلى فم الخال باستر، *وإن ابتلعها الخال باستر*، فسأقفز وأدّعي أني رأيت الروح القدس وسأنضم إلى الكنيسة». اتخذ قراراً بأن الروح القدس لا تأتي من تلقاء نفسها. وحالما أنهى جملته، قال غرانغ، إن الذبابة تسللت بحذر إلى داخل فم الخال باستر، وعندما استيقظ الأخير، لاحظ أن كل من في الكنيسة يصوّب نظراته نحوه، أو هذا ما خُيّل إليه، ضمّ فكيه المتثاقلين اللذين يعلوهما الشعر، وفي بلعة متدينة ورعة واحدة، أضحت الذبابة في جوفه! بدأ يهوج ويموج وتحول لونه وظهرت عليه أعراض المرض، وعندما نهض غرانغ في تلك اللحظة وصافح يد الواعظ، مر الخال باستر بقربه وقد وضع إحدى يديه على فمه. قال غرانغ إن والدته بكت وصرخت وطفح وجهها بالسعادة وظلت سعيدة منذ تلك اللحظة.

وبهذه الطريقة، قال غرانغ، صرت فرداً من أفراد الكنيسة، لكنه لم يؤمن بالله. تساءل كيف لإله يحترم نفسه أن يعقد صفقة مع صبي لا يتجاوز عمره سبع أو ثماني سنوات، كيف لهما أن يتفقا على صفقة ووجبة تغص بكل هذا القرف!

عند وصول غرانغ إلى الجزء الأخير من القصة، وثبت روث عن كرسيها وانفجرت ضاحكة. وعندما كانت تجلس وغرانغ في الكنيسة، كان الضحك يغلبهما معظم الأحيان مثل فتاتين سخيفتين تهزآن من تفاهتهما التقليدية، وإحدى هذه التفاهات ارتياد الكنيسة. كانا في أعين الواعظين ورواد الكنيسة المتأنقين بمنزلة التجسيد المرعب للتجديف. لكن ما شهداه كل أحد كان طريفاً: رجال صالحون هادئون يوقرون المسيح يعذبون أطفالهم ويضربون زوجاتهم كل سهرة سبت.

-34-

رأتهما جوسي في أحد الأيام يرقصان معاً في مقصورة صغيرة مصنوعة من جذوع الشجر بناها غرانغ من أجل روث لتكون مسرح لعبها. كان يوم عيد ميلاد روث العاشر وارتدت حلّة جديدة تماماً من رأسها حتى أخمص قدميها. استشاطت جوسي غضباً، إذ لم يشتر غرانغ لها ملابس منذ زواجهما. ولم يكلّف نفسه، منذ مجيء روث، عناء الرقص معها.

صرخت، بينما كان غرانغ وروث يرقصان حولها إلى أن انقطعت أنفاسهما: «هذا تصرف غير لائق! ما زال قلباكما في حالة حِداد ومثقلين بالهموم!»، واصلا الرقص، أصدرت حنجرته المرهقة بحة خفيفة، ودندن موسيقى البلوز. بدا الألم يعتصره عندما يغني. لكن لم يكن لدى روث أدنى فكرة عن الوضع الصحي لقلبه. حسْبها أنها في قلبه، وكان هذا كافياً.

سألت: «ماذا تقول عن قلبك؟ لكن غرانغ كان مأخوذاً بحسرته. اعتقدت روث أن جدها نمط جذاب جداً من الرجال العجائز. عجوز طويل ونحيل ولديه ورك بارز. كان يصعب على المرء التمييز عندما يرقص إن كان في مزاج سيئ أم حسن. يكتفي بإغلاق عينيه ويدندن. كان يترنّم دائماً بأغانيه الخاصة، إذ لم تسمع روث هذه الأغاني يوماً عبر المذياع. حرّكت أغانيه مشاعرها، وأيقظ رقصه في قلبها حنيناً لشيء موغل في القدم. كان رقص غرانغ يشبه طريقة مشيته، إذ تبدو ركبتاه

على وشك الوثوب. وعندما يثمل، يتلاشى الخط الفاصل بين المرح والسوقية ويصبح خيطاً واهياً. استمتع بوقته، ولم يكن قلبه بالنسبة إلى روث جزءاً من جسده، تجلّى قلبه بالنسبة إليها في بحة صوته عندما يغني.

كان رقصهما أجمل ما يكون عندما يكونان بمفردهما. لفت الرقص انتباه روث إلى مفاتن جسدها، ونبّهها إلى تفاصيل جسد جدها أيضاً، ونظرت بإجلال إلى ما يمكن لهذا الجسد أن يفعله. علّمها غرانغ من خلال رقصه تاريخاً لا تعلّمه مناهج التدريس، كوّنت فكرة عن وطنٍ لم تعرفه يوماً وسمعت قرع طبول. كان الرقص كهرباء دافئة تسري بينهما، وتصلهما بالراقصين الآخرين المتمايلين في أماكن قصيّة. ومن خلال أطراف جدها العجوز المرنة والمطواعة، تعلّمت عظمة النعم التي يتحرك جسدها بفضلها.

بدأت جوسي تتركهما وحدهما كل يوم سبت لتقصد البلدة وتزور السجن الذي يقبع براونفيلد بين جدرانه. لم يفعل غرانغ أي شيء لمنعها، وإن فعل، ما كان لروث أن تعرف. لكن روث دُهشت للمنعطف الذي اتخذته الأحداث. لم تتخيل وجود شخص شجاع بما يكفي ليرغب برؤية والدها. نقلت جوسي لهما أنباءً حول تغير براونفيلد أثناء وجوده في السجن، وأنهما بالكاد سيصدقان عينيهما عندما يبصرانه. افترضت روث أنها لن تراه مجدداً أبداً، حتى أنها أمِلت أن يفارق الحياة. أدخلت جوسي الخوف إلى قلبها عندما زرعت في رأسها فكرة أن والدها قد يخرج من السجن قريباً. مرت أسابيع وأسابيع، وأضحت زيارات جوسي أمراً غير استثنائي بالنسبة إليها، بدأت روث بالاسترخاء والاستمتاع بجدها الذي صار كله لها بعد أن أصبحت جوسي تمضي جلّ وقتها في طهي الدجاج وخبز الفطائر كي تأخذها إلى براونفيلد.

سألتها جوسي في أحد الأيام: «هل فكرت يوماً بمدى أنانيتك وقلة تربيتك؟»، تغضّنت عضلات وجهها على نحوٍ غريب.

قالت روث: «لا أفهم قصدك»، كان غرانغ قد وعد بأن يأخذها إلى

معرض الصور، وكانت في عجلة من أمرها وترتدي ملابسها بسرعة قياسية. لم تدرك بحق أنها لم تفكر بجوسي قط على أنها جدتها، ولم تنظر إليها أبداً ولا في أي يوم على أنها زوجة غرانغ.

سألت روث: «ألا ترغبين بالذهاب إلى المعرض برفقتي وبرفقة غرانغ؟»، وهرعت إلى السيارة. رفعت صوتها وقالت بينما السيارة تهم بالانطلاق: «ألا ترغبين بمرافقتنا؟».

-35-

حلّ الصيف ثم الخريف، وكرّست روث وغرانغ جلّ وقتهما لمهمة حسيّة يفوح منها عبير أخاذ ألا وهي صناعة النبيذ. استطاعا ملء قائمة طويلة بأنواع النبيذ التي صنعاها بنجاحٍ باهر. أما القائمة القصيرة فتضمنت مشروبات أخرى لاذعة. جمعا خلال موسم الدراق بذور الدراق وقشوره ووضعاها في القِدر البنيّ ثم أضافا إليها الماء وتركا المزيج ليتخمر. بحلول شهر أيلول، أو مع أواخر الصيف، تنتج هذه العملية نبيذ دراق لاذعاً، وبعدها يقطّعان ثمار الدراق الكبيرة المجلوبة من ألبرتا، ويضعانها في القِدر ويتركانها حتى الشتاء، يعالجانها من حين لآخر ويتفقدانها مرة واحدة في الأسبوع على الأقل. تولى غرانغ مهمة «المعالجة» - كان يشرب بعضها- وفي فترة عيد الميلاد، كان يحتسي البراندي، ويضع قطع الدراق على جانبي الكأس. في الصيف، دأبا أيضاً على صنع نبيذ الذرة وهو نبيذ أبيض وحلو، وكانا يتركان جراره في الربيع خارج المنزل لتبرد، كما صنعا نبيذ العليق ونبيذ الكرمة ذات الأوراق الدائرية والكرمة الخضراء ونبيذ البرقوق أحياناً. أحبت روث النبيذ بنفس مقدار حب غرانغ له تقريباً، وحدث أن شعرت بالغثيان ذات مرة وسط زمرة من الناس وتقيأت، وأضحى من الواضح بالنسبة إلى الجميع أن غرانغ ليس الثمل الوحيد في المجموعة. وعندما بلغت التاسعة من العمر، طال الذهول حتى غرانغ لقدرتها على احتساء النبيذ. حاولت التظاهر بأن النبيذ لا يؤثر عليها لأنها أحبت طعمه كثيراً ورغبت بشرب كأس مترعة منه، كما لو كان حليباً. لكنه عرف، لفترة وجيزة

فحسب، كيف يحول دون أن تصل إلى هذه المرحلة، دأب على تغيير مكان تخبئة الجرة بين فينة وأخرى. لكن عاد هذا الإجراء الاحترازي بنتائج سلبية عليه، لأنه كان ينسى أين خبأها، ويتعين عليه طلب مساعدة روث للبحث عنها.

كان معاقر خمر لا يشق له غبار، وثنيّاً عتيداً لا يلين. اعتاد على مدار اليوم احتساء إبريق يتسع لنصف غالون من النبيذ أو مشروب الذرة، لا فرق. وتتضاعف هذه الجرعة المعتادة خلال عطلة نهاية الأسبوع، فيغدو عاجزاً عن العودة إلى المنزل. استلقى مرتين على قارعة الطريق السريع حيث يتفرّع الدرب الذي يفضي إلى منزلهم، عاجزاً عن الإتيان بخطوة واحدة. وكلّما وجدوه على هذا الحال، دخل في مناجاة طويلة ومرهقة يسهب من خلالها في شرح فضائل الحرية.

قال مخاتلاً: «اتركوني هنا كي أموت مثل كلب لعين. الرجل الأسود يصير أشهى عندما يموت ويحترق في الجحيم!». حملوه إلى المنزل، وأمسكت جوسي به من إحدى كتفيه، فيما مشت روث خلفه وبيدها مصباح كهربائي. كان يطلق في كل مرة تهديدات برمي نفسه وسط الطريق، ودأبت روث على لكزه بالمصباح على ساقيه. لطالما شعرت بأنها أكبر عمراً من غرانغ عندما يثمل ويصير في حالة يرثى لها، وحرصت على إسماعه محاضرة عندما يكون صاحي الذهن، لكنه أنكر معاناته من أي صداع، وكانت ترغمه على جلب التبغ بنفسه، وتتجاهله بشكل عام، ليمسي بحلول يوم الإثنين صاحي الذهن تماماً، بل ومدمراً ومسربلاً بالعار، يموت خوفاً من احتمال أنه لربما تمادى كثيراً معها. (فهي في نهاية المطاف ليست سوى فتاة صغيرة، لن تفهم ما يحدث، وقد تكوّن فكرة خاطئة عنه!). فكر أنها قد تنقلب ضده آخر المطاف. لعن نفسه لأنه والد ابنه ومعرّض لاحتمال أن تظن حفيدته أنه على شاكلته.

كلّما ثمل غرانغ، يخطر براونفيلد على بال روث، كما لو أن الأدراج المقفلة في ذهنها تُفتح عنوة على مهب الألم، ورأت مجدداً شيطان

الكراهية والخراب متجسداً في شخص قريب منها. لكنها اعتقدت أن غرانغ يعاقر الخمر بسبب ابنه القاتل وبسبب جوسي، إذ صار من النادر أن يتحدث غرانغ وزوجته بعضهما مع بعض الآن. وسادت في المنزل أغلب الأحيان أجواء بائسة بسبب برودهما، ملوّثة دائماً بشعور جوسي بأن روث دخيلة ومتطفلة. عرفت روث أيضاً أنه كان لغرانغ زوجة أخرى، اسمها مارغريت، لم ينسها قط، وبكى كلّما تحدث عنها (فقط عندما يكون مخموراً) وكرهتها روث من كلّ قلبها (رغم أنها ميتة ومرَّ ردح طويل من الزمن على موتها).

حسبت أن جرائم غرانغ لم تؤذ أحداً سواه، وأن نصره الساحق على الإخفاقات التي مُني بها في حياته هو بهجته اليتيمة وهذا ما جذبها إليه. كان آثماً، وقد أقرّ بذلك من دون مواربة، لكنه معطاء وخيّر. (لم تلحظ حينها أنه لم يمنح أحداً قط ما منحه لها، ووهبها من دون غيرها كل ما استطاع منحه). لم تقوَ يوماً على إدانة الشغف الذي أسبغه على حياته.

عندما يكون ذهنه صافياً ويخالجه شعور بالذنب والعار، وحينما تنهال عليه جوسي باللعنات وتوبّخه قبيل تجهيز نفسها لـ«زيارة» أحدهم (عادة ما يكون براونفيلد)، ويصبحان وحدهما في المنزل، تلف المنزل هالة كثيفة تزداد ثخانتها حول رأس غرانغ الرمادي المطرِق، كان يرفع رأسه فقط عندما تقترب منه، أو كي يحرّك جديلتيها بقوة واعتباطية وأحياناً بطريقة مؤلمة، ليلفها تحت ذقنه، ويتعانقان.

أما عن الحياة الأخرى التي جمعت الأب والابن، الرجل العجوز الذي أحبته والشاب الذي خافت منه، فما هي المعلومات التي توفرت لديها؟ وكيف لها أن تحكم؟ وماذا عن جوسي والجانب الأمومي الحميمي الذي لم تحظ روث يوماً بفرصة معرفته أو فهمه؟ جلّ ما عرفته أن جدها لم يكن أباً يوماً، رغم كونه والد أبيها. لعن براونفيلد وغرانغ بعضهما بعضاً، لم يحترم أي منهما سن الآخر- ربما شابَ حب غرانغ ثغرة ما، مثل تلك التي شابت حياته- ولم يوليا أي اهتمام لمعرفة زمان ومكان

انطلاق شرارة العنف؟ وما السر الذي تعرفه جوسي؟ كيف لشخص في سنها أن يستوعب عواقب تعاضد عقيم وثمار كراهية متصلّبة كالحجر، كيف لها أن تفهم الأرضية الجامعة لقلوب تفحّمت، والثأر الذي صار صرخة تهز أرواح القلوب المثقلة بالهموم؟

-36-

بداية دخولها إلى حياة غرانغ كانت مدخلها إلى عالم مليء بالحيرة والهواجس، وتعرّفت معه على وحشية مجرّدة من أي مشاعر تخطت الوحشية التي عرفتها في بيت أهلها. بعد تغلبها على فترات طويلة من الإحباط والحزن، باستثناء لحظات هاربة سالت خلالها العَبرات على وجنتيها لسبب لا يمكن التكهن به بسهولة، سمعت أحاديث عرضية وحاسمة حول الهنود وشعوب من ذوي البشرة الصفراء عاشت في منازل ذات أسقف تشبه مظلّات مقلوبة. عرفت روث للمرة الأولى بوجود البحر وبأن مياهه تغمر منطقة أكبر من مقاطعة بيكر برمتها. أنصتت إلى مقتطفات من أحاديث تدور حول أمكنة تحمل أسماء أجنبية، باريس ولندن ونيويورك. كما استمتعت حتى الثمالة بالفرح الذي تحمله لها أيام صنع النبيذ والرقص، وخُصصت أيام بطولها للحديث عن قنابل كبيرة، وعن إرغام أسلافها على الرق، وعن الاندثار السريع للرجل الأحمر، والنزعات الافتراسية الطبيعية للبيض، البيض الذين اقترفوا أعمالاً وحشية لا تُحصى.

أطلعها بالتفصيل على تاريخ السود، وسرد عليها كل ما علق في ذاكرته الشفوية المستقاة من أحاديث ونشرات أخبار ومحاضرات أقيمت في زوايا بعض الشوارع عندما كان في الشمال. تبنّى خطاباً عاطفياً حول بلد غامض اسمه أميركا تقطنه طبقة من الغوغاء الأثرياء. وعندما بلغت عمراً يسمح لها بحمل بندقية، علموها كيف تطلق النار على العصافير والأرانـب. أطلقت النار على كل شيء تقريباً، ورغم الطعم الشهي

للأرانب المطبوخة مع البطاطا، ومذاق العصافير اللذيذ الذي يشبه مذاق الدجاج، فإن فكرة القتل لم ترق لها، وقلبها ما كان ليطاوعها بسهولة.

لم تستوعب روث سبب نفور غرانغ من البيض. سمحت لها ميم باللعب مع الأطفال البيض، وفكرت بينها وبين نفسها أثناء سيرها على طريق المدرسة بأن بعض أطفال البيض القاطنين هنا رائعون. إلا أنه حُظر عليها تماماً اللعب معهم، وعلى ما يبدو، لم يتمتعوا في عمر السادسة أو السابعة بالصحة والعافية الكافيتين.

سألت عن السبب بنبرة متمردة وقد بدأت بقضم أظافرها بعصبية.

قال غرانغ: «أولاً لأنهم خطفوكِ من أفريقيا».

سألت: «أنا؟».

قال: «اسكتي. ثانياً لأنهم جلبوكِ إلى هنا بعد أن قيّدوكِ بالسلاسل».

قالت: «امـمـم»، نظرت إلى كاحليها اللذين يبدو لونهما بلون الصدأ تقريباً، وتأكدت من خلوهما من أي علامات.

«ثالثاً، دأبوا على ضربك يومياً خلال فترة الرق ولم يطعموكِ شيئاً سوى العشب..».

قاطعته: «كما نُطعم ديلسي؟».

قال: «الملفوف والمصران».

«نقانق؟ أحبها. أحب الملفوف أيضاً».

ارتكبوا جرائم مروّعة بحق النساء. (كانت في التاسعة فقط من عمرها حينها).

سألت، وقد لفت الموضوع انتباهها: «ماذا، ماذا!»

إنهم أشرار.

أشرار بعيون زرقاء.

إنهم أعداؤك الطبيعيون.

«انئي بنفسك عن هؤلاء المنافقين وإلا دمروكِ».

قالت وهي تتلمس أزرار فستانها: «لم يلحقوا بي أي أذى، أعتقد أنك مخطئ».

قال: «قتلوا أباك وأمك».

حسب علمها، فإن أباها ما زال على قيد الحياة، رغم أنها تتمنى أحياناً لو كان ميتاً.

قالت: «كلا، لم يفعلوا ذلك». لم تستطع استيعاب ما يجري حولها.

-37-

بالنسبة إلى غرانغ، أضحى ابنه ميتاً لحظة قتل زوجته. لو فكّر لوقت كافٍ بأن ابنه ما يزال على قيد الحياة، لما كان هذا ليغير رأيه كثيراً على أي حال، كان ليقول حينها إنه أحد الموتى الأحياء، أحد العديدين الذين خسروا أرواحهم في براري أميركا. المستنقع الآسن لحياة براونفيلد كان أقرب إلى العدم. وأثناء قضائه الآن لفترة محكوميته في السجن عقاباً على قتل زوجته، واصل براونفيلد رسم مؤامراته الشريرة. أمضى كل لحظة ممكنة غارقاً في الرذيلة والوضاعة. الشخص الوحيد الذي ائتمنه على أسراره كان زوجة والده. أخذ غرانغ بعين الاعتبار احتمال أن تنقلب جوسي عليه بمساعدة براونفيلد، لتنتقم منه على إهماله لها وإيلاء حفيدته كل اهتمامه. لكنه لم يشغل باله كثيراً بزياراتها المتكررة له في السجن. كانت روث بحاجة إليه كي يعلمها جوهر الحياة، أما الأذى الذي ستلحقه به المؤامرات، مؤامرات زوجته وابنه أو غيرهما، فكان خطراً يستطيع مواجهته في حينه. في هذه الأثناء، راقب جوسي في مجيئها ورواحها، سمعها تنطق اسم براونفيلد أغلب الأوقات. شعر بالضيق، لكن كما تعين على جوسي أن تعرف يوماً ما، لم يكن للغيرة مكان في حياته، وكان هذا جزءاً من طبيعته.

انتاب غرانغ القلق عندما بدا له أن روث بدأت تميل نحو براونفيلد أحياناً، مأسورة بالخِصال ذاتها التي عرف أنها لطالما نفّرتها منه وأدخلت الذعر إلى قلبها. خُيّل إليه أن روث قلّبت صورة والدها مراراً وتكراراً في ذهنها، كما لو كان أحجية بالغة التعقيد. بدت نظرتها حائرة وذاهلة عندما فكرت فيه، كما لو أنها حفظت باباً عن ظهر قلب لكنها وجدته بلا مفتاح. كره استعادة

ما حدث خلال الليلة التي اندفع فيها إلى منزل ميم ليجدها وبناتها مكوّمات وسط الفناء. أنقذ واعظ من الشمال معسول اللسان (والد ميم) وزوجته- التي ارتعشت ذقنها هلعاً وذهولاً- كلاً من دافني وأورنيت، وأخذاهما بعيداً. الرجل العجوز كان أكثر حزناً من زوجته، أوغلت المأساة سهامها في قلبه وأراد أخذ البنات الثلاث، رغم رفضه منذ زمن بعيد لوالدتهن. روث وحدها لم تستطع تحرير نفسها من ذراعي جدها. راودته رغبة جارفة بأخذها معه، رغبة ما كان ليصدق أنها ستطرق باب قلبه يوماً بعد كل ما حدث على الأقل. وجدت جوسي في بادئ الأمر ارتباطه بالطفلة المذعورة مسليّاً. قالت إنه لم يرغب بالاحتفاظ بها يوماً كما رغب بالاحتفاظ بها ذلك اليوم. وكان هذا صحيحاً. كانت دوافعه للزواج من جوسي مزعزعة في المقام الأول، وساورتها شكوك حول هذا، كانت شكوكها صحيحة وفي محلّها. تجلّت نقطة ضعفها في اهتمامها به وانتظارها له لزمنٍ طويل. حسبت أن بامتلاكه لها لن يقدم على ارتكاب أي خطأ.

لدى عودته من الشمال، ولدرايته أنها ستكون في انتظاره رغم عدم إخلاصها له، لم تستطع قط فهم التغيرات التي طرأت على مشاعره. عند مروره بمقاطعة بيكر في طريقه إلى الشمال، لم تتعدى معرفته للعالم يومها معرفة طفل. رغم إدراكه لقساوة العالم، لم يستوعب ما الذي ينتظره. اتجه ببساطة إلى حيث قال الناس إنه مكان أفضل. لم يكن لدى جوسي أدنى فكرة عن مدى اشمئزازه مما اكتشفه عن ذلك العالم، وعمق حاجته للتواري عن أنظار كل شيء وانزوائه ودفن نفسه بعيداً عن مرأى أي شيء. لم تقوَ، مثل كثير من الناس (صغار في السن، عديمو الاكتراث، لم يسافروا يوماً) على فهم كرهه ومقته لفكرة اعتماده على البيض أو على أي شخص مجدداً، كم يفضل العمى على أن يرى، ولو عرضياً، وجهاً أبيض. اكتشف أن للبيض اليد الطولى أينما ولّى وجهه، وأنهم أحكموا قبضتهم على نيويورك، كما أحكموا قبضتهم على جورجيا، وحكموا هارلم بيدٍ من حديد، كما حكموا بيدٍ من حديد شارع بونتانغ. لو أخذ جوسي معه كما خططا، لكانت قد فهمت ماهية التغير الذي طرأ عليه. أراد شيئين عند عودته إلى مقاطعة

بيكر، شيئين فحسب: الاستقلال عن البيض، استقلال كامل وغير محدود، والنأي بنفسه عن أجزاء محددة من العالم، أجزاء اختارها بنفسه. واحتاج مال جوسي للتنعم بهذا الأمان. ظنت جوسي أن حبه لها هو ما ألهب توقه إلى الخصوصية. حسبت أنه رغب بامتلاك مزرعة معزولة ليتمتع بسحرها وغنجها إلى أقصى حد. كم كان غرورها المزمن كبيراً وساذجاً!

حاول في مرات لا حصر لها حثها على ازدراء العالم، لتنتابها مشاعر الاحتقار التي يحملها في نفسه. أخبرها ذات يوم عن جريمة القتل (أو الانتحار) التي كان سببها، وأصابها الذعر والهلع. حجم هلعها من كَون الضحية من البيض ما كان ليقلّ لو كانت الضحية من السود. لم يستطع إفهامها أن ثمّة فرقاً.

بنبرة طافحة بالورع والتقوى، قالت زوجته البدينة القحبة التي اغتُصبت في السادسة عشرة من عمرها ولم تنتقم أبداً: «قيمة حياة أبناء آدم متساوية».

«ماذا عن الأذى الذي ألحقوه بنا؟»

«كيف تقوى على اقتراف مثل هذه الأشياء؟»

«العين بالعين والسن بالسن على أي حال، تعرفين أنني دست على زوجتي وطفلي. تضوّرا جوعاً حتى الموت. لم تشتكِ يوماً من هذا!»

أطرقت جوسي برأسها، ثم قالت: «هذا مختلف بعض الشيء»

سأل: «لماذا؟». «لأن هجرك لهما عنى أن نكون معاً؟»

أجهشت بالبكاء. قالت من دون تفكير: «ساعدنا يا الله»، ارتعشت ذقنها.

قال لها: «بعد فوات الأوان، ساعدنا بعد فوات الأوان حقاً!»

الآن، وأثناء سعيه الحثيث لتعليم حفيدته كيف يسير العالم، وسبل مقاومتها له، عادت إلى ذهنه المعرفة التي تعلّمها في أجزاء أجنبية من العالم. نعم أجنبية لأنه رغم كرهه الشديد لهذا المكان أكثر من أي مكان آخر، سيظل وَطنه دوماً هو المكان الذي أبصر فيه النور للمرة الأولى. ستظل جورجيا وطنه، وكل مكان غير جورجيا أرض أجنبية:

قالت حبيبته روث: «لو أنك تمقتهم يا غرانغ، لو أنك تمقتهم في أعماقك، لكنت أطلقت النار على رؤوس خمسة أو ستة منهم!». قَولبت المسلسلات

التلفزيونية الغربية مخيّلتها وعجزت عن فهم واقعها المشوّه. ووفقاً لهذه المسلسلات، إن لم يرق لك الناس الذين يمتطون صهوة أحصنتهم، فإنك تتحداهم وتبارزهم. يكون الفوز من نصيبك دائماً بالطبع، ويكون طفل من بين عشرة أطفال حازماً في تطبيق القوانين.

«هم أكثر عدداً».

«كم الفارق بين عددك وعددهم؟»

«مليارات»

«أطلق وايات إرب[8] مرة النار على خمسة رجال مسلحين سعوا لقتله، كان أحدهم على سطح صالون منزله، وآخر عند باب الصالون، وآخر وسط الشارع خلف العربة، وآخر وراءه يختبئ خلف زوجته. «كم عدد هؤلاء؟»

«عددهم كبير على أرض الواقع»

«لكنك رجل صالح يا غرانغ، *خذ كل شيء بعين الاعتبار*، وستكون بألف خير».

أمام إيمان كهذا، بدا سلوكه المناهض للظلم سقيماً وأنانياً وغير فعال، ليس هذا فحسب، وإنما *جبان* أيضاً.

«أتساءل إن كان صاحب الجلالة لا يحبهم أيضاً؟». بدت محتارة. لطالما استخدمت وصف «صاحب الجلالة» عندما تتحدث عن والدها، كما لو أنها تتحدث عن الله. في لحظات مثل هذه، خالجتها مشاعر مختلطة نحوه تجمع الكره والتبجيل.

سألها مجدداً: «هل تعرفين أنني هربت من جدتك منذ زمن بعيد؟»

«هل كانت تتصرف *بغرابة* مثل جوسي؟»

فاجأه أن طفلة بهذا العمر قد لا تكون غافلة عمّا يدور حولها: «ما قصدك؟»

«حسناً، كما تعرف. كنت لأهرب منها بدوري. كانت كومة من القمامة!»

8- صياد ومقامر ورجل أعمال ومحام أميركي، شارك في النزاع المسلح في أو كيه كورال الذي شهد تبادلاً لإطلاق النار بين رجال قانون وخارجين عن القانون عام 1881 في ولاية أريزونا. (المترجمة)

قال بحنوٍ: «لم تكن كومة من القمامة. كانت جميلة تنشد حياة حلوة، مثلها مثل أي جميلة، ولأنها لم تنلها، حسناً، أرادت ملء حياتها بالتشويق طوال الوقت لتُلهي نفسها عن التفكير بحياة لم تحظ بها. أردتُ بدوري الأشياء ذاتها، وبعد مرور فترات طويلة خالية من أي تشويق أو أحداث جميلة، لم يتبق لنا إلا الشجار كمصدر للإثارة»، نظر غرانغ من فوق رأس حفيدته.

«عملتُ لدى رجل أبيض هرم لم يكن ليتوانى عن سرقة الجلد الذي يكسو ظهري لو كان جلد السود يدرّ عليه مالاً وفيراً».

قالت، مبتعدة خطوة واحدة عنه: «أها!»

عرف مكمن الخلل. «انتظري حتى تكبري. سترين بنفسك. يستحقون أن تكرههم كلَ ذرةٍ في جسدك، ألا يستحق البيض هذا!»

استرسلت في حديثها: «تلقي *بكامل* المسؤولية عليهم! أنت سيئ مثل صاحب الجلالة تماماً! صاحب الجلالة قتله...!»، لم تقوَ على مواصلة الكلام، فاضت مقلتاها بدموع الغضب والحنق.

«هيا بنا نلقي نظرة على الفخاخ التي نصبناها»، تظاهر بأنه لم يلحظ دموعها. مد يده ليتناول بندقيته.

قالت أخيراً: «البيض لم يقتلوا أمي. صاحب الجلالة قتلها!»

قال غرانغ وقد لف كتفها بذراعه: «لا يسعني القول إنك على خطأ تماماً. إن كان هناك أفعى تدحض نظريتي لكان والدك».

«أخبرني عن فعل خبيث قمت به»، هدأ روع روث قليلاً بعد مشيهما بهدوء عبر الغابة لتفحص الأفخاخ.

خشي أن ينتهي كل جدال يخوضانه بهذه الطريقة، ولأنه لا طاقة له على المجازفة بخسارتها، لم يستطع إخبارها قط. إن كان يعجز عن أن يرفق الكلمات التي يقولها لها أثناء شجارهما بسلوك حقيقي ومعارك يخرج منها ظافراً، فكيف له أن يعلمها ما يلزم من الكراهية؟ الكراهية التي قد تعني نجاتها. كان خجلاً من نفسه. أصابه يقينها بأنه رجل صالح في مقتل. ظنت بحق أنه عاجز عن ارتكاب أي فعل شائن، وسيبقى الفعل الشائن للأبد

بالنسبة إليها هو تلك الجريمة التي لا يمكن التفكير بها. لم تكن لتتعاطف مع أي شخص أزهق روح كائن بشري آخر. ورغم ذلك، لم يكن بريئاً، عاش شريعته الخاصة بعد أن تعلّم كيف يفعل ذلك. مقاومة اختياره كانت تطوقها من كل حدب وصوب. حتى أنها كانت جزءاً منها. فقد براءته وسذاجته، وجميع الخِصال الحميدة فيه. اكتشف، كما يتعين على روث أن تكتشف أيضاً، أن البراءة والسذاجة تفقدان أي قيمة لهما في البراري، لكن الأسنان والمخالب القوية لا تفقد قيمتها هناك.

قطعت حبل الصمت: «حسناً...؟»

قال: «مرت لحظات-»، وأحجم. هز رأسه ببطء. دارت كل سنوات العنف والقسوة التي عاشها في رأسه، دارت والتفت كقصاصات ورق قذر ممهورة بتواريخ وصور. في عمق وحدته، ومن قلب بحر الخراب الإجرامي الشاسع، انبثقت ذكرى ليلة حدثت قبل عدة سنوات.

حدث هذا في ربيع العام 1926، هجر زوجته وبراونفيلد والطفل ستار وقصد الشمال. مكث مع جوسي عدة أسابيع في نزُل «قطر الندى» إلى أن بدأ «حبها» التملّكي وابتهاجها لموت مارغريت باستفزازه. أجل، عرف بموت مارغريت بعد يوم من وقوعه، لكنه لم يعد إلى الديار، رغم أن الأمر صدمه بشدة، وبدأ يتساءل بقلق حول مصير براونفيلد. لكن انتابه شعور بضرورة مواصلة طريقه نحو الشمال. انصبّ جلّ اهتمامه على عيش حياة حُرّة، وهذا عنى أن جوسي، وخاصة جوسي، لا يمكنها مرافقته.

بحلول منتصف ذلك الصيف، شق دربه واستجدى طريقه واقتنص السبيل الذي يقوده نحو الشمال، نحو نيويورك. وفي غمرة الأوجه المتجمدة والأبنية الجامدة، لم يكن أكثر من شخص نكرة جائع يقصد هارلم. اعتاش لبضعة أشهر على مختلف أنواع النصب والاحتيال. وسرعان ما وجد نفسه يقترف أفعالاً ما كان ليخطر على باله قط بأنه سيرتكبها يوماً، باع الويسكي والمخدرات بطرقٍ غير شرعية، وسرق بضائع، كما باع نساء سوداً إلى رجال بيض، وهم الرجال الوحيدون الذين امتلكوا حينها نقوداً ينفقونها على مسرّات كهذه. قام بشتى عمليات النصب، واجه صعوبة في البداية لأنه، كما

أعلن شركاؤه في الجريمة، لم يكن أكثر من جرو غابات نائية. لحسن الحظ، لم تحُل أصوله التي تعود إلى هذه الغابات دون تعلمه ألاعيب جديدة. وعلى خلاف المهاجرين الجنوبيين عاثري الحظ، لم يقضِ جوعاً، على الرغم من أنه كان على وشك الموت جوعاً في أغلب الأحيان.

قصد الشمال ولديه فكرة مسبقة عن شوارع ممهدة بالذهب، وهو ما أضحى فكرة نمطية مبتذلة لدى السود الذين سبقوه وعرفوا هذه الحقيقة أكثر منه، لكنهم على الرغم من ذلك واصلوا العودة كل صيف إلى الديار لنشر شائعات وأقاويل قديمة. جاء متوقعاً أن يلقى ترحيباً ويحظى بمن يمسك بيده ليرشده إلى الطريق.

لم تطأ قدماه عندما وصل أي شوارع ذهبية، وإنما شوارع موحشة تخلو من الود، لا يتبادل الناس فيها أطراف الحديث؟ صحيح أنه لم يعد مجرد «شيء»، لكنه أضحى ما هو أقسى من ذلك، أضحى غير موجود حتى، ونظر إليه كل من التقاه على أنه «لا شيء» على الإطلاق! الشمال صيّره تعيساً، وأمست نهاياته العصبية متحفزة جرّاء خضوعه لمراقبة العيون المزدرية طوال الوقت، لكنهم *عرفوا* بوجوده. احتقارهم له أثبت ذلك. زجه الشمال في سجن انفرادي حيث توجب عليه تعلّم كيف يصوّب نظرات محدقة بعدائية كي يرى نفسه. لماذا يتظاهرون بأنهم يتجاهلونه؟ تعين عليه تذكير نفسه باسمه مراراً وتكراراً ليكسر الصمت.

«غرانغ. اسمي غرانغ. غرانغ كوبلاند هو اسمي».

قتل سيدة حاملاً ذات يوم كان يعاني فيه من ألم مبرّح بسبب جوع كاد يفتك به. كان يتسوّل في متنزه «سنترال بارك»، وبالكاد نجا من الاعتقال على يد شرطة الخيّالة. كان الليل يرخي سدوله بعد نهار شتائي مشمس. جثم تحت أجمة منتظراً خلو المتنزه من راكبي الدراجات والمشاة وعجائز نسيهم أبناؤهم، لكنهم يرتدون ملابس أنيقة ويأكلون طعاماً جيداً، ويمضون النهار بطوله هناك حتى آخر خيط ضوء في الحديقة الغنّاء.

كان قد مضى على وجوده في نيويورك ثلاث سنوات ونصف السنة حينها، ارتدى البزة الوحيدة التي نجح في سرقتها ووفرت له الدفء. صار

لصاً ماهراً، وباستثناء لكمات الشرطة القليلة التي تلقاها لمجرّد «الاشتباه به» (لم يُضرب قط لجرائم ارتكبها)، لم تلقِ الشرطة القبض عليه مطلقاً. تمنى في بعض الأحيان أن تفعل الشرطة ذلك ويصدر حكم بحقه، فقط كي يتولى أحدهم مهمة توفير الطعام له، ويحظى بفرصة أن يستحم ويتدفأ، لكن حظه، مثل حاجته للهرب من دون معوقات، انتشله من بؤرة خطر هذه «السلامة» التي يرجوها ليزج به في بؤرة سلامة من نوع آخر، سلامة تناسب روحه نوعاً ما ، وتعيث في عقله فساداً.

جثم بين العشب، وواظب على تمسيد أصابعه بصمتٍ ليحول دون تصلّبها، أبقى عينيه مسمّرتين على امرأة حامل واهنة وضخمة، جالسة على المقعد بالقرب من بركة الماء، مضى على جلوسها هناك فترة طويلة، ومن الواضح أنها تنتظر أحدهم. لم يستطع تمييز أي خاتم في إصبعها. بدا أن قشعريرة تسري في جسدها من وقت لآخر، إما جرّاء البرد أو التعب، عجز عن تحديد السبب. ارتدت معطفاً أزرق ثقيلاً باهتاً نوعاً ما، وحذاءً أسود يتناسب ربما مع لون فراء المعطف. شعرها قصير جداً، أشقر يميل إلى البياض تقريباً. وجهها عريض من الجهة التي استطاع رؤيته منها، كانت شديدة الشحوب وسقيمة، رغم أن شفتيها، مقارنة بوجهها الأبيض، حمراوان على نحوٍ لا يصدق. عندما رآها عن كثب، لاحظ أن شفتيها مطليّتان بأحمر شفاه تخطى حدود الشفاه الطبيعية، ولهذا كان من الصعب تحديد حدود فمها الحقيقية، دأبت على عض شفتيها إلى أن صارتا حمراوين ومنتفختين ومتورّمتين، وكانتا على ما يبدو ملتهبتين.

سحره الحَمْل وفتن ألبابه، واستحضر بطن السيدة الكبير إلى ذهنه خليطاً من الذكريات الحلوة والمرّة. وفكر بمدى عظمة وبهاء عملية الخلق. إنها معجزة. لكن عندما فكر في بطن مارغريت، شقّ تجهم مرير طريقه إلى وجهه رغماً عنه.

جثا مرتجفاً من البرد، وواظب النفخ على يديه ليدفئهما، وأثناء ذلك، اقترب منها جندي ممشوق القوام ومفتول العضلات، وأشقر جداً أيضاً، مشى بخطوات واسعة نحوها وتعانقا. مشيا بمحاذاة البركة جيئة وذهاباً

لعدة دقائق، بينما واصل فرك يديه ووضعهما فوق أذنيه. أصبح المتنزه مقفراً تقريباً. اقترب شرطي المتنزه على حصانه وابتسم عندما رأى العاشقين. فكر غرانغ بأنهما بدوَا أيضاً حقيقيين جداً بالنسبة إلى الشرطي، يذكرانه ربما بشخص قد يكون هو نفسه.

سرعان ما جلسا على مقعد بالقرب من البركة. وبعد أن طاف بنظره بحذرٍ في أرجاء المكان، لمس برويّة مقدمة البطن الكبير، ابتسمت الشابة. ولسبب مجهول، زحف غرانغ واقترب من مقعدهما، تجرفه رغبة جامحة نحو هذه الحياة التي توشك أن تبصر النور، جذبته نظرة الحب المرتسمة على محيّاهما. خُيّل إليه على الأقل أنها نظرة حب. نسي جوعه لبرهة، وراقبهما يتبادلان القُبل في الغسق المتلاشي مع حلول الظلام. تبادلا قبلاً عذريّة، تتماهى مع الأبوين اللذين سيصبحانهما قريباً. أبوين لن يتزوجا قط ربما. لكن الشاب الذي غمرته أضواء مصابيح المتنزه المتألقة وغطت شعره الذهبي، أخرج من جيبه شيئاً فضياً. حمله بيده ولمع لبرهة تحت الأضواء. شع وجه الشابة الجالسة بهدوء وغيرة، لكن انتاب غرانغ شعور بأن مقلتيها ترقرقتا بالدمع عندما أدخل الخاتم في إصبعها. نطق بضع كلمات محمومة مُستبقياً يديها بين يديه، أشاحت بوجهها، وتحرك رأسها وشعرها القصير فوق جسدها الثقيل، ثم حدّقت به غير مصدقة. صرخت باكية: «لماذا؟». تناهت الصرخة الحادة الجارحة الصادمة للمرأة المخذولة إلى مسامعه. سمعهما يتشاجران الآن، حاولت الفتاة رمي الخاتم الفضي في البركة، منعها الشاب، ورمت أخيراً بحركة متشنجة الخاتم على الأرض ليقع بين أقدامهما. جلسا صامتين، من دون أن يأتيا بأدنى حركة لالتقاطه عن الأرض. ومن خلال الشذرات التي نجح غرانغ في سماعها، تبيّن أن الشاب متزوج. وبعد برهة، نهض الجندي متأهباً للمغادرة، وحاول تمرير شفتيه فوق جبينها. أطرقت رأسها.

بدا ممشوق القوام وشجاعاً وموقّراً في بزته العسكرية. ربما لهذا السبب ارتسمت على وجه الفتاة أمارات ازدراء واحتقار. لمح غرانغ علائم الازدراء عندما أشاحت بوجهها عن الشاب. رأى صورة جانبية لوجهها المحطّم

القاسي وقد أغلقت عينيها نوعاً ما. نقر الرجل على الخاتم بحذائه، تمتم كلمات مبهمة (ربما يخمّن قيمته) وأخرج محفظته بعد تردد. (هل أخبرته أنها سترمي أي خاتم يقدمه لها في البركة؟) لم ير غرانغ في حياته مثل هذا المبلغ، دس الشاب رزمة كبيرة في يد الفتاة الجامدة الخالية من أي حياة. لا بدّ أن دمعة سالت على الخد المتجه نحو غرانغ، لأن يداً بيضاء صغيرة ونحيلة مسحت بسرعة المنطقة المحيطة بعينها، ثم مسحت ذقنها.

همّ بالمغادرة وابتعد، لم تكن ترنو بنظرها نحو أي شيء، لا شيء سوى العدم. أشاحت نظرها عن البركة ثم عادت لتهبط على الأشجار والصخور القاسية العالية. حينما أضحى خارج مرمى نظرها، نظرت باتجاه المنطقة التي تلاشى منها، لكن الغسق خلّف هواءً فارغاً وراء آخر خط ظلال فضي رسمته قامته القوية. انفجرت باكية بصمت، ثم بدأت بالنحيب، وانهمرت دموعها غزيرة وسريعة، كما لو أنها مدفوعة باعتقاد راسخ أن الدموع هي درب موتها وخلاصها، وبوسع البكاء إيصالها إلى الموت، وإن لم يكن الموت، فليكن على الأقل إلى سبات طويل يمنّ عليها بالنسيان.

راقب غرانغ المشهد وهو يهبط من ذروة السعادة إلى قاع اليأس. كان المشهد أول حلقة إنسانية صافية من مسلسل يشاهده للمرة الأولى، أبطاله أناس بيض تخلّوا عن تبجحهم وأظهروا حاجتهم إلى مساعدة. انفطر قلبه شفقة على الشابة، وبنفس القدر على الجندي الذي لم يخلُ وجهه في اللحظات الأخيرة من البؤس والشقاء. السيدة التي ربما عادة ما تكون مزهوّة بنفسها، جلست الآن باكية من دون خجل، لظنها على الأرجح بأنها بمفردها. جلست هناك عارية، وقد صار بطنها الكبير قبرها، أو على الأقل هذا ما بدا عليه الأمر بالنسبة إليها، فقد دأبت بين نوبة بكاء وأخرى على الضغط عليه كما لو أنها ترغب بإخراجه ورميه في البركة.

عقد غرانغ العزم على التحدث إليها لتقديم أي عون ممكن بعد أن انتابه خوف من إقدامها على أذية نفسها جرّاء بكائها والبقاء لوقت طويل في هذا الطقس الصقيعي. غير أن الشابة، حينما اعتقدت على ما يبدو أنها ذرفت دموعاً كافية، توقفت فجأة، نظفت أنفها ومسحت عينيها. سيطرت

على نفسها تماماً واستعادت رباطة جأشها. استطاع بمشقة رؤية ملامح وجهها وقد لاحت عليها الآن صلابة متعجرفة جهدت على إخفائها طوال نصف ساعة. صار وجهها من ذلك النمط الذي يأبى أن تظهر عليه أي من علامات المعاناة. أيقن، حتى قبل أن يبصرهما، أن عينيها خاليتان من أي نبض، وأن شفتيها وخديها وتجاعيد وجهها التي ارتسمت عقب ضحكات قديمة فارقت وجهها منذ زمن بعيد، ستتولى أمر جميع تعابير الابتسام من الآن فصاعداً ولن تصل الضحكة إلى عينيها. ولم تكن آسفة على هذا حسب اعتقاده.

بدت في حالة كمون لا يمكن اختراقه، كمون مستأنس بظل ملاذ يقيها مزيداً من الألم، وأثار هذا شفقته أكثر من دموعها نوعاً ما. وفي الوقت ذاته، صعقه جَلَدها الصقيعي في وجه خذلان الحب لها بوصفها أميركية بيضاء على وجه التحديد. لن يخلّف حفظها لماء وجهها أي ندبات في روحها، فقد أظهرت افتقاراً لأي شعور بالشفقة على نفسها (وغرانغ يؤمن بقوة أن الذات تحتاج بين فينة وأخرى إلى شعور طفيف بالإشفاق على النفس) وهو ما عنى أنها تكترث بدرجة أقل بالمآسي الجوهرية التي يواجهها البشر. بدت بالنسبة إليه نوعاً من النساء اللواتي بوسعهن تربية تسعة أبناء ليكونوا وقود حرب يُقتلون في أتونها، ترسلهم تباعاً إلى حتفهم من دون أن تزهق دمعة واحدة أو يرف لها جفن، ثم تجمع تلالاً من الرايات والأعلام لتبرهن على شجاعتها وجسارتها.

ما الذي انتظر منها أن تفعل. لم يعرف حقاً. قفز مرتعشاً فوق السياج الذي شكلته الشجيرات الواطئة، وعبر حافة الجنبات. وقفت وهمّت بالمغادرة. الخاتم الفضي ما يزال مرمياً في الطين الباهت أمام المقعد. النقود التي تركتها بلا اكتراث تنسل من بين أصابعها. رفرفت الأوراق النقدية المطوية، لتكوّن كومة خضراء صغيرة زاهية. قاسى غرانغ الأمرين عندما لاحظ أن ذلك المبلغ سيُترك وحيداً وما زاد من ألمه أن النقود غير مزوّرة. (وما أقسى العذاب الذي يمكن لهذه الدولارات الخضراء أن تسببه!).

دأب على سرقة مال كثير ومن مصادر عديدة في نيويورك، وأضحت

السرقة بالنسبة إليه وسيلة طيّعة بين يديه، أمست مثل لغة ثانية يجيدها. اتبع حيلاً وسرد قصصاً تفطر القلب (لسوء الحظ أكثرها حدث بالفعل) كي يبتز ضحاياه (في حال ضُبط) وتَعلّم الدهاء والعنف. عانى سابقاً من تأنيب الضمير لكن معاناته كانت طفيفة فقط، أما في هذه اللحظة التي لا تعدو فيها السرقة أكثر من أخذ للنقود، فقد كبّله تماماً إحساس بالتردد لم يخالجه من قبل.

مشت المرأة لمسافة قصيرة بمحاذاة البركة والتقطت الخاتم والنقود، وبدأت بعدها. كاد قلبه يتوقف عن الخفقان من شدة الفرح عندما عدّ بعينين غير مصدقتين مبلغ سبعمئة دولار، مقسّمة على فئات المئة والعشرين دولاراً. ووسط هذا الحماس، زحف وقبع تحت المقعد، أسند رأسه إلى ظهر المقعد. كان على وشك الإغماء بسبب الجوع وبالكاد احتمل جسده الفرحة من دون أن يسقط مغشياً عليه. شعر بالدوار والغثيان، كزّ بقوة على أسنانه وأمسكت يده اليسرى بإحكام يده اليمنى. بدت النقود، مثل ضفدع ورقي ثقيل، على وشك القفز إلى داخل جيب معطفه، كاد وجيب قلبه يطغى على أي صوت آخر. اندفع للحظة ليتفقد السيدة، بيد أنه لم يستطع رؤيتها من حيث هو جالس، وتمكن عندما وقف على قدميه من رؤية أنها تقف على مسافة غير بعيدة عنه، بالقرب من حافة البركة العميقة وأنها في مهبّ الريح- ربما عيناه المتعبتان أوحتا له بأنها ترتعش. كان الهرب أول فكرة تخطر على باله، فكر بأن يطلق ساقيه للريح ليخرج من المتنزه بأسرع وقت تسعفه به فرائصه المرتعدة. وحسب أن بوسعه سماع صوت شرطيين على صهوة حصانهما يجوبان المتنزه بالقرب منه. لكن المشهد الذي رآه أثار مشاعره وحفزها، كان مشهداً حزيناً جداً ومثيراً للشفقة بلا حدود، ووجد نفسه غير قادر ببساطة على الاختفاء. عوضاً عن ذلك، وفي غضون لحظات، تحرّكت قدماه من دون إرادة منه نحو الشابة.

مع أولى تجارب التضور جوعاً، توقف عن التفكير بشعره الأشعث وهيئته الرثة، ولحيته الكثة ورائحة إبطيه وفمه النتنة. لم يفكر في احتمال نفور السيدة منه بسبب رائحة جسده الكريهة، أو أنها قد ترفض أي مساعدة يقدمها وضيع أسود ينبثق فجأة من حيث لا تدري. كان عليه التفكير بهذه

الأمور، هذا ما أسرّ به لنفسه لاحقاً، في الواقع، لم يخطر على باله حينها أن هناك أي فرق مهم بينهما، فالبؤس يوحّد جميع الكائنات ويجعلها متساوية كأسنان المشط. مدفوعاً بهذا المنطق، تبعها.

عدّ النقود بسرعة، رغب بإعطائها ثلاثمئة دولار، والاحتفاظ لنفسه بأربعمئة. كان لها أيضاً أن تحتفظ بالخاتم.

اقترب منها بحذر، ودأب على الالتفات للخلف من فوق كتفيه بين فينة وأخرى للتأكد من عدم وجود الشرطة في الجوار، توقف على بعد أربعة أقدام منها، وبدأ، على غرارها، بالتحديق في البركة. لم يكن متأكداً مما يتعين عليه فعله، اقترب تدريجياً، يدرس خطواته بتأنٍ وروية.

لم يكن مركز البركة قد تجمد بعد في تلك الفترة من السنة، فيما غطى الثلج حوافها. كان مشهداً مهيباً، جُرفت أوراق الشجر المتساقطة إلى حواف البركة لتتحول إلى طين مزركش، وحال الثلج دون اندماجها معاً. الأجواء العامة محبطة. الليلة رمادية وباردة، واقتصر ما منحته مصابيح الحديقة على النور، لم تبعث لا دفئاً ولا بهجة.

سرعان ما استشعرت وجوده لأنها وقفت في نفس اتجاه هبوب الريح. وضعت يدها بنعومة على طرف أنفها، ورمقته بنظرة نيويوركية نمطية، نظرة تأنف رؤية من تقع العين عليه، وتابعت مسيرها.

قال: «سيدتي؟»، لحقها ماداً يديه نحوها.

تظاهرت بعدم سماعه، لكنها اتجهت نحو منصة صغيرة في طرف البركة. وقف يراقبها، ممسكاً بالنقود والخاتم.

قال: «اعذريني يا سيدتي»، امتدت يده بحركة آلية لتنزع قبعته عن رأسه. «وجدت هذه بالقرب من المقعد وكنت أتساءل إن..؟»، شحب لونها، وحاولت عيناها حبس الاحتقان البارد لصرخة جاهزة تعلمت إطلاقها في مثل هذه الحالات.

«كلّا!»، صرخت صرخة قصيرة، رفعت يدها النحيلة وثبتتها في الهواء كما لو أنها تحاول إبعاده وضربه. «ليست نقودي»، أدارت له ظهرها فجأة، انتظرت مغادرته.

تصلّب الظهر الضئيل، لو لم يكن الطقس بارداً جداً، لأقسم غرانغ أنه رآها في لحظة خاطفة تستدير نحوه، وقد علت حمرة طفيفة خديها. توقف مرتجفاً بهدوء خلفها.

قالت بحدة بعد أن استدارت نحوه ورمقته بنظرة غاضبة تتفحصه من رأسه حتى أخمص قدميه: «أعطني النقود!». ناولها النقود، إضافة إلى الخاتم. وضعت الخاتم على الدرابزين وبدأت بعدّ النقود.

قالت: «هذا ليس المبلغ بأكمله، أريد المبلغ كاملاً! لن تأخذ قرشاً منه! قبل أن أسمح لك بأخذه، سأرميه في البركة!»، رمت ورقة نقدية من فئة العشرين دولاراً في البركة، انفرجت شفتاها المطليتان بأحمر الشفاه عن ابتسامة ماكرة وهي تراقب غرانغ ينقضّ غريزياً لانتشال الورقة النقدية من الثلج. عندما نهض خالي الوفاض، انفجرت ضاحكة وقالت: «انظروا إلى الرجل الكبير القوي»، وواصلت ضحكها.

امتعض غرانغ. كره سلالتها برمتها وهو يشاهد سيدة حاملاً، لم تتعلم أي شيء من ألمها، بلا حول أو قوة، عاجزة أمام كل شيء، غير أنها ليست عاجزة أمام شخص أضعف منها، تتلذذ بانتقام يقطع كل جسور التعاطف المحتملة بينهما.

وقفت مثل بقرة شقراء ضخمة مؤلّهة. لم تكن جميلة، وإنما نسخة عن الجمال القياسي المتعارف عليه. كانت مهجورة، ورغم ذلك تظن نفسها مرغوبة ومحط اهتمام دائم. لم تكن متعالية، ولكن حسبت نفسها أفضل منه بكثير.

قالت محذّرة: «أعطني النقود أيها الزنجي»، اقتربت منه. عجز لسانه عن التحرك للنطق بكلمة واحدة، كان حانقاً جداً.

فكر متجهماً: إن لمستْني، سأبقر بطنها وأخرج ذلك الجنين الشقي الأبيض! راقب الوجه الأبيض الشفاف يقترب من وجهه. شعر فجأة، كما لو أنه مسرنم، بألم حاد في الجزء الذي يعلو كاحله. كان عليه النظر إلى وجهها المتغضن وعينيها الخاليتين من أية شفقة ليصدق أنها ركلته.

دقت آلاف الطبول خلف صدغيه. كان حلقه جافاً. عيناه الغائمتان

جرّاء الجوع والإرهاق حمراوان كعيني ذئب، وبضربة واحدة دفعها لترتطم بالأرضية الحجرية للمنصة. شرعت بالصراخ، بينما أمسك بها من كتفيها وبدأ يهزها لتتمالك نفسها وتتمكن أخيراً من الوقوف على قدميها. الجوع قصّر فترة غضبه ولم يستطع ضربها. عاش مجدداً إحباطاته القديمة المقيمة عندما وقفت أمامه وبدأت بنعته وشتمه بمنتهى البرود. لم تكن خائفة منه. بدا إصرارها على نعته بالزنجي أمراً غير واقعي على ضوء تحديه لها وتهديده لحياتها.

حاولت المرأة بعد أن وقفت بثبات مجدداً على قدميها أن تقفز من المنصة إلى العشب. كان واقفاً أمام الدرج ولم «تكلّف نفسها» عناء سؤاله إفساح الطريق والابتعاد. عرفت ضعفه أمام صرخة واحدة تصدرها، ولم تهبه بقدر ما ازدرته. بوسعها استدعاء الشرطة وسيتولون مهمة استعادة النقود منه، وتلقينه درساً أيضاً. ولعجزها عن تقدير المسافة ومدى ثقل جسدها، وقعت على ثلج البركة. وقف غرانغ صامتاً وجامداً، لكنه سرعان ما سابق الزمن ليصل إلى الدرجات السفلية عند ضفة البركة وحاول انتشالها. في جزء من الثانية، تذكر كم ضحك عندما أقرّ جده بمساعدة «أسياد» و«سيدات» بيض وانتشالهم من منازل تلتهمها النيران. أدرك الآن أن إنقاذ حياة أحدهم والمحافظة عليها أمر غريزي، لا علاقة له بهوية الكائن الذي تحاول إنقاذه. مدّ يده وكاد يلمسها. مدت يدها البيضاء الصغيرة وأمسكت بيده، لكنها سرعان ما أفلتتها عندما أدركت أنها يده. سحب غرانغ يده السمراء المتسخة ونظر إليها. صارعت السيدة لتتسلق ضفة البركة مواجهة الصقيع والثلج، لكن الصقيع مزّق ملابسها، وعلقت في الوحل الموجود بالقرب من الحافة المنحدرة، وانغرزت أقدامها في الوحِل. عندما مدت يدها مجدداً نحوه، تأملها جيداً، ابتعد، وعمد على عجل إلى جمع النقود المبعثرة. غرقت في نهاية المطاف. ظلت تنعته بـ «الزنجي» حتى وهي تلفظ أنفاسها المقرفة الأخيرة.

أثناء خروجه من المتنزه، رأى رجلي شرطة على صهوتي جيادهما يتجهان نحو البركة.

«اخرج من المتنزه، *أنت!*»

«أليس لديك ما تفعله أفضل من البقاء في المتنزه في مثل هذه الساعة من الليل؟»

ضحك الرجلان ساخرين.

كثيراً ما فكر بالمرأة، في الحقيقة، طاردته وطارده بطنها الكبير. لو كانت مكانها امرأة أخرى (أو حتى عاهرة حامل) لربما انتشلها إلى بر الأمان متغاضياً عن خوفها منه أو احتقارها وكرهها له، أو بصرف النظر عن أي شعور عدائي قوي تقابله به. لكنه واجه تمنّعه عن إنقاذها من دون مواربة. احتقارها له كان القشة الأخيرة، لن يكترث بعد الآن لما يحدث لهم. ربما كانت الوحيدة بينهم التي حكم عليها بالموت. صحيح أنه قتل في ذهنه ألفاً منهم، عشرة آلاف، بلداً بأكمله، بيد أنها كانت القتيلة الأولى، وربما القتيلة الحقيقية الوحيدة.

فكر بينه وبين نفسه أن موت السيدة كان جريمة قتل موصوفة، إدانة روحية، ولكن موتها، بطريقة غريبة وعجيبة، حرره. شعر بشكلٍ أو بآخر بأنه استردّ دَين حياته التعيسة. كان سلْب حياة تلك السيدة البيضاء- وسلب حياة ذلك الطفل حتى قبل أن يولد- وليس سلب المال وسرقته، هو ما خلق في داخله الرغبة بالعيش مجدداً. آمن أنه، وبما يخالف إرادته، تعثر بالجرم اللازم الذي يتعين على الرجال السود ارتكابه لاستعادة وبناء فحولتهم واعتزازهم بذاتهم. يجب أن يقتلوا مضطهديهم.

لم يكفّ يوماً عن الإيمان بهذا، وزاد على هذا الإيمان بعد عدة سنوات بأن المرء إن أقدم على القتل، فيتعين عليه ألا يتهرّب من الموت عندما يحين دوره. واكتشف أن هذا هو الجزء الأصعب، لأنه بعد تحرير فحولتك المضطهدة عقب قتل مصدر اضطهادك، تجتاحك رغبة جامحة لعيش الحياة حتى آخر رمق!

بعد مغادرة المتنزه تلك الليلة، انتظر النهاية. كان جاهزاً وغير جاهز في الوقت ذاته. شعر بقلبه ينبض بالحياة وبأنه منعتق للمرة الأولى في حياته. رغب برؤية ألف غد! وربما لأنه قتل المرأة ولم يقتلها (هي من قررت رد

اليد التي امتدت لمساعدتها خائبة، هكذا سوّغ لنفسه)، لم يعرف إن كانت حياته مطلوبة أم لا. لكن استعداده للموت أراحه جزئياً. بوصفه آثماً، بعد رؤية وجه الله، وكان حينها مستعداً مباشرة للقائه، لم يرغب بأن تزعزع ظلال ماضيه القذر وأذرعه إيمانه.

صرخ بأعلى صوته في شارع هارلم: «علمهم الكراهية!»، تلألأت عيناه بدينه الجديد. «علمهم الكراهية، إن أردت لهم الخلاص!».

استدارت الأمهات اللواتي يعبرن بتثاقل جادة لينوكس ولحق بهن عشرات الأطفال السود، نظرن نحوه بعيون يائسة. سخر الأطفال منه كما لو أنهم فهموا الفحوى المعقد المسلي الذي ينضوي عليه الأمر برمته.

قاطع قداديس تحتضنها كنائس مشيّدة ضمن متاجر.

صرخ: «لا تعلمهم محبتهم! علمهم كراهيتهم!»

الواعظون السود الخائفون، والأخـوات الشاحبات المصبوغات بالمساحيق (اللواتي يرتدين شعراً مستعاراً رخيصاً) نظروا إليه بتعالٍ مذعور.

صرخ الواعظ: «اطردوا ذلك السكّير الآثم أيها الشمامسة!». طفيليات!

هرع الشمامسة المتابعون للمشهد إليه معتذرين، شمامسة ذوو أيادٍ ورعة يضربون بها زوجاتهم حتى الموت إن عجزوا عن إطعامهن.

سألوه برقة: «هل أنت ثمل يا أخي؟»

«من الأفضل لك أن تنام!»

لا أحد منهم يجني المال الكافي لإطعام أولادهم اللحم على مائدة عشاء يوم السبت.

همسوا له: «أحبوا جيرانكم. أحسنوا إلى مبغضيكم».

همس غرانغ: «لقد أحببناهم»، ارتفع صوته ليعلو فوق النغمات الحزينة لآلة الأرغن التي تعزف في الكنيسة. «نحبهم الآن، وبعون الله يقتلوننا! لقد قتلوكم بالفعل».

سار الشمامسة برفقٍ معه إلى أن وصلوا إلى آخر الشارع، وحثوه بكلمات رقيقة على إدارك الموعظة مما يجري. كرههم غرانغ وانتابه إحباط شديد. لم يعد عليهم حبهم لجيرانهم البيض في الشمال ولا في الجنوب إلا بالمزيد

من الرؤوس المهشمة والأطفال المتفحمين. لكن هل جرؤوا على البحث عن سبب كرههم لأنفسهم ومشاعر الغضب التي يكنونها نحو أولادهم؟ كلّا لم يبحثوا.

صرخ من ركن في الجادة السابعة: «كرهنا لهم سيوحدنا يوماً ما. الكره هو الدافع الوحيد الذي سينجح في توحيدنا. نكرههم في أعماقنا على أي حال. كل ما أفعله هو إشهار هذا الكره والتصريح به على الملأ وتعليم الصغار كيف يكرهونهم. إن زرعتم الكراهية في قلوب الصغار، فلن يتعين عليهم تعلمها في المدرسة بعد تجارب أليمة».

قال له أحدهم: «للكراهية آثار سلبية على عقل الإنسان».

قال غرانغ: «الإنسان لا يعيش مع عقله فقط. يعيش مع فمه ومعدته. يعيش مع كبريائه ومع قلبه. ذلك الإنسان يحتاج إلى أن يأكل. يحتاج إلى أن ينام. ذلك الإنسان يحتاج لأن يلتفت إلى حياته. إن استطاع الحب تأمين كل ذلك له، فلنمضِ قدماً ولندع الأمور تسير على هذا النحو، لكن الحب لم يعد علينا بأي فائدة طيلة هذه السنوات. لو كان الحب يعود بأي فائدة على عقول هؤلاء المدمنين على المخدرات ذوي الحناجر المقتلعة والمعلقة هنا على طول هذا الشارع فقد تأخر كثيراً في فعل ذلك- في ذمته العديد من المدمنين وممن اقتُلعت حناجرهم، وليسوا جميعهم أطفالاً!

«تودون مواصلة تعليم أطفالكم العقيدة المسيحية التي جاء بها مسيح أبيض، واصلوا ما تفعلونه، لكن عليّ أنا وعليكم أنتم لاحقاً الانتقال إلى الإيمان بشيء جديد! ونظراً إلى أن الكراهية هي ما ستنمو في قلوبكم، فالكراهية حتماً هي ما ستجنونه، لكن كراهية الجهة الصحيحة هذه المرة!».

كان أشبه بأسد مروّض عرف أخيراً طعم الدم. لم يعد هناك أي سبب يؤخر تمرده ضد أشخاص ليسوا بآلهة. عدوانيته، التي فرّغها في زوجته فقط، وابنه وأصدقائه المقربين، كشفت الآن عن وجهها أمام العالم العدائي الحقيقي. وفي غضون أسابيع عقب الحادثة التي جرت في البركة، خاض في حي هارلم وما حوله المزيد من الشجارات مع إيطاليين وبولنديين ويهود (جميعهم من البيض، لم يفهم الاختلاف بين ثقافاتهم، وإن «تصرفوا على

أساس أنهم بيض»، كان يلكمهم على أنوفهم!). فاق عدد الشجارات التي خاضها حينها مجموع كل ما خاضه من شجارات منذ قدومه إلى الحي. وفي هذا الشجار أيضاً، تذوق حلاوة الدفقة العذبة للدماء التي تتحرك بفعل قوة غيظها الخاص لتكشف عن حريته ورجولته. كل وجه أبيض ضربه، ضربه باسم زوجته الجميلة.

لكنه سرعان ما أدرك أنه عاجز عن خوض شجار مع كل أبيض يلتقيه، كما أنه فقد الاهتمام بفعل هذا مع مرور الوقت. سادت لديه قناعة بأن على كل إنسان أن يحرر نفسه بنفسه، وبالطريقة التي يجدها مناسبة. في هذه المرحلة، سينأى بنفسه تماماً عنهم، سيبحث عن ملجأ وملاذ، ويبني حياة لا ضرورة فيها للتعامل معهم، ويكون دائماً متأهباً، طالما هو على قيد الحياة، للدفاع عنها وحمايتها، وإبقائها بعيداً عن البيض، من دون أن تُدنس.

وهكذا عاد أدراجه إلى مقاطعة بيكر، لأنها كانت وطنه، وإلى جوسي، لأنها الشخص الوحيد في العالم الذي أحبه، ولأنه احتاج مالاً أكثر مما يملك لشراء الصخرة التي ستحمي ملجأه.

استغل حب جوسي التي عاشت طويلاً على أمل حبه لإقناعها ببيع نزُل «قطر الندى» الذي كان مصدر رزقها الغالي على قلبها. واشترى بماله ومالها مزرعة بعيدة عن البلدة وعن الطريق الرئيسي، تقبع خلف أشجار الصنوبر والبلوط. زرع القمح ليأكل مما يزرع، عتّق النبيذ ليشرب مما يخمّر، عالج اللحم ليتناول لحماً مدخناً. أضحى حراً أخيراً.

لكن توجب عليه دفع ثمن حريته. فقد وجد نفسه عالقاً مع جوسي التي اكتشفت يوماً بعد يوم أنها وقعت مجدداً ضحية استغلال الرجل، وأنها أضحت منبوذة حالما نال مراده ووصل إلى مآربه. أساء معاملتها، ضايقته الفكرة وبدأت أخيراً تجبره على أن يقدّرها حق تقدير للمرة الأولى في حيَاته. كان قلبها كبيراً، كانت كريمة، قادرة على الحب برغم كل ما عانته في حياتها، وكل الإساءات التي تعرضت لها. بيد أن روث دخلت حياتهما لاحقاً، لتقطع حبل حبه المتطاول لجوسي، وقبوله لطيبتها المتأصلة وهيامها المتجذر. أما روث فكانت في أمسّ الحاجة إليه، طازجة تماماً وبريئة بطريقة

لا تقاوم، على خلاف جوسي ويا للأسف. وجد نفسه منشطراً بينهما، يرغب بأن يكون سلوى وعزاء لرفيقته القديمة، لكنه يشعر بمسؤوليته إزاء رفيقته الجديدة. ثم جاء براونفيلد، مجدداً. ورغم أنه سامح جوسي في السابق (صحيح أنه سامحها بدافع الجشع والمنفعة الشخصية وليس بدافع الحب) على علاقتها مع ابنه، فإنه لم يعرف إن كان بوسعه مسامحتها ثانية. سعت جوسي وبراونفيلد للانتقام من تجاهله لهما، لكن حتى في هذا الأمر، لم يكن الذنب ذنبه؟

قالت روث بينما انحنت لالتقاط الأرنب من الفخ: «لستَ أنانياً. لم تسرق قط. حتى الشتائم التي تطلقها غير مؤذية». ضحكت عندما أخذ جدها الأرنب منها، شعرت بضآلته وسمحت له بأخذه. «أعرف أنك لا تحب قتل أي كائن، حتى لو كان ذلك من أجل أكله».

قال: «لم يكن من الضروري يوماً قتل أحد لإثبات شيء ما. لكن يعجز البعض عن أن يكونوا شرفاء كي يعيشوا».

واصلت روث الضحك. «تبدو طويلاً جداً ومظهرك بالغ الخشونة وأنت تنتعل هذا الحذاء الضخم وتحمل بندقيتك الطويلة». احتضنت ذراعه بعفوية. «لكننا نعلم أن قلباً رؤوماً يغفو بين جوانحك، أليس كذلك؟».

أيقن غرانغ أنه لن يخبرها أبداً عن ماضيه، عن المرأة الحامل وعن محاضراته حول الكراهية، لن يخبرها قط أنه أقدم على سرقة نساء عجائز وطلاب مهيضي الجناح لشراء ما يسدّ به رمقه. لن يخبرها يوماً عن كونه مذنباً ارتكب كل خطيئة تخطر على بال، ومنها الأنانية، أو أن قلب جوسي كان أنقى من قلبه حتى وهو في ذروة نقائه. لن يخبرها يوماً عن أن الأرض التي تقف فوقها، والتي ستؤول إليها يوماً ما، ابتيعت بالدم والدمع. لن يخبرها يوماً لأنها قد تصدقه، ولأنه مع روث لُقّن درساً لا يقدّر بثمن حول الكراهية، كان بوسعه تعليم الكراهية فقط من خلال الإيحاء والإلهام. كيف له أن يدنس براءتها، وقتل طزاجة نظرتها، وتعتيم إشراقة عينيها المتعطشتين للمعرفة؟

كان الحب على الأقل شيئاً يجعل المرء فخوراً بأنه أحب يوماً. الكراهية

تسربل البشر بالعار، كما هو حاله الآن، يشعر بالعار أمام ثقة وإيمان الصغار في السن.

بادر بالقول: «الأفعال الشائنة التي اقترفتها. فكري بي بعد رحيلي بوصفي جباناً كبيراً خشن الطلعة، تعلم حب نفسه فقط بعد أن عاش ثلاثين سنة غريبة. ثم ضاعفي هذا الوصف لعدة مرات».

لم يكن لها أن تعرف قبل مرور وقت طويل بأن جدها، بالهيئة التي تعرفه عليها، اختبر ولادة جديدة. لم تعرف بحق، حتى بعد موته، حجم الوحشية والدماء التي رسّخت تسامحه وقوته. وحبه.

الفصل الثامن

-38-

عقب جنازة ميم، التي سُمح له بحضورها بعد تكبيل قدميه ووضعه تحت مراقبة سجان أحمر الوجه يرتدي حذاءً متسخاً، فكر براونفيلد بقلق وإنما من دون ندم بما اقترفه. لكنه لم يقوَ قط على التفكير إلا بنفسه ولم يستطع رؤية الأمور خارج إطار ذاته. *أحب النسوة الممتلئات*. كان هذا أقصى ما أمكنه الخلوص إليه بعد مكاشفاته الأخلاقية. قتل زوجته لأنها أضحت نحيلة ولم يستعد جسدها امتلاءه السابق حتى بعد أن أحسن إطعامها، مما استفزه وأثار حنقه. لم يكن أحمق ليطرح على نفسه سؤالاً حول مدى منطقية عصبيته. فقد عرف تماماً ما كان يجذبه ويعجبه.

طاردته الأيام التي كان فيها جسدها ممتلئاً، تماماً مثلما طاردته فطيرة العليق في صباه، حينما كانت شتى أنواع الفطائر شحيحة وبعيدة المنال. دغدغه توق لما أضحى الآن سراباً بل وأكثر من سراب. حنّ لأيام الرخاء، عندما كان بوسعه تأمين طعام كافٍ.

بدت الأفكار المتعلقة بامتلاء الجسد والتحرر من الأرض ومن الأبقار والنحول، وصورة وجهها عندما عرفها للمرة الأولى في نزُل «قطر الندى» أفكاراً ذات خصائص أحادية البعد، تتطابق مع ذكرياته حول الفطائر وزجاجة الويسكي. استطاع نسيان حقيقة شخصيتها وجوهرها، وقزّم معدنها إلى مجرد مقارنات. كانت مثل فطيرة طيبة أو ويسكي جيد، لم يكن لها قط ذاتٌ مستقلة لأنه لم يعد لها مكان في داخله. صارت ميم الميتة أسطورة بحد ذاتها، فتاة ممتلئة جميلة وقع في

حبها، ولكنها تغيرت أمام عينيه لتصبح عجوزاً شمطاء، تصرخ في وجهه وتدفعه للشعور بأنه شخص وضيع.

لو تسنى لها إبقاء سيطرتها عليه، لما كانت ربما ميتة الآن، لما صارت تمثالاً مصغراً في ذهنه، لكن ضعفها الموروث مغلّفاً بشكلها ومظهرها الذي بات أشبه بمظهر عجوز شمطاء بائسة مفتولة العضلات، دفعها للخجل من نفسها ومن قوتها الظاهرة. وبسبب افتقارها إلى القوة الكافية لتفجير مؤخرته اللعينة وتمريغه في قيئه، خسرت. التسامح كان نقطة ضعفها، إيمانها الغبي بأن اللطف والرقة قد يلينان الحديد ويغيّران الخصم. كان كلاهما على المسافة نفسها من الخطوة المنطقية التي تلت ضربة البندقية على رأسه وكانت الكرة في ملعب كليهما. هنا بالضبط خذلتها عزيمتها وشكيمتها التي تستحق علامة عشرة من عشرة. أما هو فقد نجح، من دون أن تكون العزيمة دافعه، وإنما فقط ذكرياته عن الإذلال والخنوع، باستعادة ما سرقته صباح يوم السبت ذاك، عندما قبع تحت قدميها وسط بركة من القيء. تبيّن أن القصاص الذي استنبطه لها لم يكن كافياً. حسبت أنها بهجرها له تستطيع هزيمته مجدداً. وحذرها من مغبة محاولة ذلك، أنذرها مما سيفعله. نظر إلى نفسه على أنه رجل عند كلمته، ينفذ ما يقول، وقد كان عند كلمته بالفعل. صارت كلمته المهمة التي يتعين عليه إنجازها.

بيد أنها لم تكن سيدة ممتلئة وهو لا يحب النسوة النحيلات. عندما تكون النسوة نحيلات بهذا القدر، فهذا يعني أنه ثمّة خطأ ما، وأن الرجال لا يُحسنون معاملتهن. وهو لا يرغب بأن يعرف أي شيء عن مكمن الخطأ.

-39-

أخبرته جوسي أن روث تعيش الآن بسعادة مع غرانغ. جن جنون براونفيلد عندما عرف أن والده سيتابع تولي مهمة تربية ابنته. أخذ والد ميم كلاً من أورنيت ودافني إلى الشمال، لكن براونفيلد لم يكترث لأمرهما بقدر اكتراثه لأمر روث. تخلى عن المطالبة بهما بعد أخذهما إلى الشمال، ليقينه بأنه لن يذهب أبداً إلى الشمال لاسترجاعهما. خلال قضائه فترة محكوميته في السجن لمدة عشر سنوات مع الأشغال الشاقة، تعين عليه جز المروج وزرع الأشجار لخدمة السجانين والقضاة والشخصيات الاعتبارية في مقاطعة بيكر (رغم أن بوسعه الحصول على إطلاق سراح مشروط بعد سبع سنوات)، وخلال هذه الفترة، انتابه شعور استثنائي غير مسبوق. لقد أحب الجنوب. وأدرك أن حبه للجنوب ناجم عن عدم تفكيره جدياً بمغادرته. شعر بأنه يفهم الجنوب جيداً، وأن طرائق العيش في الجنوب لا تحيره على الأقل. كان الجنوب أرضاً حلوة وعنيفة وعصية على الفهم، طوّع نفسه ليتأقلم مع قوانينه الخاصة. كانت الحياة تحت وطأة قساوة الطبقية قائمة بشكل أساسي على التعتيم والحظ. لا يشعر المرء بأنه الوحيد من يقترف المعاصي. ينزلق الشعور بالذنب كقطرات تتحرك في كل مكان مثل الطحالب المتعرشة على الأشجار. لا قانون عقوبات ينص على العقوبة التي تنتظر المدان، ويختلف القصاص من شخص إلى آخر حتى لو ارتكبا الجريمة عينها. صُممت العقوبة بما يلائم كل إنسان على حدة وليس بناءً على الجريمة. كانت كل عقوبة بمنزلة عقوبة فردية تختلف باختلاف مرتكب الجريمة.

وإن لم يتفرد المجرم في جريمته، فإنه يتفرد في العقاب الذي يطاله. انطبق هذا على براونفيلد. عنى القصاص بالنسبة إليه أن المرء بوسعه القصاص من أعدائه بتعذيب أي شخص يختاره. للمرء حق اختيار نوع القصاص، ولا يُسمح لأحد بالتدخل.

كان هناك في السجن مع براونفيلد قتلة وقوادون ولصوص سيارات وسكارى وأبرياء، لا تتناسب الأحكام التي صدرت بحقهم مع الجرائم التي ارتكبوها. أُودع شاب في السابعة عشرة من عمره في السجن لسرقته أغطية عجلات السيارات، وحُكم عليه بالسجن لخمس سنوات، فيما منحت المحكمة إطلاق سراح مشروط لقاتل بعد مرور ثلاث سنوات من سجنه، تعرّف براونفيلد على القاتل عن كثب، لم يكتفِ القاتل بقتل زوجته فحسب وإنما قتل حماته وخالة زوجته أيضاً بثلاث ضربات فأس قاضية. وقبل إطلاق سراحه، عمل بوصفه وكيلاً قانونياً، وقبلها أُتيح له الخروج من السجن للذهاب إلى الكنيسة كل أحد وقضاء بضع دقائق مع امرأته كلما اشتعلت نيران رغبته. لعب البوكر مع السجانين في عطلات نهاية الأسبوع. لم تخضع الأحكام القضائية لقانون معين، وانسحب هذا على براونفيلد أيضاً.

قطب براونفيلد حاجبيه أثناء تشذيب نباتات القرانيا والمغنوليا والميموزا النامية فوق مساحات واسعة من العشب النضر، واستاء من وقاحة والده وإقدامه الجسور على العناية بابنته. تضايق من سكينة غرانغ ورخائه. ورغم أنه لم يحب غرانغ، لازمه اكتئاب دائم جرّاء فكرة أن والده لم يحبه حقاً قط.

تعلّم براونفيلد القراءة والكتابة على نحوٍ لا بأس به أثناء وجوده في السجن. وفي أحد الأيام قرأ اسمه بينما كان يقرأ تقريراً في الصفحة المخصصة للملونين حول جريمة قتل ميم. وفي غفلة منه، قرأ المقال بأكمله وانتقل لقراءة مقالات أخرى. أخبره القاتل السفاح الذي استخدم الفأس لقتل ضحاياه، والذي أضحى صديقه، أن الأمر ذاته حدث معه. كما قال إنه في يوم محاكمته، دست امرأته بعض الصحف في يده، قائلة:

«انظر، صورك منشورة!»، أرادت إدخال السعادة إلى قلبه لأنها حسبت بأنه سيُعدم على الكرسي الكهربائي. أخذ السجانون الصحف قبل أن يحظى بفرصة إلقاء نظرة عليها، لكن أحضرت له امرأته لاحقاً صحفاً غيرها إلى السجن، ليحتفي، حسب قولها، بتخفيف حكمه. غمرت السعادة كليهما لدى رؤية صوره في الصحف! جلس لساعات يتأمل بجذلٍ صورته القبيحة الكبيرة التي غطت الصفحات، وقال إنه في غمرة توقه لمعرفة ما كُتب عنه، بدأ بقراءتها. لم يستطع تذكر أين تعلّم الأحرف الأبجدية. في طفولته، قرأت والدته له كتاب صلوات صغيراً للأطفال. كان هذا التعليم الوحيد الذي تلقاه، حسبما تسعفه ذاكرته.

ارتاد الفتى الذي سرق أغطية عجلات السيارات المدرسة الثانوية وتعلّم القراءة على نحوٍ جيد. تلقّى براونفيلد والقاتل السفاح دروساً على يد الفتى وأطلقا عليه اسم الأستاذ الجامعي. ذات يوم، وبينما كان براونفيلد يقرأ اسمه وعمره ورقمه في السجن في ملحق إحدى الصحف، صُعق لإدراكه فجأة أن ميم نجحت بالفعل في تعليمه القراءة والكتابة، وأنه بشكلٍ ما نسي أيامهما معاً، ليس هذا فحسب، وإنما نسي ما علّمته إياه أيضاً. تعجب من الأمر، وحدّق مطوّلاً في يديه، وخرجت من صدره تنهيده موجعة، مزقت صدره وألقته أرضاً.

غير أن الدموع لم تخفف عنه، ولم تدفعه لتحليل حياته أو جريمته. كان بكاؤه جزءاً من الحياة التي أفضت إلى جريمته، ولم يخلق البكاء في نفسه إلا شعوراً بالوحدة. ألقى التأمل ظلاله الثقيلة على قلب براونفيلد، ولهذا أقلع عن التفكير قبل أن يتورط أكثر، إذ إنّ جزءاً يسيراً من التفكير العميق أفضى إلى إدراكه لمدى ضياعه، فما بالك لو أمعن التفكير! وفي السجن، انتابته رغبة لرؤية جوسي ووالده وحتى والدته.

رغب برؤية روث، وخالجه خوف غامر من الوحدة. اعتقد أنه يفوق السجناء الآخرين في فهم سيرورة خلق الله للكون عندما وجد الله نفسه وحيداً، وكيف أداره بحيث تكون للإنسان ذراعان ولسان واحد.

كتب «ابنتي» بخط يدٍ بدائي مولياً تركيزاً كبيراً على شكل الأحرف. و«ليتني أرى غرانغ أيضاً». لم يخفِ هذه الكلمات، كتبها على أغلفة الحلوى وعلى الصحف والجرائد وعلى قصاصات ورقية نبشها من القمامة. استشعر بالكلمات تمتد وتتطاول، لتغدو علامات واضحة تدل على كينونته ووجوده وخطته.

تحدث براونفيلد والقاتل السفاح أحياناً عن دوافعهما في الحياة. اعتادا مشاهدة التلفاز في سهرات السبت، وسمعا كلمة «دافع» للمرة الأولى من المسلسل التلفزيوني «دراغنيت». قال براونفيلد إن الدافع الذي زجه في السجن كان رغبة محمومة لرؤية إن كان باستطاعته السيطرة على نفسه. لكن مهما اختلفت الطرق التي شاء اتباعها فقد قال إن ثمّة قوة خفية دفعته نحو الاتجاه المعاكس.

«لم أرغب يوماً بأن أكون مزارعاً أجيراً، لم يرق لي قط العمل لدى أي شخص، أزعجتني رؤية البيض يحشرون أنوفهم في حياتي، فيما أنا بلا حول ولا قوة».

قال القاتل السفاح: «صحيح، يا الله، أفهم ما تقصده بالضبط»، كان السفاح كاهناً قبل أن يتزوج إحدى مريداته التي غيرت دينها، ليبنيا معاً عائلة. لكنه اكتشف بعد فوات الأوان أنه عاجز عن إطعام زوجته وأهلها إن عمل وفق ما ورد في الإنجيل. سلبه الزواج بزته السوداء الجميلة وكان عليه استبدالها بسراويل عمال مُثقلة بالعرق وبغبار حقول عمل بها ولن تصبح ملكه أبداً. فهم قصد صديقه لأنه صارع بنفسه قوة غير مرئية. لكنه خلص إلى أن القوة غير المرئية هي الله، ولهذا قتل زوجته وأهلها. كانت هذه طريقته في فصل مساره عن مسار الله.

«راودني شعور أشبه بالشعور الذي يخالج هذه الكلمات المكتوبة في الصحيفة أي الإحساس بأن كل شيء مُقدّر مسبقاً. السطر يقرر سلفاً، ولا يسع الكلمات سوى الإذعان والطاعة فلا تتزحزح يميناً أو يساراً، على غرار بغال وضعوا غمامة على أعينها. تصطف هذه الكلمات بعضها

خلف بعض حتى نهاية الصفحة». نظر براونفيلد إلى صديقه وقد طفت على نظرته مسحة من الابتهاج، بينما واصل طرق الصفحة بإصبعه. «فكر بشعور هذه الكلمة إن تحركت إلى يمين السطر واختارت لنفسها مكاناً آخر هنا!». تأمل الرجلان قوة الكلمة المتحركة التي تمتلك حرية قرارها. أومأ السفاح موافقاً.

قال: «لطالما راودني شعور بأنني حذاء، جزمة يضرط الناس عليها، لا تعدو كونها مداساً للأقدام. اعتدت وضع حذائي فوق الرف في الخزانة للتعبير عن شعوري. لم أسمح لزوجتي أو لأمها النقاقة المخاطية بتغيير مكانه وإنزاله إلى الأرض».

قال براونفيلد: «صحيح، تحسب أن أكثر الناس لا رأي لهم حيال ما يحدث معهم، تماماً مثل زوج أحذية أو بضع كلمات سوداء عاجزة عن تغيير مكانها في الجريدة مهما عظُمت دلالاتها. لماذا نحن فقط دون غيرنا ندرك حقيقة أننا بشر؟».

ضغط براونفيلد على قلم الرصاص وكتب «بشر»، ثم انتظر بيأس أن تنهض الكلمة وتضرب صدره.

قال: «حسناً، هذا ما نحن عليه». نظر إلى السفاح وابتسم.

-40-

لم يجد براونفيلد غضاضة في استغلال ألم جوسي. فوجئ عندما زارته للمرة الأولى في السجن لكنه سرعان ما أضحى قادراً على قراءتها مثل كتاب مفتوح. تخلّت جوسي عن البوح بما يعتمل في صدرها إلى الله، لم تعد تعترف بخطاياها إلى الكنيسة، توقفت عن تلاوة الصلوات أو إخبار العرّافين بمتاعبها ومكابداتها، وبات باستطاعتها فعل كل هذا في السجن.

واظبت على زيارته عصر أيام الآحاد حين كان يُسمح للسجناء بالجلوس تحت الأشجار. تجلس على طرف طاولة صغيرة، وبراونفيلد على الطرف الآخر. على مدار أشهر وسنوات، أسرّت بما يثقل كاهلها إلى براونفيلد الذي أصغى لها بتعاطف ومكر، وقد ظهرت عليه أمارات اهتمام كتلك التي ترتسم على محيا كاهن.

أنصت لشكواها حول تجاهل والده لها، ووله غرانغ التام بفكرة المحافظة على البراءة، وإذعانه الأعمى لروث، وتعامله معها كما لو أنها معجزة، وشيء يحتل مكانة رفيعة عنده، ويتمتع بمنزلة عالية في كبريائه وروحه، وفي توقه للحياة.

قالت جوسي وهي تفرك يديها ببعضهما بتوتر: «لا يدرك حتى أنني *على قيد الحياة*. يظلان معاً طيلة اليوم، بينما أصلي وأنتظر أن يمنّ عليّ *بكلمة واحدة*..».

أنصت براونفيلد والشفقة تطفو على وجهه. أخذ إحدى يديها وأراحها بين يديه.

قطع لها وعداً قائلاً: «عندما أخرج من السجن سأريحك منها». لكن جوسي فزعت.

«إن حرمته من تلك الفتاة فكأنك تحرمه الهواء الذي يتنفسه. لن يعيش بعدها لأكثر من أسبوع! أقول لك إنه *يحبها*!».

قال: «جوسي، هل تدركين أنك *حمقاء* لأنك تولين أهمية له إن عاش أو مات؟».

قالت وهي تسحب يدها من يده: «لا تقل ذلك!».

قال: «حسناً، لا بأس. لا تغضبي». فكر في تعلّق والده بروث وطريقة الانتقام المثالية التي سيتبعها إن خرج من السجن.

نظرت إليه جوسي بتوجس. «إن واصلتَ حديثك عن والدك بلؤم، لن أعود إلى هنا مجدداً. يحبني، والدك يحبني، *أعرف* أنه يحبني. لا يقوى على مقاومة ما يحدث بينه وبين روث. لكنه سيثوب ذات يوم إلى رشده، وحينها سأكون إلى جواره أنتظره بفارغ الصبر. لا أستسيغ فكرة أنه من *المستحيل* بالنسبة إليه أن يحبنا نحن الاثنتين!».

سأل براونفيلد: «لنفرض أنه لن يعود أبداً إلى رشده، ما موقفك حينها؟».

رنت جوسي بعينين غائمتين نحو الفناء، وقالت: «سيعود لي، لا بدّ وأن يعود لي».

مرت الأشهر، وسألها براونفيلد في أحد الأيام عن عشقها للحياة. لطالما شعرت جوسي قبل ست عشرة سنة أن الحياة لن تنتهي. انخرطت في البكاء.

«هذا يعني أنه لن *يقترب* منك أبداً بعد الآن، حتى من أجل فعل ذلك الأمر؟».

أومأت جوسي موافقة.

قال براونفيلد: «هل تقصدين إخباري بأنه بعد كل الذي فعلتِه من أجله، لن يظهر أي نوعٍ من التقدير؟»

ابتسم. احمرّت وجنتا جوسي. وقبل أن تغادر الغرفة، صفعته. أصبح كل شيء سهلاً بعدها.

استشاطت جوسي غضباً في مستهل حديثها معه: «بعد كل الذي فعلته من أجله! لا يكترث لأمري أكثر مما قد تكترث لكلب».

قال براونفيلد: «بعتِ كل شيء تملكينه وعملتِ بجد لشراء تلك *المزرعة* القيّمة من أجله! آآآه. بعض الناس جاحدون ببساطة. لو كان لدي امرأة تفعل كل الذي فعلتِه من أجله، لما كنت هنا اليوم». سُعد عندما أيدته جوسي، متناسية كل شيء باستثناء غضبها، وسرعان ما أعادها إلى الفكرة الأساسية.

قال: «عندما أخرج سأريحك من روث. وحينها، تخيلي فقط، ستعودين وغرانغ وحدكما مجدداً كما في الأيام الخوالي قبل مجيئها. ستعود الأمور إلى سابق عهدها *تماماً*». أومأت جوسي بتوق. «لن أسمح لهما حتى بالاقتراب بعضهما من بعض».

سألت: «لكن هل تستطيع فعل ذلك؟ غرانغ مستعد لارتكاب جريمة قتل إن مسست شعرة من روث».

قال براونفيلد: «يحسب غرانغ أنه فوق البيض، لكنه ليس فوق قانون البيض. لربما يكون القانون في مصلحتنا هذه المرة على غير العادة. على أي حال، لقد نجحتِ في إثارة قلقي».

قالت جوسي: «يسعدني جداً أنني فعلت ذلك!»، ابتسمت بغبطة، وشرعت تخطط كما دأبت على مدى سنوات لتجد طريقة تتيح لها الفوز للأبد بالرجل الذي لطالما أحبته.

الفصل التاسع

-41-

قال غرانغ: «السياج المتين لا يصنع جيراناً طيبين. ولهذا السبب نثبّت هذه هنا».

وقفت روث إلى جواره على رؤوس أصابعها وبيدها المطرقة، كانت حافية القدمين وترتدي فستاناً زهرياً تزين الكشاكش حاشيته. راقبته بعينين مترقبتين، وحاولت التكهن بما ينوي فعله، بينما شد غرانغ طرف السلك الشائك من دعامة إلى أخرى وثبته بمسمار. لم يسبق لها أن رأت أحداً يصنع سياجاً من قبل.

قال بعد أن ثبّت طرف السلك: «أترين هذه الأوتـاد، إنها تحدد ملكيتك، وبناءً على ذلك، تثبتين السياج مباشرة على الخط. ثم تعملين على شد جميع الأسلاك. تحققي من أن جميع أشواكها سليمة وحادة».

انغرزت أصابعها بشوكة السلك، ثم تفرّست باهتمام في الدم المتدفق. وسرعان ما التصقت قطرات الدم بفستانها الجديد، وطغت على وجهها تعابير تشي بأن ذكريات الرعب والألم عادت إليها. بدت عيناها كامدتين كسماء مشرقة تماماً، لا يعكر صفوها شيء، اللهمّ إلا سحابة يتيمة تحجب الشمس.

أوقف غرانغ عمله فجأة، من دون أن ينتبه لتعابير وجهها، هذا ما بدا على الأقل، وغرز طرف إصبعه الخشن بإحدى أشواك السياج، وضغط على السلك إلى أن خرجت الدماء من إصبعه.

«لم أحظ يوماً بفرصة إخبارك أن هنود أميركا الشمالية أشقاؤنا في

الدم، أخوتنا نحن السود»، مد يده من دون اكتراث ليمسك إصبعها، حدقت في إصبعها بهلع، ثم قرّبته منه بعد أن تأكدت من أنها مسحت كل آثار الدماء. اختفت آثار الدماء عن مقدمة إصبعها، ولكن عندما عصر جدها إصبعها، عاد النزف مجدداً. سحبها لتجلس إلى جواره على العشب وألصق إصبعهما النازفين بعضهما ببعض.

قالت بازدراء لا يناسب فتاة بعمرها: «لكن يا غرانغ، لم يلصق الهنود والسود أصابعهم النازفة بعضها ببعض. ألصقوا أذرعهم، هنا بالضبط»، وأشارت بإصبعها «ألصقوا هذا الجزء من الذراع»، ووضعت ساعدها الرقيق إلى جوار ساعده العضلي الخشن.

قال غرانغ: «بالطبع، هذه هي الطريقة التي أصبحوا عبرها أخوة للبيض. لكن تعرفين أنهم لم يتقصدوا ذلك. بعد تآخيهم، الأمر التالي الذي لفت انتباه أشقائهم البيض هو فروات رؤوسهم فعمدوا إلى استخدامها كدواءٍ. أما في حالتنا فقد أبدعوا في ابتكار طرق لا تخطر على بال. وعلى غرارنا، شرب الجميع من الكأس نفسها، وقاسوا ما قاسيناه من البيض. لكن بين بعضهم ومع السود، عمدوا فقط إلى إلصاق أصابعهم، وليس أذرعهم، أو معاصمهم، لم يفعلوا هذا قط!».

سألت: «هل أنت متأكد؟ أم أنك تكذب عليّ؟» قال غرانغ بمرح: «لا تتفوهي بكلمات مثل «تكذب» إن كنا بصحبة أحدهم. قد يظن الناس أنك سيئة التنشئة».

«حسناً، لا أحد هنا سوانا، كما أني لا أكترث لآراء الآخرين بي. على أي حال، لا أضعك في مواقف حرجة أمام الناس كما تفعل أنت بمعاقرتك الخمر ولعب القمار، وتبديد كل نقودك طوال الوقت».

قال غرانغ: «أممم، كما قلت. هنود أميركا الشمالية أصدقاؤك إلى الأبد. لقد مثلنا للتو الاحتفال..».

«لكننا لسنا من هنود أميركا الشمالية، نحن ...»

«صحيح، لسنا هنوداً. مهما قالوا عن الهنود، أقصد حتى لو لم يكن المتحدث هندياً، تذكري أنهم أصدقاؤنا الهنود. وإن تصرف بعضهم بجلافة، فهذا مردّه إلى جهلهم لطرقنا في التصرف بكياسة، وليس لأنهم فظون، هذا كل ما في الأمر. بإمكانك نوعاً ما إبقاء بندقيتك مصوبة نحوهم وعلى أهبة الاستعداد، بينما تشرحين لهم كل هذه الأمور التي أقصها عليكِ الآن».

قهقهت قائلة: «لا أريد لفروة رأسي أن تُسلخ».

قطب العجوز حاجبيه وقال: «فقط تذكري أنهم أيضاً لا يرغبون بذلك. ما أقوله لك خطير. يتعين على السود أن يصادقوا كل المطحونين مثلهم، خاصة إن كانوا من الملونين».

عبست وقالت: «ثمّة مساكين حولنا، وأنت تضع السياج لإبعادهم عنا. أليسوا مطحونين. إنهم يأكلون التراب. لا بدّ أنهم مطحونون. لا أعرف ما ذنب البيض في ذلك».

«حاولنا مصادقتهم. لكنهم نوع من البشر لا يمكن التآخي معه. يأبون ذلك ونحن نأبى ذلك أيضاً بعد ما فعلوه عبر كل هذه السنوات. لهذا السبب اختُرع السياج. أقصد، لنأخذ على سبيل المثال ما حدث قبل مجيئهم إلى هنا ومعهم إنجيلهم، هل تعتقدين أن الهنود حينها كانوا يسطون على ممتلكات بعضهم ويشيدون أسواراً لحماية ممتلكاتهم؟ كلّا يا سيدتي. لم يفعلوا ذلك. لم يمانعوا أن يستخدم الآخرون العشب والأرض الطيبة التي سخرها الله للناس. أما هؤلاء الناس، فلا يتوانون عن الاستيلاء على أرضنا عند أقرب فرصة، ضاربين بعرض الحائط حقيقة أننا مالكو الأرض. أيطلبون ذلكم[9]؟ لهم ما يطلبون. لقد كانوا على هذه الحال عبر التاريخ. إنهم السبب وراء اختراع السياج. الآن، كما تعرفين، عليهم التأقلم مع الأمر، وأعني التعامل مع الأشواك المصوبة نحوهم!».

9- خطأ لغوي ارتكبه غرانغ متعمداً كما سيتضح لاحقاً. (المترجمة)

انكبّ غرانغ مجدداً بإصرار على تثبيت السياج، بينما راقبته روث من بين خصلات شعرها الطويل، الذي استحال لونه بفعل أشعة الشمس إلى البني المائل إلى الأبيض فيما أطرافه صفراء بلون فراء الأسد. جدلت بقية شعرها بعشوائية وأفلتت بضع الخصل من الضفائر. فكرت بأنها ستمشطه عندما تكبر ليصبح مسترسلاً، إن سمح لها غرانغ بذلك. ستقنعه بأن خصل الشعر متفرّقة وفوضوية لدرجة لا تطيق احتمالها. الأطراف الأنعم من شعرها حيّرتها بقدر ما حيّرت جدها، لكنه اكتفى بنصيحتها بغسله ودهنه بمادة زيتية. تمنت أحياناً لو أن جوسي تساعدها قليلاً، فقط لتصفيف شعرها، لا تطلب أكثر من ذلك، كأن تسامرها مثلاً وتتبادل معها أطراف الحديث.

«أنت لئيم، إن وددت سماع رأيي»، قالت بكسلٍ، متكئة على مرفقيها، ومولية وجهها للشمس، ثم تمتمت، بعد أن أغلقتْ عينيها: «لئيم، عجوز لئيم، يفتقر إلى التربية المنزلية الحسنة، أو أي تربية من أي نوع».

لم ينظر إليها، ركّز على السياج، غرز الرفش أعمق فأعمق في التربة الحمراء القاسية، وربط الأسلاك بقوة لتصبح مشدودة إلى أقصى حد، ورفع السياج عالياً.

غير بعيد عن مكان وقوفهما، خُيّل إليه أن ظلال حياته الأولى على الأقل ما تزال عالقة هناك. كان يعيش حياته الثالثة أو الرابعة أو الأخيرة. على مسافة قريبة منه، شاهد حياة غرانغ كوبلاند الأولى. لفّه وهج أشعة الشمس وحرارتها القائظة الحارقة، وبدا طيفه يتراقص في مشهد متلاشٍ يتعذر نسيانه. ومجدداً، كما لو أنه في كابوس خانق، رأى الصفوف الطويلة والفدادين العريضة للقطن الذي زرعه. شعر بأشعة الشمس تلسع ظهره المنحني، ثم تتفجر وتنعكس وتحرق رأسه من الخلف وتتسلل من قبعته العريضة المصنوعة من القش. رأى مارغريت (حياته الأولى، زوجته الأولى!)، بالهيئة التي كانت عليها أول زواجهما، صبية غاوية غريبة، تسيّرها نزواتها، تتصرف بقوة ورزانة مشحونة بعشقها له

وهيامها الذي لا ينتهي. رأى التغير الذي طرأ عليهما كما طرأ على وجه مارغريت، فظهرت تجاعيد وجهها بالتدريج، ثمّة بين عينيها تجاعيد عشوائية، راسخة هناك رغماً عن الحاجب الفتيّ الناعم المتمرد. كان لها في الحقيقة حينها وجه غريب ناعس، كما لو أنها في حلم، البؤس أيقظها، ولم يكن ثمّة ضرورة ليخبرها بأنها لم تتزوج النشوة وإنما الرهبة، لم تتزوج الحرية وإنما العبودية، لم تتزوج الحب الأبديّ وإنما الأسى المقيم. ولم يكن ثمّة داعٍ لإخبارها عن الجهة المسؤولة عن بؤسهما- فقد عرفت بينما لم يكنْ يعرف حينها- عرفت بأن شخصاً ما وشيئاً ما يقفان خلف تعامله الوحشي معها (دفع نفسه ليصدق ذلك)، شيئاً يدفعه لهجرها، ويجرها نحو الحضيض، نحو التطهير من خلال الإقدام على الانتحار وقتل ابنها الوغد.

ماذا عساه يقول لحفيدته عن جدتها المحبوبة التعيسة، المحمومة الانتقامية؟

كيف له أن يقول لها إن السنوات القاحلة المليئة بالشقاء والبؤس حفرت أخاديد في الوجه الفاتن لتمسي مثل طبقات طلاء باهت تتكاثر عاماً إثر عام؟ كيف له أن يسرّ لها بأنه في ذلك الزمن، عندما كان إنتاج القطن أهم أولوياتهما في العالم (ليس زراعة قطنهما فحسب!)، في زمن اليأس والقنوط، تلاشى كل شيء حتى الحب، وأنهما عجزا في مرحلة ما حتى عن *تذكر* الحب؟ هل له أن يخبرها عن خزيه وهوانه، عن اعتقاده بأن الرجولة تخلو من الصدق والشرف، كيف يخبرها عن إقصائه لجوسي، كيف أبعدها كما يبعد المرء جسارته وإقدامه عن اليأس أو مثلما ينأى بنفسه عن لدغة أفعى؟ هل بوسعه إخبارها أن مارغريت اعتقدت أن الزواج يضع حداً لفجور الرجل وفحشه، وأن احترام غرانغ لزواجهما سينهي زياراته لجوسي، عاهرته التي واظب على نكاحها منذ صباه الشهواني؟ كيف له أن يخبر روث عن الحيرة التي شعرت بها جدتها عندما عرفت بأنه ما يزال يلتقي مع جوسي مرة في الأسبوع، وقلّما

يتخلّف عن موعدهما ليلة السبت؟ هل يمكنه البوح لها بأن مارغريت لم تقتنع بالشرح الذي قدمه حول أن جوسي ضرورية بالنسبة إليه كي يشعر باحترامه لذاته، بأنها تلزمه ليشعر برجولته؟ حتى لو لم أملك أي شيء قط، يجب أن يكون لديّ عشيقة. أحبك، أكد لها، لأنني أثق بك وأرغب أن تكوني أم أطفالي وتتكفلي بتربيتهم، أحب جوسي لأنها لا تستطيع الإنجاب.

كان يرى مارغريت جالسة وحدها عند باب كوخهما، تراقبه وهو يهمّ بركوب العربة، متجهاً بتصميم نحو نزُل «قطر الندى». تحولت حيرتها إلى شعور بالنقص، وحاولت ممارسة لعبة زوجها نفسها. ورمت نفسها في أحضان رجال عرفت أن زوجها لا يطيقهم. وانتهى بها المطاف بين ذراعي شيبلي، الذي يتحمل مسؤولية كل ما حدث. لم يستطع غرانغ الذي كان عليه حينها احتمال ذلك. ووجد نفسه أمام خيارين: إما هجرها أو قتلها. وفي آخر الأمر، اختار فعل الأمرين معاً.

طافت عينا العجوز الهادئتان على نحوٍ غريب أرجاء السياج واستقرتا أخيراً على حفيدته. اندهش لأنها وحتى بعد معرفتها الجيدة به، لم تزل جاهلة تماماً بأي شيء يتعلق بحياته الأخرى، بل وتجهل أيضاً الولادة الكئيبة لوالدها في ذلك اليوم الرمادي، الذي أُصدر فيه القصاص الحزين، عندما حُكم على الوليد بموت مألوف واعتيادي.

سأل مارغريت وقد خلا قلبه تماماً من أي بهجة لمولد ابنه: «وماذا سنسميه؟».

في غمرة إحباطها، سألته بلامبالاة: «ما أول شيء تراه عيناك؟».

رأى من مكان وقوفه عند الباب الظلال الخريفية لحقول القطن في جورجيا. أجابها: «حقول بنيّة[10] نوعاً ما». وتساءل بقنوط إن كان هذا اللون يغطي أيضاً بقية العالم.

10- Brown fields ومن هنا جاءت تسمية براونفيلد. (المترجمة)

قالت: «حقول بنيّة نوعاً ما». أبعدت الصبي النائم عن الدفء الذي كان ينعم به على صدرها. «حقول بنيّة نوعاً ما. حقول بنيّة». حتى الشفقة على طفلها لم تجد طريقها إلى قلبها. «هذا يفي بالغرض أيضاً كما يفي اسم الملك ألبرت بالغرض. لن يحدث الاسم أي فرق على أي حال».

وهبته للتو إلى ما يتربّص به لاقتناص روحه. وبعد مرور سنتين فقط على زواجهما، عرفت أن الأم تتولى الدور القيادي الثاني في عالم مزرعتها، بينما لا يحظى الأب بأي دور قيادي على الإطلاق.

صرخت عندما صعقتها أول صفعة تلقتها من الشخصية القيادية الأولى. صمّ أذنيه بالويسكي، تجاهلها وأقنع نفسه أنه ليس المُلام على إثم زوجته الذي لا يُغتفر. أنحى باللائمة على مارغريت وكذا ألقى باللوم على شيبلي، على كل من اسمهم شيبلي في العالم. وبين أحضان جوسي، لم يعد يسمع صراخ مارغريت، أو يكترث لعشاق زوجته السود، كراهيته لبياض بشرة شيبلي حرر غرانغ من تأنيب الضمير، وحمته بشرته السوداء من مشاعر الخزي التي تُنذر بصدوع ستمزق أعماقه.

وافت المنية زوجته وهي على يقين تام بأنها آثمة تستحق الموت، وبأن ما فعله لا يستوجب أي قصاص سوى خروجها من حياته. فكر غرانغ الآن والدموع تفيض من عينيه بمدى حماقته والغبيّ الذي كان عليه. وحدّث نفسه بأنه على فرض أدرتُ ظهري لتلك الفتاة اليتيمة التي فقدت أمها وأمضيت وقتي مع شخص آخر، مع فتاة صغيرة أخرى، فهل ستتفهم أنّ ثمة شيئاً خارجاً عن سيطرتي يدفعني لفعل هذا؟ كلّا لن تتفهم. «كان بوسعي عرض كل من اسمهم شيبلي في موكب من الآن حتى يوم القيامة فتراهم كلهم، ولكن مع ذلك سيظل سؤالها معلقاً حول سبب خبو حب جدها!» تمتم غرانغ لنفسه، ترقرقت عيناه بالعَبرات وارتعشت يداه خلال تثبيت السياج.

«تبدو من طريقة تجهمك وعبوسك أنك تفكر بقصة حزينة قديمة. استيقظ!». وقفت الطفلة إلى جواره ووضعت يدها على ذراعه. «يبدو أن

القيظ فعل فعله. من الأجدى لك أن تجلس». سحبته من حمالة سرواله، كما يُجر حصان ليشرب. «الشمس القوية جداً لا تلائم العجائز في مثل سنك».

«اخرسي. ما الذي تعرفينه عن كبر السن؟ ‹الشمس القوية لا تلائم العجائز في مثل سنك›»، قلّدها متهكماً، لكنه جلس في ظل السياج. «عندما تكبرين بما يكفي ليكون لديك أحفاد ثرثارون، ستعرفين ما هو الأجدى لك؟ لكن حينها سيكون الأوان قد فات لتغيير أي شيء ذي قيمة!» استعاد في ومضة سريعة ماضيه وطواه واتكأ عليه، طامساً المحطات القاسية، ثم طال طمسه الحواف والأطراف. قال: «لم أر في حياتي كلها فتاة تتصرف كامرأة مثلها»، وأسند ظهره إلى شجرة وأخرج غليونه. أشعلت عود ثقاب، وأحاطته بكفيها إلى أن أشعل غليونه، ثم أطفأته.

قالت متحاذقة: «ما أناه[11] أقل وقاحة منك»، وأزاحته بخشونة لتتمكن أيضاً من الاستناد إلى الشجرة. كاد يسقط أرضاً.

قال بمنتهى الجدية: «ما عليكِ قول ‹ما أناه› (دأب على إخبار زملائه وأصدقائه غريبي الأطوار بأن «تعليمها مرهون بالحدود التي أرسمها لها!») «ولا تقولي ‹ذلكم›[12] لأنني أنا أقول هذه الكلمة، وأقولها لأنني لا أعرف كلمة أفضل منها. أقصد، أعرف أن كلمة ‹ذلكم› غير صحيحة، ولكني لا أستطيع دائماً تذكر الكلمة الصحيحة».

صرخت روث، وهي تصفق بيديها: «علامة تامّة على كلمة ‹ذلكم›، عليك ألا تقول كلمة ‹ذلكم› بدلاً من ‹ذلك›. وأضافت مقهقهة: «لا يوجد حرف ‹م› بعد حرف ‹ك›»».

قال: «أردت فحسب أن أختبر حسن انتباهك»، ونفث الدخان من غليونه. «أتعرفين أن تثبيت سياج حول أرضك يمنحك القدرة على إطَلاق النار على أي إنسان أو حيوان تطأ قدمه حدودك. هناك قانون ينص على هذا».

11- Ain't وهي الاختصار العامي لعبارة I am not والتي تعني لستُ. (المترجمة)

12- الخطأ اللغوي الذي ارتكبه غرانغ سابقاً. (المترجمة)

قالت بنبرة حانية: «لا بدّ أن مزاجك الآن متعطش للدماء، هل أنت متأكد من أن الشمس القوية لم تؤثر عليك؟». استلقت بخمول، وأراحت ذقنها فوق صدرها. أمسكت عشبة برية ونكزته بها بفتورٍ على ساقه. تلطّخ فستانها الجديد بالعشب. تفحصت اللطخات باهتمام، ثم انقلبت بسعادة على بطنها، وأحدث الفستان حفيفاً ناعماً.

نظرت مباشرة في عينيه وسألته: «هل سبق أن شكرتك بما يكفي على هذا الفستان؟». ابتسم على مضض.

«ربحت هذا الفستان في لعبة قمار السبت الماضي، ربحت قرابة عشرين دولاراً، ثم يا للعنة، خسرت خمسة عشر دولاراً، ثم خطر في بالي بأن بوسعي الحصول على الفستان. تحدثت مع بعض النسوة هناك، سألتهن عن القياس الذي قد يكون ملائماً لحجم حفيدتي، وقلن إنهن لا يعرفن كثيراً عن القياسات أيضاً (يسرقن جميع القياسات تقريباً)، لكنهن اعتقدن أن القياس أحد عشر قد يكون مناسباً. انتقيت هذا الذي يحمل القياس أحد عشر، وحسبت أن الكشاكش التي تزين ذيل الفستان ستناسب فتاة ناضجة مثلك. قلت للسيدة البيضاء التي ابتعت منها الفستان (بدت وكأنها لا ترغب بسماع كلمة واحدة، لكني واصلت ثرثرتي): إن كنت ترغبين بطفلة تتظاهر وكأنها يافعة وناضجة *ومدللة*، عليكِ التعرف على حفيدتي. إنها تأخذ كل مالي لتظهر بأجمل حلّة. أخبرها أنها مدللة جداً. أعرف أنها ستلطخ الفستان بالدهون وتلوثه بالطين حالما ترتديه، ثم لربما تمزقه إن راق لها هذا. صحيح يا سيدتي، أصفها بالمشاغبة! قلت هذا للسيدة التي ابتعت منها الفستان». ضحك غرانغ. «أجابتني: ‹يبدو أنها لا تقدر خصالك الحسنة›. اكتفت بالوقوف بعيداً ونظرت نحوي كما لو أنني قد أعضها، وشدّت شفتيها على أسنانها كما لو أنها تخشى على أسنانها من السقوط». شد شفتيه وقلدها.

«عليكَ أن تناديني باسمي عوض مناداتي بـ‹حفيدتي›. لا عجب ألا يعرف أحد عمّا تتحدث عنه». ضحكت بلامبالاة. «على أي حال لست

أقل منك دلالاً. بيد أني أشكرك من صميم قلبي على هذا الفستان».

ثم قررت استخدام كلمات منمّقة تعلمتها من المدرسة، كان غرانغ نهماً لسماع هذه الكلمات. ابتسمت: «إنه *أخّاذ*. حتماً إنه أخّاذ. أتعرف أن ذوقك خلّاب!». تحدثت بتكلّف عمداً، وبدت كممثلة تتكلم عبر المذياع. ابتسم جدها.

جثا على ركبتيه ويديه وبحث باضطراب خلف بعض الجنبات، وأخرج زجاجة تتسع لنصف ليتر. وبادر إلى القول: «أود أن أقدّم لكِ بعض...».

قاطعته روث: «... لكن، كلّا شكراً لك. ما زلت في العاشرة من عمري، وثمّة من يكترث لصحة كبِده».

«لا تقلقي بشأن كبِدك. سيبقى سليماً معافى»، قال العجوز، وأخذ رشفة من الويسكي كاتماً ضحكته. عندما سال الويسكي على ذقنه، عمدت روث، التي كانت تثني إصبعها المجروحة وتفكر بشكلٍ غائم بالهنود، إلى تحسس قطرات الدم التي سالت من جرحها. ابتسمت بتعالٍ، لاعقة كامل يدها: «لنعقّم الجرح الآن».

«لا يناسبك اسم مثل اسم ‹روث›! ربما لهذا السبب لا أستسيغ مناداتك به.. رغم أن اسم روث ورد في الإنجيل[13]، أستطيع تأكيد وروده، لكن ربما في جزءٍ لم أقرأه».

جمعت عدة قطرات من الويسكي على لسانها ثم قالت: «يعلم الله أني لم أقرأ أي جزء لم تقرأه أنت».

راقبا في أحد الأيام جيرانهما القاطنين في المنزل المجاور. ثمّة رجل له شعر باهت طويل يصل إلى كتفيه، ولونه بلون قشرة الصنوبر. تناثرت

13- راعوث الموآبية، إحدى شخصيات الكتاب المقدس، الشخصية الرئيسية في سفر راعوث وهو السفر الوحيد المسمّى باسم امرأة. زوجة بوعز جد أب الملك داوود. تذكر في الإنجيل كأحد أسلاف يسوع المسيح. الاسم بالإنكليزية هو Ruth. (المترجمة)

حول الرجل مجموعة من الأطفال المشاغبين المبعثرين على درج المنزل، بدوا جائعين ومعفرين بالتراب، فيما استبقوا أعواد القش وإبر الصنوبر بين أسنانهم. اختبأت روث وغرانغ وراء أكمة تنمو بالقرب من سياج أرضهم. كانت هذه فكرة غرانغ أن يراقبا بعض «البيض»، لتعزيز تعليم روث. لاحظت روث أنهم ليسوا تماماً من البيض، ليسوا بيضاً كالثلج، وإنما مزيج من ذوي البشرة الرمادية والصفراء والزهرية، فيما بشرة أصغرهم مائلة إلى الزهري أكثر من غيره.

تساءلت بتوق: «ما الذي يفعلونه؟». استلقى الأب واثنان من الصبية الأكبر سناً تحت شجرة، يدخنان ويمضغان الحشيش.

قال غرانغ: «ربما يخططون للاستيلاء على أرضنا».

«لماذا تعتقد ذلك؟»

«حسناً، بماذا سيفكرون غير هذا وهم مضطجعون يمضغون الحشيش، متوارين عن نسائهم؟».

قالت روث: «ربما يحاولون فقط تحاشي شكاوى نسائهم ونقّهن».

قال غرانغ، مراقباً المجموعة بتجهم: «هذا بالضبط ما يودون منك اعتقاده».

«هل تقصد إخباري بأن هذا ما يفعلونه، جميعهم، يضطجعون طوال الوقت ويتفكرون بطرقٍ للاستيلاء على هذه المزرعة؟»

قال غرانغ معانداً للحظة: «أجل».

«حسناً، متى يتحدثون عن الطقس إذاً وعن سعر القطن وكل هذه الأمور؟»، استوت روث في جلستها وسحبها غرانغ على الفور ليبقيها بعيداً عن أعين المجموعة. «ما أقصده، ما أود معرفته، هل حاول أحد أن يكتشف إن كانوا أناساً حقيقيين».

قال غرانغ: «كلّا، بالطبع الشائعات تقول إنهم أناس حقيقيون، لكن المضحك أنهم لا يتصرفون كأناس طبيعيين».

«حسناً، عندما أكبر سأتحرّى عن هذا الأمر»، قالت روث بينما تسللا زاحفين بعيداً عن السياج. «أود رؤيتهم وسماعهم وجهاً لوجه، لا أرى أي معنى بأن ننظر إليهم كصقور محبوسة في قفص».

قال غرانغ: «جلّ ما أستطيع فعله هو زرع بذور حب المعرفة في قلبك. لم أر في حياتي فتاة بمثل شغفك لكشف الستار عن الحقيقة المُغيّبة».

سألها لاحقاً في ذلك اليوم: «ما رأيك إن قلت لك إنني أعرف تلك العائلة، وإنني عرفت بالمصادفة أن نساءهم لا فكرة لديهن عن كونهم يدخنون ويمضغون الحشيش في ردهة المنزل؟».

فكرت روث لوهلة ثم قالت: «لهذا السبب يختبئون كالعصابة في الغابة؟». وأردفت ببساطة: «حسناً، هذا منطقيّ أكثر من الأسباب الأخرى بالنسبة إليّ»، استاء جدها من هذه الحقيقة.

-42-

شهدت المدرسة في أحد الأيام حدثاً كشف أموراً عن البيض أكثر مما كشفه أي شيء أخبرها عنه غرانغ. بدأت يومها مستاءة كالعادة. مقتت النهوض باكراً، لا سيما عندما تستيقظ وتجد نفسها في المنزل الذي كانت تطلق عليه اسم «منزل جوسي»، وليس في الكوخ الذي تعتبره كوخها وكوخ غرانغ، كان في الواقع كوخها أكثر مما هو كوخه. تناولت وغرانغ فطورهما، فطور غرانغ مكوّن من دقيق الشوفان والنبيذ، فيما فطورها مكوّن من دقيق الشوفان والحليب. ثم قطعا الطريق السريع مشياً على الأقدام إلى أن وصلا إلى المدرسة. كانت المدرسة على بعد نصف ميل فحسب عن منزلهما، وإن سلكا طريق الغابة يستطيعان قطع المسافة في غضون دقائق. تركها غرانغ على درج المدرسة كما دأب على فعله دائماً، بينما وقف الأطفال الآخرون في الجوار يتفرّسون بهما، كعهدهم. كان يوماً مشرقاً ودافئاً ومنعشاً من أيام شهر آذار. ألقت الشمس ظلالاً خفيفة على قميص غرانغ الأزرق، ظلت تراقبه إلى أن توارى عن الأنظار خلف المدرسة ودخل إلى الغابة. أحبا كلاهما السير على أقدامهما عائدين إلى المنزل عبر طريق الغابة، لأن غرانغ يظل هادئاً أثناء قطع المسافة من المدرسة إلى منزله، كما أمّنت الغابة لهما الخصوصية والسكينة التي تاق كلاهما للتنعم بها.

كانت المدرسة مكوّنة من ثلاث قاعات. خُصصت القاعة الجانبية القريبة من البئر للصفوف الأول والثاني والثالث، فيما القاعة في الوسط للصفوف الرابع والخامس والسادس والسابع. قبع المبنى سامقاً على الأساسات المصنوعة من الإسمنت، وفي قبوه دأب بعض الفتيان الأكبر سناً على

اصطحاب الفتيات الأكبر سناً إلى هناك. كان هناك درج طويل عند كل نهاية للمبنى، كما لو أن القاعات تشكّل طابقاً ثانياً. صعدت روث الدرج، لتصل إلى الشرفة المكوّنة من درجة عريضة تفضي إلى القاعة الوسطى وترخي بظلالٍ من الترقب والهلع على المكان. كانت في الصف السادس، وتشتمل قاعتها الدراسية على أربعة صفوف من الرابع إلى السابع. كانت معلّمتها الآنسة غرايسون، وستكون الآنسة غرايسون أيضاً معلمتها في السنة المقبلة إلى أن تنتقل إلى القاعة الدراسية المجاورة، حيث ستعلّمها الآنسة ليتل. كانت الآنسة غرايسون جميلة، ذات بشرة سمراء داكنة وأظافر مطلية بعناية، وشعر معالج بمواد كيميائية. دأبت على ارتداء ملابس رمادية بالكامل طوال الوقت، وتمليس شقوق جواربها من ماركة «ريد فوكس» بإصبعها المرطَّب بلعابها، عندما يُخيّل إليها أن ما من أحد يراقبها.

كانت الحصة الدراسية الأولى للصف الرابع هي مادة الصحة، وتنقلت الآنسة غرايسون بين المقاعد، تتحدث عن الاعتناء «بنظافة عقولنا وأبداننا»، أما الحصة الثانية فكانت عن المواطنة، وتحدثت الآنسة غرايسون وهي تسير جيئة وذهاباً عن أهمية «العقول الوطنية صاحبة الصوت المسموع التي تقدم خدمات جليلة لوطننا». وبحلول الساعة العاشرة، وعلاوة على ثرثرتها أثناء الحصص الدراسية الثلاث الأخرى، تحدثت عن أهمية دراسة التاريخ. وقالت الآنسة غرايسون بفم ملآن وبأعلى صوتها وبنبرة واضحة وحادة إن التاريخ يعلمكم ما شهده العالم من أحداث. يخبرنا عن إيلي ويتني، مخترع محلج القطن؛ وتوماس جفرسون الذي كتب إعلان الاستقلال، وجورج واشنطن؛ وميليشيا مينوتمن. واسترسلت قائلة إن التاريخ الأميركي هو الأهم في العالم على الإطلاق. وطرحت سؤالاً عن السبب. ثم قدمت الإجابة: «لأنه تاريخ يتحدث عنكم وعني، التاريخ المشرّف للأحرار!»، ثم زعقت: «حَاربنا لنبقى أحراراً»، تردد صدى صرختها التي تصمّ الآذان على الجدران المصنوعة من الورق المقوى. «تاريخنا يعلمنا ما جرى معنا، نحن الزنوج، وما الذي فعلناه بأنفسنا». قالت بنبرة خطابية: «بيرل هاربر والحرب الأهلية». ابتسمت وأردفت بصوت أعلى محاولة رفع صوتها ليطغى على الضجيج

الذي يعمّ القاعة والصخب القادم من القاعتين الأخريين الموجودتين على يمين القاعة ويسارها: «يخبرنا التاريخ عن مكاننا في العالم ويبيّن لنا كيف وصلنا إلى هنا وتكمن أهمية التاريخ في دوره التنويري الذي ينشر الوعي في جميع أنحاء العالم!».

تعين عليها الابتعاد لبضع دقائق لأن أحد الطلاب في الصف الرابع رفع يده من مكانه في آخر القاعة وقال إنه لم يستطع سماع ما تقوله. سمعتها روث، وكأنها تسمع صوت تسجيل صوتي، تسأل الفتى الصغير شخصياً: «ما أهمية دراسة التاريخ؟». قال الصبي متجهماً: «لا أعرف»، ثم قالت الآنسة غرايسون، وهي تصفق بيديها بانسجام مع الكلمات التي تنطقها «لأن التاريخ يطلعنا على ما جرى في العالم!»، قال الصبي: «آه أجل يا سيدتي». ثم استُدعيت الآنسة غرايسون إلى الجهة الأخرى من القاعة لأن أحد الطلاب من الصف الخامس سأل عن صحة كون جورج واشنطن أبا الوطن. عندما نجحت روث أخيراً في التقاط ما قالته الآنسة، كانت الأخيرة تثني على الطفل لأنه قرأ مسبقاً كتاب التاريخ الجديد.

لم تكن الآنسة غرايسون منطقية بالنسبة إلى روث. وعلى الرغم من سردها لجميع ما يرد في المناهج المدرسية حرفاً بحرف، فإن الكلمات التي نطقت بها افتقرت إلى التماسك الذي بدت عليه وهي مكتوبة على الورق. ويصعب لهذا السبب التكهن بترابط الأفكار التي ترددها على مسامع الطلاب. يطغى الضجيج بين فينة وأخرى على كلماتها، فيما تعرف ضمنياً بأن القليل مما تقوله يمكن للطلاب سماعه والاستفادة منه. لكن روث التي تعرف الآنسة غرايسون من السنة الفائتة إذ كانت معلّمتها أيضاً حينها، خشيت من الآنسة بسبب قدرتها على تعقب من يتجاهلها، وكان بوسعها أن تثب على طالب حالم في اللحظة نفسها التي يشرد فيها ذهنه، فتنهال عليه بالضرب أو ترسله إلى المدير ليؤدبه، بينما يعمد المدير دائماً إلى توقيف الطالب عن الدراسة لمدة أسبوع، من دون أن يرفع غالباً عينيه عن مكتبه أو من دون أن يطلب من الطالب الذي يقرأ في حصته التوقف عن القراءة.

وكعادتها عندما تدير الآنسة غرايسون ظهرها لدقيقة، اختلست روث

نظرة مركزة ومهتمة على الكتب الموجودة على مقعدها. كانت هذه النظرة الحجاب الذي تتوارى خلفه عندما تشرع في حلم يقظة. نظرت اليوم إلى كتاب تاريخ العالم الجديد الذي كان يُدرّس في حصص ذلك الصباح. كان الكتاب الجديد السبب الرئيس لمحاضرة الآنسة غرايسون عن التاريخ. قبل جلب الكتاب من مدارس البيض، لم يكن لديهم كتاب تاريخ، واقتصرت الكتب التي درسوها على كتب القراءة والإملاء والجغرافيا. قرأت روث هذه الكتب قبل أشهر وكان بوسعها سرد ما جاء في كلٍ منها عن ظهر قلب لأنها قرأتها عدة مرات. رنت بنظرها الآن نحو الكتاب الجديد، وأبصرت الصور، التي كان بعضها ملوناً وبعضها الآخر بالأبيض والأسود، وثمّة على الغلاف البني الباهت صورة لمدينة جميلة وأطفال ذوي عيون كبيرة يعبرون شارعاً يمر تحت جسر وهناك أيضاً ساعة برجية. وبأحرف صغيرة مكتوبة على أحد طرفي الغلاف ثمّة كلمة «لندن»، قلّبت صفحات الغلاف التي تسبق متن الكتاب. على الجهة اليمنى من الكتاب، كان هناك اسم فتاة أخرى: جاكلين باين، وكُتب تحت الاسم «مدرسة مقاطعة بيكر الابتدائية»، وهي مدرسة للبيض. جميع كتبهم ترد من هناك، وهذا لم يفاجئها. ثم جالت ببصرها لترى بقية الصفحات، وشهقت، إذ ثمّة على هذه الصفحة وعلى امتداد كامل الغلاف الداخلي الأمامي للكتاب رسم كبير مترام يذيّل عنواناً مكتوباً بأحرف خضراء كبيرة «شجرة عائلة البشرية». حملت أغصان الشجرة أسماء كل أطياف البشر. في أعلى الشجرة، ثمّة رسم باللونين الأزرق والأصفر الباهتين لأناس من البيض، يظهرون في الصورة منكبّين على فعل شيء ما ويحملون في أيديهم أنابيب اختبار، فيما تبيّن الكلمات المكتوبة على ستراتهم أنهم «علماء». خلفهم، ثمّة رسوم لمبانٍ شاهقة ضخمة وسيارات وقطارات وطائرات. وكتبت جاكلين باين تحت الصورة: *ملاحظة: أميركيون وألمان، أناس عاشوا في أقصى الطرف الشمالي من أوروبا*. وبين قوسين كتبت *(إنكلترا)*. وتحت كلمة «أميركيون» ثمّة رسم بالأصفر لأناس يرتدون قبعات صغيرة مضحكة من القش، وكانوا يقودون جاموس ماء ضخماً. وخلفهم الكثير من الأشياء الصغيرة الجميلة المصنوعة

من الخيزران وحجر اليشم الكريم. وكتبت جاكلين باين تحت الصورة بخط يدها وبأحرف دائرية: *ملاحظة: العرق الأصفر. الصينيون واليابانيون، الخ، والناس البعيدون عنا، في الشرق الأقصى.* وتحتهم، ثمّة رسم بالأحمر للهنود الأميركيين. جلسوا بوداعة، بينما يظهر رجل عجوز جالس يدخن غليونه الطويل المغطى بالريش. جلست إلى جواره بعض النسوة، يصنعن السجاد والفخار والسلال. وتحت صورتهم، كتبت جاكلين باين: *ملاحظة: هنودنا الأميركيون. أنقذناهم من الأمراض والحياة البرية البدائية، وعلمناهم حِرفاً مفيدة كما يظهر في الصورة أعلاه. كما أنهم مشهورون في صناعة الخرز.* لكن الصورة الأخيرة التي رأتها على الصفحة هي التي دفعتها لتشهق تلك الشهقة. إذ في أسفل الشجرة تماماً، في منطقة غير متصلة بالشجرة في الواقع وإنما منبثقة من غصن بلا جذور، ثمة رسم لرجل أسود أشعث الشعر، شفتاه مكتنزتان وغليظتان، وثمّة عظمة معلّقة تخترق أنفه، يرتدي تنورة من الأعشاب ويقف فوق دلو ماء مغلي، كما لو أنه ينتظر بعثة تبشيرية زائرة قد تصل في أي لحظة. وتحت الصورة، كتبت جاكلين باين بخط يدها الأنيق الذي دوّنت فيه ملاحظاتها، كتبت كلمة توصيفية واحدة فحسب. لم تأتِ حتى على ذكر إن كانت التنورة المصنوعة من الأعشاب قد صنعها الرجل بنفسه. صُعقت روث كما لو أنها تلقت صفعة على وجهها. *ملاحظة: زنجي.*

حالما انتشلت نفسها من ذهولها وتوقفت عن الحلم، عرفت بوجود خطب ما، سمّر جميع الأطفال الموجودين حولها نظرهم عليها، حدّقوا فيها، وانفجروا ضاحكين. بدوا في عينيها متوحشين قبيحين مكشرين، ورمقتهم بنظرة ازدراء وقطبت حاجبيها قدر استطاعتها. لكن بعدها رفعت بصرها في الوقت المناسب لترى سوطاً يهوي على كتفيها. هوى السوط مراراً وتكراراً، وأسكت صفير الحزام الثقيل قهقهات الطلاب، فقد عرفوا جيداً طعم السوط. بهدوء وترٍو، نهضت روث، ورمت بضربة واحدة الكتاب فهوى على الأرض. رنّ صوت الآنسة غرايسون الهستيري في أذنيها. صرخت: «أنتِ مثلهم تماماً. ستظلين نكرة لأنك لا تكترثين لأي شيء ذي قيمة!»، مشت روث الهوينا نحو أول القاعة. زعقت الآنسة غرايسون: «أين تحسبين نفسك

ذاهبة؟»، التقطت كتاب التاريخ عن الأرض ومسحت الغبار عنه. «جلّ ما يفعله أمثالك تمزيق ممتلكات الآخرين! عودي إلى هنا واجلسي!» لكن يد روث كانت قد أضحت على الباب. استدارت لترى الآنسة غرايسون تقترب منها والسوط فوق كتفها، وسادت أجواء حماسية ثقيلة في الصف مشحونة بشماتة زملائها وتشفّيهم فيها، حتى كاد من المستطاع لمس شماتتهم التي لم تعدُ كونها رغبة بريئة وبدائية للهو والتسلية. رغبة بريئة وبدائية لسفك الدماء، دمائها. «ابنة الشيطان اللئيمة الملعونة *الغبية القحبة*!»، رشقتها روث بكلمات تعلمتها من مخزون الشتائم الهائل الذي ورثته عن غرانغ. تجمّدت الآنسة غرايسون والطلاب كلهم وأخذوا نفساً عميقاً تفوح منه رائحة السخط. «ماذا قلتِ أيتها الصبيّة؟»، نطقت الآنسة غرايسون أخيراً، واقتربت متوعدة إياها بعقوبة أخطر من ذي قبل. قالت روث وهي ترتعش: «سمعتِ ما قلته. وإن لمستني لمسة واحدة فقط، جدّي وأنا سنجر هذه الخردة اللعينة الموجودة فوق رأسك ونحشر ألواحاً من الخشب والقرميد في حنجرتك *الكاذبة الغبية العاهرة*!». فتحت الباب بسرعة وهرعت لتهبط الدرج. حبست دموعها إلى أن وصلت إلى الغابة، آلمتها دموعها بشدة وظنت أنها لن تشفى من مرارتها قط. «أكان هذا ما عناه غرانغ؟»، سألت نفسها مراراً وتكراراً، متمنية لو أنها ميتة الآن.

حلّ الصيف فوجدت فيه ملاذها، وكانت حرة ابتداءً من شهر أيار حتى شهر تشرين الأول، لها أن تلهو في الكوخ الذي شيّداه في الغابة منذ فترة طويلة، أو أن تقرأ الكتب المصورة وتلك التي سرقها غرانغ بمكرٍ من مكتبة البيض، وللتمويه، لها أن تقرأ الإنجيل «لهذا، لذلك، لأن- الخ الخ!». كان الشتاء بارداً وقاسياً، ورغم أنها عشقت التعلم، لكنها كرهت المدرسة. عندما عاشت مع ميم، لم يكن الأمر سيئاً على الإطلاق. اعتادت أن تمشي بصحبة أورَنيت ودافني إلى المدرسة، يضحكن ويثرثرن، ويرشقن بالرمل أحياناً حافلات مدارس البيض التي تعبرهن. لكن والدتها ميتة الآن ووالدها في السجن، ومكان شقيقتيها «في الشمال» ظل لغزاً. لم تستطع تخيل الشمال سوى أنه مكان هائل بارد يغصّ بالأبنية والناس، حيث لا مكان لتتنقل في

رحابه العصافير وتنشط أحشاءها. وصلت إليها هذه الصورة من خلال وصف غرانغ للشمال، إذ قال إنه لا يكترث لو أقدم الجنوبيون على التهام الشمال من دون صلصة، ولن يرفّ له جفن إن حدث هذا.

تألمت كثيراً لأن الآخرين نظروا إليها على أنها شخص فضولي بعد وفاة والدتها، آلمها هذا بقدر ما آلمها الاعتراف بذلك، وعلى الرغم من أن جميع الأطفال في المدرسة فقراء، فإنها اعتُبرت أكثرهم فقراً، لأن والدها قاتل وليس لها أم. وتعلمت بعد فترة وجيزة من ارتياد المدرسة أن الأمهات سلعة فاخرة في أعين زملائها في الصف، ممن لم يعرف معظمهم آباءهم، وإن عرفوا، فما عادوا يتذكرونهم. لم تلقِ بالاً أيضاً للعيش مع جدها، الذي يحسبه الجميع عجوزاً غريباً و«مضحكاً»، يجيد لعب الورق، لم يتوانَ الأطفال عن الإقرار ببراعته، لكنهم أضافوا أنه صامت طوال الوقت، مما يحول دون اعتباره شخصاً موثوقاً. سأل الأطفال: «هل سمع أحدهم من قبل غرانغ كوبلاند يضحك على نكتة حكاها أحد آبائهم؟». لم يسمعه أحد، سوى روث، ولم يقدّروا هذا الأمر ولم يعتبروه امتيازاً. شعرت بالأسف أحياناً وسخرت في الكنيسة مع غرانغ من كون المجتمع ورعاً إلى هذه الدرجة، يراقب أفراده بعضهم بعضاً لتصيّد الأخطاء.

أضحت منذ أول شهر انتقلت فيه للعيش مع غرانغ شخصاً ساخراً وتهكمياً، وصار الأمر تسليتها المفضلة. وأثناء لعب الأطفال لعبة «سلوى يا سلوى» أو «طاق طاق طاقية»، لم يكن يتعين على روث سوى إظهار تعابير الحزن والجمود، فتتبدد أجواء البهجة ويخيّم الوجوم. وسرت أقاويل في المدرسة عندما كانت في الحادية عشرة من عمرها مفادها أنها لو وجدت من يسير معها في الغابة (كثيراً ما شوهدت تتجول في الغابة وتتحدث مع الجنيات وكان هذا غريباً حتماً)، فإن الموت سيكون من نصيب من يسير معها من دون ريب. قالوا إن لديها بندقية تخفيها في الغابة، وإنها اعتادت إطلاق النار على رؤوس الناس، مما يجنبها رؤية أعينهم. يقولون إن الأعين تذكرها بوالدتها. أدركت روث عندما سمعت هذه الإشاعة أن الشخص الذي أطلقها لا بد أنه حضر جنازة ميم ورأى إخفاق الحانوتي في إخفاء

تشوه وجه والدتها. ولكن ماذا عساها تقول؟ اقتصرت الأوقات التي دخلت فيها السعادة إلى قلبها على لحظات انتساب أطفال جدد إلى المدرسة، قبل أن يعرفوا القصة، أو عندما تكتشف بالمصادفة أطفالاً قدماء في المدرسة لم يسمعوا بالإشاعة أو لم يحضروا الجنازة. لم تكن الشخص الوحيد الذي تدور حوله الأقاويل. طال جوسي أيضاً قدر كبير منها، كما طالت الأقاويل كل شخص في العائلة. وعندما صارت في الصف الرابع، بدأت روث تمشي مطأطئة الرأس، وتأصلت لديها هذه العادة تدريجياً في الصف الخامس، وعندما أصبحت في الصف السادس، قيل إنها لا تعرف أن لديها رأس، وأن رأسها علق في مكانٍ ما وسط السحاب.

عندما صارت أكبر سناً، أضحت منبوذة ومهملة أكثر فأكثر. وحينما أصبحت في الثالثة عشرة من عمرها، كان الجميع قد عرف أنها ابنة قاتل (لم تكن صفته كقاتل هي الصفة التي استهجنوها- فكثير منهم ارتكب أقاربهم جرائم قتل، لكن أن يقتل أبٌ أم أطفاله، فقد شكّل هذا الأمر صاعقة بالنسبة إليهم)، وعلى الرغم من توقفهم عن مضايقتها علناً- إذ لم يعد أحد يسخر منها- ظل التوتر سيد الموقف. ثم أُطلق سراح والدها، وشوهد في البلدة. وفي الأسبوع ذاته الذي خرج فيه من السجن، تركت جوسي المنزل الذي تسكن فيه مع روث وغرانغ وذهبت للعيش معه. واجتاحت المدرسة موجة جديدة من الأقاويل وعاد الجميع للسخرية منها. كانوا سابقاً يهزؤون منها ويتحاشونها لأنها ابنة قاتل، وأصبحوا الآن يسخرون منها لأنها «زوجة» جدها، الذي كان مختلفاً جداً عن أسلافهم البليدين المشلولين. توجب عليها في اليوم الذي تلا رحيل جوسي مواجهة الكثير من الشائعات التي انتشرت في الآذان الفضولية النهمة، إذ سرت أقاويل بأن غرانغ يفضّل حفيدته على زوجته، لهذا تركتهما ليستمتعا بعضهما ببعض من دون منغصات. بدت فكرة أن جَوسي جهزت الكوخ، الذي بناه غرانغ ليكون فسحة تلعب فيها روث، فكرة فاحشة، إذ إن جوسي لم تعرف ما الذي كان يجري *بالفعل* هناك، هذا ما تناهى إلى أسماع الناس عن لسانها. تحاشاها زملاؤها في الصف أكثر من أي وقت مضى، وانفضوا عنها بطريقة تثير السخرية والريبة.

روسل باسكال كانت الشخص الوحيد في المدرسة الذي أحبته، لكن روسل لم تتحدث إليها قط. كانت فتاة جميلة عميقة التفكير، بشرتها حريرية وشعرها داكن مجعد، هي الطفلة الوحيدة لأب مدمن على الكحول. لم يبرأ والدها قط من موت زوجته، هكذا قال الناس، وسرت همهمات آسفة بأن زوجته لم تستحق كل هذا التبجيل. تعامل معلمو المدرسة مع روسل ببرود جليّ، مما أثار حنق روث وتعاطفها، رغم أن روسل نفسها لم تكترث قط على ما يبدو لطريقة تعامل المعلمين معها.

كانت روسل في الصف الثاني عشر عندما عرفت روث بأنها تخطط للزواج من والت تيريل. كان والت أثرى رجل أسود في المقاطعة. عاد بطلاً من الحرب العالمية الثانية، وقد خلّفت الطلقات ندوباً في ساقيه، وامتلأ صدره بالميداليات والأوسمة البرّاقة. اعتاد والت ارتداء قبعة عالية في أي مناسبة ميمونة، وشمل هذا حتى حفلات الشواء التي تقيمها المدرسة أيام الآحاد. سُميت المدرسة باسمه تيمناً به، لأنها شُيدت على أرضه، وحصد احترام الجميع. تملقه معلمو المدرسة. لكن مع ذلك فقد رأته روث كبيراً في السن، وبعمر والدها. لماذا تتزوجه روسل التي كانت في السادسة عشرة من عمرها؟

خلال مراسم حفل التخرج، راقبت روث روسل واقفة إلى جوار زوجها المستقبلي، فيما وقف والد روسل بالقرب منهما، كان شاحباً وجامداً ومن الجليّ أنه ثمل. عبرهم الآخرون وشرعوا بالثرثرة، لكنه بدا هائماً مثل رقاقة بطاطا مقلية في الفيض البهيج لفساتين أيام الآحاد وأصوات الأطفال. وعندما ذُكر اسم ابنته لتتسلم وثيقة التخرج، لمعت عيناه للحظة. جلس إلى جوار والت الذي بدا فارع الطول مقارنة به، لا سيما برأسه الكبير وكتفيه العريضتين، في تلك اللحظة بالذات، عاد والد روسل إلى الحياة. عندما عادت روسل إلى مكانها، بدت توّاقة لرمي نفسها بين ذراعي والدها. تبادل الأب والابنة النظرات، كما لو أن عينيهما أبواب موصدة.

نادتها روث من دون تفكير عندما هبطتا معاً بتؤدة درج المدرسة الثانوية: «روسل، هل لي أن أتحدث معك في موضوع؟».

قالت روسل ببرود ولا مبالاة متعمّدين: «بالطبع». ابتعدتا عن الرجال كما لو أنهما تنعتقان من كتيبة جنود. نظرت روث خلفها ورأت غرانغ يخوض حديثاً شائكاً مع أحدهم. كلما ابتعدت عنه ونظرت إليه بوصفه شخصاً غريباً، بدا لها منفراً خشن المظهر، وشعره أشعث وتسريحته تتماهى مع تسريحة فريدريك دوغلاس[14]، يداه تؤديان رقصة بربرية لافتة وتلوحان في الأثير الذي يفصله عن محدّثه.

قالت روسل: «أنتِ السيدة غرانغ». شعرت روث فوراً بإهانة لا تُحتمل، وبدا الموقف بالنسبة إليها كما لو أن الله سألها في خضم بوحها له عن أحزانها إن كانت أحضرت معها غسيلها المتسخ. ابتسمت روسل ابتسامة طفيفة، تتماشى مع طريقتها المحببة في الكلام التي تتعمد فيها مد الأحرف وإطالتها. اعتادت روث التحدث بطريقة تخلو من أي لكنة، هذا على الأقل ما اعتقدته، على الرغم من أنها لم تعرف سوى طريقة الجنوبيين في الحديث. جهلت السبب الذي يجعلها لا تتحدث على غرارهم. وكان صحيحاً أن ذهنها يميل إلى تنقية وتغيير كل ما يقوله الجنوبيون، ليغدو جميلاً وخرافياً. انطبق هذا على الجميع باستثناء غرانغ، الذي استساغت طريقته في الكلام ووجدتها ملونة وقوية. بيد أن روسل تحدثت كالنساء الجنوبيات البيض، بالنعومة غير المبالية ذاتها. وبدت لكنتها أيضاً ساحرة وبلا نبرة. كانت روث تستشيط غضباً وغيظاً عندما يدعوها الأطفال الآخرون بـ«السيدة غرانغ»، لكن عندما دعتها روسل بهذا الاسم، شعرت بالإهانة فحسب.

قالت: «اسمي روث».

قالت روسل: «أعرف هذا».

وقفتا تحت الأشجار المزروعة عند حافة فناء المدرسة، وخلفهما دورة المياه المخصصة لـ«الفتيات»، وثمّة بئر على الجهة الأبعد من الفناء، حيث وقفت مجموعة صغيرة من الأطفال ينتظرون دورهم ليشربوا من الطاسة

14- فريدريك دوغلاس (1818-1895) كاتب أميركي شهير من أصول أفريقية وأحد دعاة التحرر من العبودية والدفاع عن حقوق السود. (المترجمة)

التي تطوف عليهم. وقف بصبرٍ صبي أكبر سناً ممسكاً بحبل يحمل دلواً خشبياً كبيراً تسيل منه قطرات المياه وتسقط على الأرض الرطبة.

قالت روسل: «عندما تصبحين في عمري، لن تشربي المياه من تلك البئر القديمة المتسخة. يمكنكم جميعاً التخلص من ذلك الدلو المغطى بالطحالبِ، وتلك الطاسة *المتأ*رجحة التي يتناوب عليها الجميع! سيكون هذا تقدماً من جهة وتخلفاً مدته خمسة عشر عاماً عن البيض من جهة ثانية».

ارتبكت روث ولم تعرف ما الذي يتعين عليها قوله. كرهت الشرب من الطاسة أيضاً، لكنها لم تسمع أحداً يقول إن هذا سيحدث يوماً ما. كان وجه روسل متجهماً وهي ترنو بنظرها نحو الطريق السريع. عبرت الطريق سيارات تغص بالبيض، من دون أن تتمهل. لم تكن هناك أي إشارة تدل على وجود مدرسة في الجوار، والأطفال الذين تعينَ عليهم عبور الطريق السريع حذوا حذو السيارات أيضاً ولم يتمهلوا. بعدما قُتل صبي أثناء عبوره الطريق، نصبت ولاية جورجيا صليباً خشبياً أبيض كدلالة على «الموت» لتنبيه سائقي السيارات، لكنها لم تنصب إشارة مرورية تحذيرية.

شعرت روسل بالملل، نظرت بتساؤل إلى روث، واحتاجت الأخيرة إلى شجاعة كبيرة للدخول في صلب الموضوع.

قالت أخيراً من دون تفكير: «لماذا ستتزوجينه؟».

سألت روسل بلا اكتراث: «لِم لا؟ أفضل الزواج من الشيطان على التعفن في أي من الوظائف المقرفة المتوفرة في هذه البلدة».

سألت روث: «وظائف؟». فكرتها عن الزواج افترضت برومانسية وجود الحب. لكنها حاولت تخيل روسل على أنها طاهية للوجبات السريعة في مطعم رخيص. كانت روسل لطيفة جداً. حاولت تخيلها كخادمة تعمل لدى إحداهن، لكنها في الحقيقة أقرب إلى الشخص الذي لديه خدم وحشم يعملون في خدمته. لم يكن مصير روسل يشبه مصير المعذبين في الأرض، وروسل عرفت هذا على ما يبدو.

انتابتها رغبة جامحة لعناق روسل، لكن كيف لها أن تعانق شخصاً بارداً

لهذه الدرجة، شخصاً غير مبالٍ هكذا، فاتناً جداً وبلا إحساس، فتاة بكل هذا *التجهم*. انفجرت روث عوضاً عن ذلك باكية، وبادرت روسل إلى عناقها.

قالت روسل: «لا تبكي»، كان صوتها غريباً ورفيعاً وموحشاً. «ربما سنفهم كلانا ذات يوم لماذا من المفترض أن يكون الزواج منه أفضل خيار». تعلّقتا بعضهما ببعض لوهلة، ثم رحلت روسل. كان وجهها هادئاً، ومستقراً ومصمماً، ووجدت فيه روث وجه دمية جامدة. وجهاً يخلو من أي تعبير سوى الثقة في أبهى صورها الخاوية.

مر زمن طويل قبل أن ترى روسل مجدداً، سنة بأكملها. حدث هذا في جنازة والد روسل الذي تجمد حتى الموت فوق قبر زوجته في المقبرة. ارتدت روسل ثوباً أسود فاخراً وبدت مثل ملكة مكلومة. بدا أنها كبرت كثيراً خلال هذا العام، بارّة لزوجها ومخلصة له، اتكأت على ذراعيه طلباً للحماية، خاضعة وتابعة وكأنها طفل هجره أهله. أما والت الذي ارتدى كعادته ملابس عسكرية مملة، فقد بدا مزهواً بنفسه، يطفح بمشاعر الرضا والاعتزاز.

-43-

كبر ذات يوم سؤالها حول عما ستصبح عليه في المستقبل، تضخم السؤال وأصبح مهولاً. كان هذا في اليوم الذي أعلن فيه جسدها جهوزيته للمستقبل فيما أيقنت في سريرتها أنها ليست جاهزة بعد. عصرها الهلع وقيّدها. جلب لها غرانغ مناديل وحزاماً ومسحوق تجميل فاحت منه رائحة الورد الجوري العطرة. غمره شعور مختلط بين الحماس والقلق حيال ما الذي يتعين عليه قوله لها حول هذا التطور غير المخطط له وغير المتوقع. بيد أن قراءاتها الكثيرة دفعته لمقارعة معرفتها ومعلوماتها. شعرت بأن جسد المرأة التي أضحت عليها جعلها عزلاء بلا خطوط دفاعية، مما أصابها بالجزع. أحست بأنه صار الآن جاهزاً وقادراً على إنجاب شيء لا ترغب به، ضد إرادتها، وعجز عقلها عن فعل أي شيء حيال الأمر. ماتت خوفاً من أنها، وحسب كلماتها، «وقعت في الفخ» الذي تقع فيه الشابات كل يوم، وحُشرت في وضع لا ينفك يسوء يوماً عقب يوم. لم تكن قد صارت بعد في مرحلة تسمح لها بالتفكير برصانة برجلٍ وزواج محتمل.

سألت جدها بنبرة مذعورة: «ما الذي سأفعله عندما أكبر؟».

«ما الذي تقصدينه؟ لدينا هذه المزرعة. يمكننا البقاء هنا حتى حياتنا الثانية».

نظرت إلى كومة القطن التي صنعها غرانغ وبدت رائعة الجمال تحت ضوء القمر. ثمّة حديقة ودجاج وخنازير. ستكون حياة مثالية لشخص معتكف.

قالت: «لن أكون ناسكة. أود الرحيل من هنا يوماً ما. لا أقصد التقليل من شأن مزرعتك، بالطبع. كما تعرف، أفكر بالذهاب ربما إلى الشمال، على غرار ما فعلت، أرغب برؤية نيويورك، وشارع 125، وكل النوادي الليلية حيث يقف الناس ويقبّلون بعضهم بعضاً أمام سمع العالم وبصره».

قال غرانغ بصرامة: «لن أسمح لك».

«لن أرحل من دونك»، قالت هذا كما لو أنه يتعين عليه أن يخجل من نفسه لظنه أنها قد تقدم على فعل كهذا.

«ما زلت غير راغب بالذهاب إلى هناك، المكان بارد هناك مثل ثديي ساحرة، ومقرف، ويتحدث الناس معك بطريقة مضحكة».

«سبق لك أن أخبرتني عن كل هذا، لكن ما الذي سأفعله هنا؟ يمكنني العمل عوضاً عن الأخت مادلين، لولا أنها ما تزال قائمة على رأس عملها، رغم كبر سنها. في الواقع، أعتقد أن ما تطلبه مني يحولني إلى عرّافة تبث الذعر في قلوب السيدات البيض غير المصدقات. كما أنني لا أعتقد أنني الشخص المناسب لاقتلاع الجذور وتسميد الأشجار بالروث! يا للقرف! ربما بوسعي أن أعلّم مثل الآنسة غرايسون، لنغدو غبيتين تعملان معاً. لكن لا أجرؤ على الوقوف أمام هؤلاء الأطفال وأنا على يقين تام من أنهم لا يستطيعون سماع كلمة مما أقوله. كما أنني أحتقر الآنسة غرايسون كثيراً ولن تسعد كثيراً بصحبتي».

قال غرانغ: «أنتِ أذكى منها. تقرأين الكثير من الكتب التي ستعينك على معرفة ما يتعين عليك تعليمه لكل شخص».

«ذكائي الذي يفوق ذكاء الآنسة غرايسون هو أكبر عائق سأواجهه. ستقف خلفي يوماً ما وترميني في البئر. العاهرة العجوز اللئيمة!».

«لا ضرورة لأن تتحمسي كثيراً. لقد أمرتها بألا تعاملك بفظاظة بعد اليوم. هددتها بأنني سأعصر عنقها إلى أن يصل إلى جدار عينيها. وسأفعل الشيء ذاته مع زوجها».

تنهدت روث. «ما الذي بقي لديّ لأفعله!»، هرعت إلى غرفتها وأحضرت الجريدة. وفتحت صفحة الإعلانات: «'مطلوب: حسناء جنوبية الجمال، شخصيتها محببة، للعمل بوصفها موظفة استقبال في شركة قانونية'». ثمّة شركة قانونية واحدة في البلدة وكانت ملكيتها للبيض. «جمالي لن يرقى إلى المستوى المطلوب على أي حال»، تمتمت روث وواصلت القراءة: «'مطلوب: سيدات من البيض لشغل وظائف في مصنع للخياطة. مصنع جُدّد حديثاً وتحت إدارة جديدة بحاجة إلى خياطات لصنع أفرولات. مدربات تدريباً جيداً'. قالت: «الخ الخ». في قسم إعلانات الوظائف المخصصة للملونين، ثمّة وظيفة واحدة فحسب شاغرة تطلب 'سيدة ملونة في منتصف العمر لمزاولة عمل خدمي مسائي، تتمتع بخبرة في كي الملابس والطهي، لقاء 6 دولارات في الأسبوع'. تركت روث الجريدة ونظرت نحو غرانغ.

«تعرف أني لن أصبح طاهية تعمل لدى أي شخص، أليس كذلك؟»

أيدها غرانغ: «لن تصبحي ذلك».

«حسناً، ماذا برأيك سأعمل عندما أكبر؟ ثمّة والت تيريل واحد فحسب»، أضافت بمرارة، «وروسل فازت به!».

قال من دون قناعة تامة: «لن تبيعي نفسك، لا تفكري مجرد تفكير بذلك. ربما سيظهر شيء ما. الأوضاع تتغير». «الرؤساء يتغيرون، قد نحظى برئيس يساعدنا أحياناً. روزفلت، لا تتذكرينه، لكنه دعا ذات مرة بوكر تي واشنطن[15] على الغداء في البيت الأبيض. كنا نحن البقية نتضور جوعاً، لكن الدعوة ساعدتنا حينها بعض الشيء. والآن الرئيس هو آيزنهاور، رجل هش، شكله يشبه الأفعوان السام أكثر من أي وقت

15- بوكر تي واشنطن (1856-1915) كاتب أميركي من أصول أفريقية ومدافع عن حقوق الأميركيين السود، يعتبر من أهم المفكرين المؤثرين في أواخر القرن التاسع عشر. قدّم خدمات جليلة لتعليم الأميركيين من أصول أفريقية، وشغل منصب مستشار رئاسي في عهدي الرئيس ثيودور روزفلت والرئيس ويليام هوارد تافت. (المترجمة)

مضى، لكن المحكمة دأبت على إخبار الجميع أن مدارس السود لا ترتقي إلى مستوى مدارس البيض ويقولون إنه سيعمل على حل هذا الموضوع».

«في هذه الأثناء، ستظل مدارسنا تعاني من الافتقار التام إلى الكفاءة».

«لا تقاطعيني. ما أعرفه، وما أزعم أني على دراية جيدة به هو أن الناس يتغيرون. هذا هو السبب الأساسي لضرورة عدم الاستسلام. لماذا، لو عرفتِني عندما كنت يافعاً قوياً وجذاباً، أشرب وأتشاجر وأضرب جدتك، لهربت مني. كنتِ لتفعلين ذلك بلا ريب، لستِ صبورة. لكنك الآن لا تهربين (لأنك أساساً لم تكوني قد ولدتِ بعد ولم يكن أحد حتى قد فكر في إنجابك حينها) وها أنتِ ترين ما أنا عليه الآن، مروضاً ومتحضراً نوعاً ما، أعاقر الخمر كرمى لمعدتي فقط، مثل رجل نبيل، أجوب الحقول بحثاً عن فتاة واحدة فحسب، وأنفق في البيت كل نقودي. ولا تنسي، كان هناك دائماً سود يكافحون في سبيل حياة أفضل. قد يزداد عددهم ليشمل الجميع. لا أعرف كيف سيحدث ذلك. لم أر في حياتي مثل هذا العدد من الزنوج المساكين كما رأيت حينها، أقصد جيل والدك، لكن مع حدوث التغيير الصحيح وبوجود القائد المناسب، قد نحقق ما نحلم به.

«مرت لحظات لم أكن أملك فيها حياتي، ثم حلت فترة تساوت فيها الحياة مع الموت بالنسبة إلي، وما كنت لأكترث إن خسرت حياتي، على شرط أن أزهق أيضاً أرواح عشرات البيض. ما زلت أميل للاعتقاد أن تلك كانت أجمل لحظات حياتي. ولاحقاً عدت إلى هنا، قرفت من تلك المشاعر، ورأيت باقي شعبنا يرتلون صلواتهم. الله أو شيء ما أرسلك إلى أحضاني. وهمس صوت لي وقال 'توقف عن العبث بحياتك أيها الزنجي، إليك الدافع لتستجمع نفسك وتتماسك.

عندما يدنو أجلي، ستؤول هذه المزرعة إليكِ دون سواك. دفعت ثمنها كل حيلة وخدعة أعرفها. السياج الذي شيدناه حولها سيصون حريتك بالتأكيد، طالما لا تهابين حمل بندقية. البندقية مهمة. لأنني أدرك

أن الحب لا ينفع مع الجميع. القليل من الحب والقليل من الرصاص، هكذا برأيي تستطيعين تسيير أمورك على خير ما يرام.

على أي حال، لربما تعرفين أيضاً أنني لا أكترث كثيراً لأي شخص سواكِ. أذكر عندما كنت من رواد الكنيسة، حاولت أن أشعر بشيء حقيقي ومهم يدفعني إلى حب العالم. لكنني لم أصل إلى ذلك الشعور على الرغم من كل محاولاتي. خضتُ وجدّتك شجارات لا تنتهي حينها حول أمور شتّى، وأحسب أننا غرقنا بكل تلك المتاعب لأنها حملت في قلبها حُبّاً لجميع أطياف البشر، حتى أولئك الذين لا تربطها بهم أي علاقة.

كرهني البيض وكرهت نفسي إلى أن بدأت أكرههم بدوري وأحب نفسي. ثم حاولت أن أحب نفسي فحسب، ثم أن أحبكِ، وتجاهلتهم قدر استطاعتي. أنت مميزة بالنسبة إليّ لأنك قطعة مني، قطعة مني لم أسعَ للحصول عليها. أود أن يطول بك العمر، وتنجبي دزينة من الأطفال، لتريهم ما جعلتِنِي أراه، وأنه ما من فائدة تُرجى على الإطلاق من الرؤية إن لم ير المرء الأمور بعين قلبه!».

نظرت روث بريبة: «وكل هذا سيحدث من وراء السياج؟ سأموت من السأم بانتظار انتفاضة السود لأتمكن من الانضمام إليهم. ونظراً إلى جهوزيتي للتمرد وعدم جهوزيتهم، يُخيّل إليّ أن بوسعي الانتفاض أولاً ليتبعوني». سألها: «أخشى أنك لست جاهزة بعد للعب هذا الدور، لست مستعدة للعطاء بعد. كم عدد السود برأيك، أقصد السود الذين قد ينتفضون من دون أن يعيقوا تحركك؟ وكم من البيض أيضاً؟».

عدّت السود الذين تعرفهم على ثلاثة أصابع، أحدهم فقط محارب قديم، بينما لم تعد أحداً من البيض.

-44-

عقب رحيل جوسي، انتقل سحر الكوخ تدريجياً إلى المنزل، سحر السلام والسكينة والطمأنينة الآسرة التي ينعمان بها إلى أبعد الحدود. وتمتع غرانغ وروث معاً بجمال السجاد والستائر والصور وأغطية الوسائد. كانت غرفة روث شمساً حقيقية مفعمة بالسطوع ويطغى عليها اللونان الأصفر والأبيض. صنعت لحافاً قطنياً أصفر وأبيض ومدته على سريرها، وكانت الستائر سويسرية منقطة وشفافة. تناثرت الكتب على مكتبها الذي اختارت له مكاناً مطلاً على الغابة. أحبت الأساطير والأخوات برونتي وتوماس هاردي وأي كاتب رومانسي. ولو تحطمت سفينتها ووجدت نفسها على جزيرة مهجورة، فستصطحب معها جين آير، وقاموس جيب، وجميع كتبها التي تتحدث عن أفريقيا. كما ستأخذ معها خرائط كل القارات، وكل ما لديها من مؤلفات تشارلز ديكنز، والكثير من الأوراق وحزمة من أقلام الرصاص. وستترك على مكتبها كتاب الإنجيل ذا الغلاف الأحمر الذي سرقه غرانغ من عربة تسوق كانت خارج غرفة فندقية، كما ستأخذ معها قاموسها الكبير الثقيل الذي جلبه لها من حيث لا تدري، ونسختها من كتاب «آداب السلوك» للآنسة فاندربيلت، الذي عمدت إلى تجاهله قدر إمكانها، مَن دون أن تُشعر جدها بمدى حماقته لإقدامه على إحضاره لها. ومن ملابسها، ستختار سروالين وقميصين منقشين وأحذيتها الشتوية وسترتها الصوفية الحمراء، وربما فستاناً واحداً. ستأخذ المدلاة التي أهداها غرانغ لها في عيد ميلادها الرابع عشر وتحمل صورة ميم.

وتظهر ميم في الصورة زوجة شابة قلقة مفعمة بالأمل ومعها طفلة. تأملت المدلاة بعينين هادئتين غير مصدقتين.

أما غرفة غرانغ فقد طغى عليها البني والأحمر والأزرق والأسود، وكانت غرفته جزءاً منه، تفوح برائحته وبرائحة التبغ والقش، وبالقليل من رائحة نبيذ البرتقال. وعندما كان يجلس إلى جوار النار، يضع حذاءه فوق الأحجار البنية التي صُنعت منها مدفأته، فيما سرواله الفانلّة الداخلي الأحمر المعلّق على كرسيه الهزاز يرجح كفة الأحمر ويخفف من غلبة الأزرق الطاغي في ألوان اللحاف الذي بسطه فوق سريره. وعلى امتداد ثلاثة أرباع العام، تنتشر الأزهار في كل غرفة من غرف المنزل، وكذلك في غرفتي النوم وفي المطبخ، وبالطبع في غرفة «الضيوف» التي تستقبل ضيوفهما القليلين، ليجلسوا ويحتسوا رشفة من منقوع زهر السوسن أو شاي عشبة الساسافراس.

قد يسأل أجرأ ضيوفهم: «ما هذه الأعشاب؟» مستذكراً ربما إحدى تعليقاته الفظة أو تعليقات آخرين حول غرابة أطوار مضيفهما.

ترد روث: «هذا شاي الخلاص»، غامزة جدها الجالس بصمتٍ ينفث الدخان، متجاهلاً الضيف تماماً، باستثناء عندما يعلّق قائلاً: «قدّمَته لك، من الأجدر بك أن تشربه»، فيما يبدو جليّاً أنه كان مرتاحاً تماماً قبل زيارة الضيف المزعج الذي يزورهما دائماً بدافع الفضول.

وقد يسألون أحياناً للدفاع عن أنفسهم: «كيف لك أن تعرف؟».

«أنا علّمتها»، يأتي تأكيد غرانغ غير المكترث، الذي لا يستجمع أحد قط الشجاعة لمقارعته.

أضحى غرانغ في هذا العمر أكثر سكينة، واثقاً بما لا يرقى إليه الشك من المهمة التي أوكلت إليه. تجلّت مهمته الأولى في العالم في تهيئة روث لمهمة جليلة تتطلب شجاعة وإقداماً استثنائيين، إضافة إلى خوض صراعات مميتة وتجرع مرارة الواقع القاسي المنذر بنذير شؤم. لم يؤثر أي شيء فيه لدفعه إلى الندم على الطريقة المستقلة التي اعتمدها لتربيتها.

نصحه شمامسة الكنيسة بتعليم روث كيفية تجنب مداعبات الأخوات الورعات وتحاشي عناق الإخوة المعمِّدين، لكن جميع نصائحهم ذهبت أدراج الرياح. كما حذره الواعظون والمبشرون من وثنية روحها الشابة. وساد اعتقاد أن روث تعلمت حتى كيف تعض اليد التي تطعمها روحياً، وكان هذا الاعتقاد في محلّه.

«قبل أن تسمحي لهم بتعميدك في تلك الجداول والخنادق المائية، بعد رحيلي، اركليهم على سيقانهم ودعيهم يغرقون». لهذا الغرض بالذات، كلّف شاباً أبيض فقيراً بمهمة تعليمها السباحة.

قال لها: «أصفاد العبد مقيّدة من إحدى جهتيها إلى كل صخرة وجنبة. قبل أن تسمحي لشمّاس ضائع بلمسك بقفازه، اركليه ركلة قوية بقبضتك على أذنه الإنجيلية، وشديها إلى أن ينزلق أنفه».

اعتقدت مختلف الجماعات أن روح الشيطان تلبّست بالفعل روث كوبلاند، وكان تبنيها لتعاليم غرانغ أكبر دليل على صحة نظريتهم. صعقهم أن أبهج لحظاتها كانت عندما تأتي بصحبة جدها إلى الكنيسة، فيقهقهان ويضحكان في أماكن رصينة.

الفصل العاشر

-45-

بعد انتقال جوسي للعيش مع براونفيلد، رأتهما روث عدة مرات يتسكعان في الغابة خلف المدرسة. هرب زملاؤها في الصف من والدها، فيما سخر بعضهم منه. أما جوسي التي غطت وجهها بطبقة من المساحيق وارتدت شعراً مستعاراً كيفما اتفق، فكانت تقف إلى جواره تسند جسده الثقيل الثمل وترمقه بنظرة صابرة تختصر طول تحملها وجَلَدها، حيّرت تلك النظرة روث تماماً. اعتاد غرانغ، لا سيما في الأيام الغائمة، على إيصالها إلى المدرسة وتركها عند البئر، وإن لم يوصلها إلى هناك، فعلى الأقل إلى محطة توليد الطاقة الكهربائية الموجودة على تخوم الملعب. وجدا أنفسهما في أحد الأيام وجهاً لوجه مع براونفيلد وجوسي. كانا يتبختران في محيط المدرسة كعاشقين، وما انفك براونفيلد يسوّي لها وشاحها كل خطوتين. تهامسا وسخرا من حارس أسود يعمل في مكتبة البلدة المخصصة للبيض، حيث كان غرانغ يثمل في كل مرة يقصد فيها المكتبة لسرقة الكتب من أجلها. لم يلحظا وجود براونفيلد وجوسي إلى أن كادا يصطدمان بهما.

قالت جوسي بوقاحة، وعينها مسمّرة على أصابعهما المتشابكة: «حسناً، إن لم يكن جولد داست توينز»، الغيرة العارية التي قرأتها في عينيّ زوجة جدها للمرة الأولى صعقت روث.

قال براونفيلد: «أجل»، استبقى يده على كتف زوجة أبيها وكأنها ملكيته الخاصة: «اللعنة على جولد داست توينز. لقد خرجنا لنتنزه فحسب!». وفرك راحة إحدى يديه ببذاءة على مقدمة سرواله.

ذُهلت روث واعتراها ارتباك هستيري، والتصقت بجدّها محاولة عبورهما من دون رؤيتهما. ورغم أنها سبق لها أن لمحت والدها من نافذة صفها، فقد استطاعت إقناع نفسها أنه لم يكن حقيقياً، وأن ذلك الطيف غير حقيقي ولم يكن يوماً من لحم ودم. واستحضر صوته الثمل إلى ذهنها هلعاً سعت بكل قواها لنسيانه.

قال غرانغ: «حسناً، حسناً. زوجتي وابني». حدّقت روث في عينيه الجامدتين، وبدا أن لونهما مزيج من البنيّ والأسود، خُيّل إليها أنه هرِم في لحظة وأضحت بشرته شاحبة وجافة. كانت إحدى تلك اللحظات القليلة التي رأته فيها رجلاً مسناً، إحدى المرات النادرة التي قد يعلن فيها أنه اكتفى من كل شيء وحان لأجله أن يدنو. ارتدى يومها سرواله «الأفرول» وحذاءه الجلدي، ومعطفه العتيق المصنوع من قماش الغبردين المخصص لأيام الآحاد. كان ملمس المعطف ناعماً جداً عندما لمس وجهها، وفاجأها أن وجهها وصل إلى كتفه. سأل الثنائي الشبق: «ماذا تريدان؟»، سرت ارتعاشه طفيفة في صوته.

قال براونفيلد: «أريد ابنتي اللعينة. ليست ابنتك، إنها ابنتي وأنا أريدها».

قالت جوسي: «أجل»، ورفعت ثدييها العامرين بشكلٍ لا يحتمل، «إنها ابنته وهو يريدها. من غير اللائق أن يعتني رجل مسن بعمرك بطفلة صغيرة». استدارت تطلب الدعم من براونفيلد، لكنه كان يحدّق بروث، غارقاً فيما يشبه الغيبوبة. ارتعشت ابنته تحت وطأة نظرته البليدة المشككة. لم يخطر على بالها قط أنها أضحت في صباها تشبه والدتها شبهاً طفيفاً.

قال جدها بصوت ثابت، وقد استوى في وقفته: «لا أعرف لماذا لم يسجنوك سوى لسبع سنوات. يجب أن يحتجزوك في حظيرة».

قالت جوسي، محاولة إطلاق ضحكة، ولكنها كانت أقربَ إلى ذرف دموع مسعورة: «لكنها ابنته!».

قال غرانغ: «اخرسي»، لم ينظر نحوها: «أتحسبين أنك تصلحين أن تكوني أماً لها؟».

قالت جوسي: «حسناً، كلّا»، اقتربت بعصبية وحاولت لمس زوجها لكن الحياء لجمها. «إن عادت إلى والدها، سأعود إليك»، أيقظت الجملة براونفيلد من غيبوبته، وابتسم لها ابتسامة متكلّفة منذرة. خُيّل إلى روث أنها رأت جوسي تميل للخلف كما لو أنها تتحاشى صفعة. فاقت تلك الانتفاضة طاقة احتمالها وشرعت روث بالبكاء. رمت نفسها بين ذراعي جدها، وخالجتها ارتعاشات لاإرادية.

«لا أريد العودة إليكِ أيتها القحبة المتطفلة، المعاصي تلاحق المرء للأبد، وهذا ما حدث في حالتكِ. ليتني لم أرك يوماً». ثم تفرّس في ابنه بعينين تقدحان شرراً.

«اعتنيتُ بهذه الطفلة بعدما تسببتَ في تيتيمها. قتلتَ أمها. أين كنت طيلة هذه السنوات التي احتاجت فيها إلى أب؟ لم يكن هناك أثر لك! ما كان لأحد أن يجدك حتى وإن كنتما تحت سقف واحد إلا إن بحث في زجاجة ويسكي. ثم أودعت في السجن لإقدامك على قتل الجانب الوحيد الشريف في حياتك. لا أعرف كيف أقنعت البيض بإطلاق سراحك بهذه السرعة، إذ إنك لست نادماً على الإطلاق، رغم معرفتنا بأنهم لا يلقون بالاً أبداً طالما الأمر لا يتعدى بالنسبة إليهم أن زنجياً قتل زنجياً آخر! هل عقدت صفقة؟»، التفت نحو جوسي التي بدأت تنتحب، وقد أفسدت الدموع مساحيق التجميل التي تكدّست فوق وجهها. «ابقِ على موقفك. إن حسبتِ أن بوسعك تحقيري من خلال الهرب مع ابني، فأنتِ مخطئة. أنتما الاثنان من الطينة نفسها، تتخبطان في الوحل ذاته معاً!».

انتحبت جوسي: «لا تكن *قاسياً* هكذا يا غرانغ. لا *تقسُ عليّ كل هذه القسوة!*». قال غرانغ، متجاهلاً جوسي: «يظن أني لم أضطر إلى الهرب منه قبل زمن بعيد، وهو على حق. لكني حاولت أن أعوض ما فات غير

أنه لم يتح لي المجال. وهجر هذه الصغيرة. ولن يستعيدها الآن مجدداً، بصرف النظر عما سيفعله، ومهما حاول، لن يستعيدها!».

قالت جوسي: «لقد حاولت يا غرانغ»، لكن براونفيلد قاطعها: «لا تتوسلي إليه فلا جدوى من ذلك، إنه من الأتقياء اللعينين ولن يستمع إليكِ. «لكنك *لم تكن أباً لي يوماً* !»، قال مخاطباً غرانغ «ولن أسمح لك بالاحتفاظ بابنتي لتكفّر من خلالها عمّا فعلته معي!».

قال غرانغ: «أنت خسيس وغد!»، أبعد روث عنه، ملوّحاً بقبضته «لا تتفوه بكلمة واحدة-».

صرخ براونفيلد: «لم تعنِ شيئاً لي يوماً!»، لكنه لم يأتِ بأي حركة للاقتراب من والده.

قالت جوسي: «غرانغ. ابنك *يحبك*. أخبرَني عنكما. هجرتَه، ومن ثم يبدو أنه غرق في وحل كل مكان ذهب إليه وكان البيض فيه أكثرية. تعرف كيف تسير الأمور»، استجدته قائلة: «دفعوه لفعل أشياء لم يكن ليرضاها لنفسه».

اختنق غرانغ لدقيقة ومنعه القرف من نطق حرفٍ واحد، وعندما فتح فمه ليتحدث، التفت نحو روث قائلاً: «والدك علمني شيئاً لم أكن أعرفه عن العتاب والمعصية. كما ترين، أحسب أنه يلقي عليّ بمسؤولية جزء كبير مما واجهه في حياته. لم أصوبه ولم أسدِ له أي نصيحة، ويظن أنني لم أمنحه أي حب. ولكنه عندما صار رجلاً، وأتيحت له الفرصة لتصويب الخطأ الذي اقترفته بحقه من خلال الإحسان لأولاده، كان لديه الفرصة لأن يكون رجلاً حقيقياً، أباً يجني لقمته بعرق جبينه. كان ذلك الوقت المناسب لنسيان ما اقترفته بحقه وبحق أمه. لكنه أساء معَاملة بناته وزوجته ومنزله، ولم يلقِ يوماً اللوم على نفسه. وعدم تحمّله لأي مسؤولية *أضعفه*. لم يعد يتعين عليه التفكير بي وبالبيض للوصول إلى جذور جميع مشاكله. سحقاً إن كان التفكير بهذه الطريقة لا يأتي بأي نتيجة مثمرة».

قال براونفيلد: «لماذا أيها الوغد العجوز!».

أخرجت جوسي منديلاً صغيراً جداً، سرعان ما بللته بدموعها. قالت: «غرانغ»، مسحت بمنديلها عينيها الصغيرتين الدامعتين «تعلم أنك تتحمّل جزءاً من المسؤولية، وهذا بالفعل ما دأبت على الاعتراف به-».

قال براونفيلد: «اخرسي».

«وتعلم أنك دأبت على لوم البيض أيضاً. لأنهم سبب القذارة التي تعين عليك ابتلاعها..».

قال براونفيلد: «كل جزء منها».

واصل غرانغ مخاطبة روث، وقد أدار ظهره لبراونفيلد وجوسي. تحدث بسرعة، من دون أن يلتقط أنفاسه، ويداه تلوحان في الهواء.

«أقسم بالله أنني *أدرك* خطر إلقاء كامل اللوم على شخص آخر وتحميله مسؤولية الفوضى التي تعم حياتنا. وقعت في الفخ بنفسي! وأنا على يقين بأن البيض بوسعهم بتلك الطريقة إفسادكِ مهما صمدتِ. فعندما يدفعونك للتفكير بأنهم هم من يتحملون مسؤولية كل شيء، فإنهم يزرعون في رأسك فكرة أنهم آلهة! ما كنت لترتكبي أي خطأ لولاهم. أنت ضعيفة وهشة كالماء، عاجزة عن فعل أي شيء. ثم تعشّش الأفكار الشريرة في ذهنك، وتشرعين في تحطيم كل شيء حولك، وتلقين اللوم على البيض. *تباً*، لا أحد بالقوة التي نسبغها عليه. *أرواحنا* ملكنا، أليس كذلك؟».

قال براونفيلد: «بالنسبة إلى رجل عجوز يستطيع التهام عشرة على الفطور، وفق ما أخبرتني به جوسي، يبدو أنك تحولت فعلاً إلى عاشق هش!».

قال غرانغ: «لا أحب من الناس سواء كانوا من السود أو البيض سوى شخص واحد»، التفت لبرهة نحو ابنه. «وما أتحدث عنه ليس الحب وإنما الرجولة!»، التفت مجدداً نحو روث. «أقصد، قد يدفعني البيض للهرب من زوجتي، ولكن أين كان الرجل الرابض في داخلي الذي

حثني على الهرب، ومنعني من إخبارها عن وجهتي، وإخبارها بأنني أسامحها، وإعلامها عن الأخطاء الكثيرة التي ارتكبتها؟».

قال براونفيلد: «لم تكترث قط لأمر أمي!».

قال غرانغ: «ولربما دفعني البيض للاعتقاد بأن نكاح مئات العاهرات دلالة على فحولتي، لكن أين كان الرجل في داخلي الذي سمح لي بجلب جوسي إلى هنا لقاء رحلة رخيصة ووضيعة، حينما لم أكترث لأمر حياتها أو موتها، طالما تفعل ما أطلبه منها، وطالما حصلت على مزرعتي!».

قالت جوسي: «آه يا غرانغ، حبيبي»، اقتربت منه «لم يفت الأوان بعد، لا تقل ذلك».

قال براونفيلد: «هلا أغلقتِ فمك الداعر»، مبعداً يدها عنه.

أردف غرانغ: «وفي حالة والدك، ربما أرغمه البيض على العيش في أكواخ وضيعة، أو حتى أجبروه على ضرب زوجته وبناته كما لو أنهن كلاب، كي يشعر بالتحسن وبأنه أكثر من مجرّد حثالة. ولكن أين كان الرجل داخله الذي سمح لبراونفيلد *بقتل* زوجته؟ من السافل الذي ضغط على الزناد؟ وحتى في حال دفعه وغد لقتل زوجته، كان من الأجدى لبراونفيلد أن يصوّب البندقية على نفسه، لأنه لم يكن رجلاً حقيقياً. سمح للوغد بالقبض على البندقية، لأنه كان أضعف من أن يميز بين إرادة الوغد وإرادته! الأمر ذاته ينطبق عليّ. نحن الاثنان ألقينا بمسؤولياتنا على الآخرين، ومن دون مواجهة الرجل *لبعض* أخطائه على الأقل، فإنه يفقد رجولته».

أضحت عينا غرانغ دامعتين الآن، التفت ليواجه ابنه. قال: «لو أتيح لي إعادة رسم حياتي، لكنت تضورت ووالدتك جوعاً في كوخ أحد البيض، ولكن كانت لتموت حينها بين ذراعي! لأن هذا أقصى ما باستطاعتي فعله، وأعتقد بأنها كانت سترى أي الرجال أنا».

كان غرانغ يرتجف كما حفيدته تماماً، وهذا التداعي والضعف اللذان لطالما كانا مصدر قوته شجعا براونفيلد.

قال براونفيلد: «ابن العاهرة أشعث الشعر»، شعر براونفيلد بالضيق لأن والده أطال شعره، «وأي فائدة كانت لتعود على أمي إن أمسكت بيدها وهي تحتضر؟ عندما يتضور الإنسان جوعاً، لا يحتاج لأي من هذه الحركات السخيفة».

«لكن كان على جميع أجوبتي أن تتمحور حولها هي، ألم تفهم بعد؟ لا أحد يكترث لأمري سوى والدتك، وأفسدتُ كل شيء محاولاً أن أكون رجلاً بحق! بعد مرور سنتين على إنشاء المزرعة من دون أن تعود علينا بأي فائدة، أدرت ظهري لما كنت أفعله. عجزت عن مواجهة إخفاقي في إحراز أي تقدم. زبدة الحديث يا براونفيلد»، أخفض صوته ليغدو أشبه بالهمس: «هي أنه تعين عليّ في أحد الأيام استرجاع ما جرى، لأرى مكامن خطئي، وعندما استرجعت ما حدث، اكتشفت أن والدتك لربما كانت حية ترزق اليوم لو أنني لم أطلق عليها النار، تماماً كما فعلتَ بزوجتك. نحن *آثمان* يا براونفيلد، ولن يضع أي منا قدمه على الصراط المستقيم أبداً قبل أن نعترف بهذا». قال براونفيلد: «لستُ مضطراً للاعتراف بأي خطأ لعين أمامك، ولن أسمح للبيض بأن ينفدوا بجلدهم بعدما أفسدوا حياتي!».

قال غرانغ: «أنا أتحدث إليك يا براونفيلد، وجلّ ما أقوله إنه يتعين *عليك أن تحتفظ في أعماقك بمكانٍ لا يمكنهم الوصول إليه*. لا يمكنك أخذ هذه الصغيرة لتحيل حياتها إلى جحيم فتتمنى الموت فقط بهدف الانتقام من بعض البيض الذين لا *تعرفهم* حتى. نواصل قتل أنفسنا في سبيل أشخاص لا يعنون أي شيء بالنسبة إلينا!».

«تقول المحكمة إنه بإمكاني استعادتها، سأواجهك في المحكمة أيها العجوز! وددت منحك فرصة لإجراء مقايضة عادلة، امرأتك العجوز مقابل روث». مد يده للمس روث لكنها نأت بنفسها على نحوٍ

مثير للشفقة. «لا أستحقك، أليس كذلك؟»، أراد أن يعرف ردة فعلها، وقطب حاجبيه. وخلال هذا اللقاء الغامض، لم تقو على التفوه بكلمة واحدة. أرادت أن تخبر براونفيلد كم تحتقره لأنه قتل ميم ولأنه السبب في معاناتها والسبب في كونها منبوذة وبلا أصدقاء، لكن فمها عجز عن النطق بحرف واحد. كانت مذعورة من أن ينفّذ تهديده وتجد نفسها مرغمة على ترك غرانغ للعيش معه.

قال غرانغ: «لن يستعيدك أبداً»، بينما ابتعدت جوسي وبراونفيلد عنهما، لكنه وضع يده على قلبه كما لو أنه يؤلمه، ورمقها بنظرة متشككة.

سارا نحو المنزل بخطى متعثرة واختارا طريق الغابة، غالبا دموعهما، وانهارا معاً للحظات. أجهشا بالبكاء كما لو أنهما يعرفان ما ينتظرهما، وكما استطاعت روث أخيراً تصور قدوم لحظة لن يكون غرانغ معها فيها، أيقنت أن غرانغ يتخيل لحظة ستخور فيها قواه المحبة التي تحميها، وستُترك مجدداً لمصير اليتم بصحبة أب متوحش، وحش خلق نفسه بنفسه.

قرأ غرانغ الإنجيل تلك الليلة لساعات قبل خلوده إلى النوم. شعر بإعجاب كبير إزاء الأطفال العبريين الذين هربوا من أرض الكنانة. وأعاد على مسامع روث ربما للمرة الألف قصة سفر الخروج.

قال: «أصابوا في هربهم».

«حقاً؟».

«لاذوا بالفرار عندما كانت بصيرتهم ما تزال متقدة، ويولون أهمية كبيرة لأرواحهم، وبعضهم لبعض أيضاً. قد أكون مخطئاً، لكن لم يحدث ما يثبت ذلك حتى الآن»، تمعّن في الكتاب على ضوء النار.

سألت روث: «ماذا؟».

«لا يمكننا العيش هنا أحراراً، نتنعم بحياة يسيرة في الديار. سنجنّ».

«هنا؟»

«لا أقصد هذه المزرعة، أقصد هذه البلاد، الولايات المتحدة. أعتقد

أنه يتوجب علينا مغادرة هذا المكان إن كنا ننشد النجاة والخلاص. خضنا كل هذا الصراع للإبقاء على الإنسان داخلنا حياً، في مكان لم يعرف فيه أحد سواكِ معنى الإنسانية. هذا أمر قاتل. ثمّة طرق عديدة للتخلص من الناس، أكثر من تلك التي يتم فيها التخلص من الأسلحة. سنؤدي أغاني جميلة ونطلب اللجوء السياسي».

قالت روث: «ربما من الأفضل أن يحدث شيء يقلب الأمور رأساً على عقب، شيء يجعلنا متساوين، لنشعر وكأننا في *ديارنا*».

«لا يمكنهم محو ما فعلوه، ولا نملك النسيان أو الصفح».

«هل من الصعب جداً مسامحتهم إن توقفوا عن الإساءة إلينا؟».

قال غرانغ: «بصراحة لا أعتقد أن بوسعهم التوقف عن الإساءة إلينا، ليس كلهم على أي حال». استرخى في كرسيه ووضع يده في جيبه. قال بتؤدة: «حتى لو استطاعوا فعل ذلك، فقد فات الأوان. أبحث في قلبي عن الغفران لكني لا أجد له أثراً. أقصى ما أجده عندما يتعلق الأمر بهم نوع من الخدر، بحيث لا أضرم المزيد من النيران التي ستحرقهم، ولا أسمعهم ينادون باسمي أيضاً».

قهقهت روث.

قال غرانغ بصرامة: «هذا الشعور ليس مدعاة للفخر. ليس إن أطلقت على نفسك صفة إنسان»، انحنى للأمام، ونظر بأسى إلى النار.

قال: «في طفولتي، اعتدت البكاء إن قتل أحدهم نملة. عندما أستعيد هذا الآن، يروق لي ذلك، وأحب تلك المشاعر. لا أود الجلوس هنا *غافلاً* عن نصف سكان العالم. أشعر أن شيئاً رقيقاً ودافئاً وحساساً ونوعاً ما خجولاً قد احترق في داخلي».

قالت روث بحنوٍ: «الخدر ربما أفضل من الكراهية». لم تر جدها قط مكروباً كما تراه اليوم.

قال غرانغ، كما لو أنه فكر بالأمر مطولاً: «المشكلة في الخدر أنه ينتشر

ليطال جميع أعضاء جسمك، القلب بشكل أساسي. بعد فترة وجيزة من توقفي عن سماع صرخات البيض التي تطلب النجدة، أتوقف أيضاً عن سماع صرخات السود». نظر إلى روث. «ربما لا أسمعكِ أنت أيضاً».

قالت روث: «ستسمعني جيداً جداً!».

سأل غرانغ: «والدك لا يسمعك، صحيح؟»، وعاد إلى قصة الأطفال العبريين.

قرأ بعد بضع دقائق: «*إِذَا انْقَلَبَتِ الأَعْمِدَةُ، فَالصِّدِّيقُ مَاذَا يَفْعَلُ؟*»

سألت روث: «يعيد بناءها؟».

قال غرانغ: «فات أوان إعادة البناء، لأن الصديق كان هناك عندما انقلبت»، قلب الصفحات وقرأ آية أخرى: «يُجَازُونَنِي عَنِ الْخَيْرِ شَرًّا، ثَكَلاً لِنَفْسِي». نظر نحو روث. «الله يعلم أن المرء قد يتعرض للإساءة زمناً طويلاً قبل أن يبدأ داخله بالتفسخ. إن عطب الروح هو ما يجعل الغفران مستحيلاً. يصير رفاهية لا نملكها»، أضاف مع تنهيدة: «كيف يمكن للشباب أن يظلوا متجددين هنا؟ هذا ما يقلقني».

قالت روث: «سيكون كل شيء على ما يرام»، أخذت الإنجيل منه وأبعدته عنه. «بالنسبة إلى رجل لا تروق له الكنيسة، من الطبيعي ألا تستسيغ ما يرد في هذا الكتاب».

قال غرانغ، متفرّساً فيها: «هذا أمر خطير، أنت محمية في هذه المزرعة... لا تعرفين مدى التعب الذي سينال منك بعد سنوات من الكفاح. أريدك أن تواجهيهم كلما اعترضوا طريقك أو حاولوا الإساءة إليكِ. وسيسيئون إليكِ حتماً، لأنك زنجية بالنسبة إليهم. اللعنة! أكرههم لأنهم تسببوا سلفاً في أذيتك! لكن لا أريدك أن تخوضي أي صراع معهم قبل أن تكوني جاهزة، قبل أن تصيري وغدة سوداء مثلهم! لأن عبوديتك لهم حينها ستكون تامة. أريدك أن تنفدي بجلدك قبل أن يحدث هذا لكِ!».

سألت روث: «لماذا لم تهرب؟».

قال غرانغ بأسى: «لأن العالم لم يكن كبيراً حينها كما هو الآن. ظننت أن الولايات المتحدة تغطي الكرة الأرضية بأكملها. كما أنني ما كنت لأشبع رغبات الأمهات».

قالت روث: «آه»، وقفت خلفه تلعب بمرح بأذنيه. «تعرف أنك أنقذت روحك في الوقت المناسب، قبل أن تفسد تماماً».

قال غرانغ متمنياً لو بإمكانه أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء: «ليتني لم أعرف ذلك. لكني أنظر إلى براونفيلد وجوسي وأدرك أنني كنت بطيئاً جداً وقد تخلّفت عنهما كثيراً».

استيقظت روث في منتصف الليل على صوت جلبة.

سألها جدها: «هل أنت نائمة؟». وقف فوق السرير. «جافاني النوم. أواصل التفكير بما حدث اليوم».

استوت روث في جلستها واستدارت نحو الضوء. وقف غرانغ مرتدياً قميص نومه الطويل، وقبّعة صوفية ضيقة على رأسه.

سألت روث بتكاسل: «ماذا دهاك؟»

قال غرانغ: «وددت إعطاءك هذا»، وناولها كتيّباً صغيراً.

«ما هذا؟».

«دفتر حساب مصرفي. وفرت بعض النقود لتغطية نفقات دراستك في الجامعة. يخطط والدك لفعل شيء ما ولا أعرف إلى متى أستطيع حمايتك منه».

فركت روث عينيها وفتحت الدفتر. كُتب فيه اسمها واسم غرانغ. وفي الحساب تسعمئة دولار.

«هذا فقط ما جنيته من التهريب». ذهب إلى غرفته ثم عاد ومعه صندوق سيجار متهالك، يصدر عنه صريرٌ وخشخشة. فتحه وبدأ بعدّ العملات الورقية والنقدية، عملات من فئة النصف دولار والعشرة قروش والخمسة قروش وغيرها. كان مجموع ما احتواه الصندوق أربعمئة دولار، أخذ عشرين دولاراً وبعض العملات الورقية ذات

الفئات الصغيرة. «وهذا ما كسبته من لعب البوكر»، اعتاد لعب القمار كل أسبوع تقريباً منذ مجيئها للعيش معه. أخذت روث صندوق السيجار ووضعته تحت سريرها.

قال غرانغ: «أودعي النقود في البنك غداً».

وعدته بلطف: «حسناً»، غالبت دموعها التي اختنقت بها.

قال غرانغ: «أهزم كل شركائي المسنين في لعب القمار شر هزيمة، أجعلهم يجيّرون سياسات حياتهم معاً لمصلحتك أيضاً»، أمسك بعض النقود في يدٍ، فيما قبضت يده الأخرى بخجلٍ على قميص النوم مبعداً إياه عن جسده. «خمّنت إن ماتوا واحداً بعد آخر بمعدل شخص واحد في السنة خلال السنوات القليلة المقبلة، يمكن لنقودهم أن توفر طلباتك. أعرف أن الطالبة الجامعية تحتاج لكثير من المتطلبات».

قالت روث: «لا يمكنني قبول ذلك! ماذا عن أولادهم؟ لديهم أيضاً متطلبات!».

«حسناً، هذا قرارك. إن احتجتِ للنقود، فهي لك، أنا ربحتها». صمت لدقيقة، أطرق برأسه. سألها: «أنت لا تحسبين أنني أرتكب خطأ بفعل ذلك، أليس كذلك؟». نظر إلى العملات النقدية التي في يده. «أظن أن ما فعلته لم يكن *إنسانياً*».

قالت على الفور: «لا ألومك. أعلم أنك فعلت هذا من أجلي. لكنني لا أحتاج النقود، مع كل المال الذي أعطيتني إياه! لا تقلق وتفكر كثيراً بما سيجري»، مدت يدها لتلمس يده. «لربما براونفيلد ثمل الآن لدرجة لا يتذكر حتى أنني ابنته!».

قال مجدداً قبل أن ينصرف: «عليكِ أولاً إيداع هذه النقود في البنك غداً صباحاً».

قالت له بنبرة آمرة: «اخلد للنوم».

قال: «وأنتِ أيضاً»، لكن سادت أجواء مشحونة لساعات، ولم يرقد جفن أي منهما.

تطلّبت إدارة المنزل قدراً معيناً من التنظيم الذي افتقرت إليه سابقاً. دُفعت الفواتير كاملة وشرح غرانغ لروث كيفية إدارة النفقات. ولوحق المعارف القديمون وأُرغموا على دفع المبالغ المستحقة. كبر حساب روث مع ورود دفعات بسيطة عقب أخرى. دولاران من فريد هيل، خمسة دولارات من مانويل ستوكس، ستة عشرة دولاراً من ديفيس جونس لقاء الخنزير الذي اعتنى به قبل ثلاث سنوات. رُمم السياج، واستُبدلت الأجزاء المتهالكة منه، وشُدت الأسلاك لتغدو أمتن. أُخرجت جرار النبيذ ودُفنت وفقاً لتوجيهات روث. وأُغلق جهازان لتقطير الكحول، أما جهاز التقطير الصغير المتبقي ذو الكفاءة المتواضعة فقد هُشّم بسهولة. وبمناسبة عيد ميلادها السادس عشر، وعندما انحسر خوفها من براونفيلد بعض الشيء، جعلها غرانغ المالك الوحيد لسيارتهما القديمة. كان قد علّمها قيادة السيارة، وصار يتعين عليها الآن قيادتها داخل البلدة للتسوق، لتواجه بمفردها وللمرة الأولى البيض الذين يمتلكون البلدة ويديرونها. رمت خطة غرانغ إلى تعليمها كل شيء عرفه. وراق له التباهي والتفاخر بها والقول: «أهدافك أسمى من أهدافي بأشواط!».

أراد على ضوء الظروف المحيطة أن يعلّمها كيف تعيل نفسها بنفسها، وعارض تصرفاتها الصبيانية. تذمر عندما تحدثت عن قص شعرها ليصير سحابة عاصية متمردة تُثقل رأسها. أصرّ على أن ترتدي الفساتين عوضاً عن سراويل الجينز، في عطلة نهاية الأسبوع على الأقل، وأن تملأ طاولة التزيين بمراهم من ماركة «نوكزيما» و «بوندس» لترطيب يديها. أضحى أرقّ من أي وقت مضى، يجلس لساعات ينفث دخان غليونه من دون نطق كلمة واحدة. أمضى سهرات بطولها يتفحص الخرائط ويتساءل عن أمكنة في العالم لن تراها عيناه قط، وتدريجياً أمسى ما يصبو إليه ملموساً نوعاً ما. وانطلاقاً من إيمانه الراسخ بأن نقاء حفيدته ويقظتها وحس دعابتها وتعاطفها أهم من أي وطن أو شعب أو مكان، تعين عليه تهيئتها لحماية هذه الخِصال. مؤكداً، ومقسماً بحياته، أن أميركا

ستقتل براءتها وتطفئ في نهاية المطاف العينين الكبيرتين اللتين تبحثان عن بذور الحقيقة في كل شيء، يتوجب عليه أن يجعلها تغادر من دون الالتفات إلى الخلف.

ورغم ذلك، ينبغي أن تتمتع طيلة فترة بقائها هنا بأوقات سعيدة حافلة بالمرح والضحك، قانعة بكونها امرأة، لتجد حتماً السعادة يوماً ما برفقة رجل وأطفال. عليها أن تستمتع بكل لحظة من حياتها، بصرف النظر عمن حولها، وسيكون هناك في كل يوم شمس وبهجة أو مطر وحزن أو لحظات تأملية تفكر خلالها بالحياة برصانة. يجب أن يكون كل يوم ماضٍ وحاضر ومستقبل، مفعماً بالرقص وصنع النبيذ والشرب وأقل قدر ممكن من الندم. ينبغي أن يكون مستقبلها هو اليوم الذي تعيش فيه. تلك كانت الأفكار التي شغلت باله أثناء جلوسه أمام النار، ينفث دخانه، أو جلوسه فوق سريره، مقوّساً ظهره يقص أظافره. لم تكن النجاة هي ما يشغل باله، فقد نجا، لكن النجاة على كل الأصعدة كان ما يرجوه لروث.

-46-

رأت روث والدها بمفرده ذات يوم على طريق المدرسة، منتظراً على قارعة الطريق، مقرفصاً بالقرب من الأسفلت، كما يقبع متشرد قرب النار، وجهه صافٍ يلمع تحت أشعة شمس الساعة الثامنة والنصف الصباحية النقية الرحيمة. قفز قلب روث عندما رأته، وما انفكت تمسح جبينها بيدها، كانت قد اكتسبت مؤخراً عادة مسح جبينها بين فينة وأخرى، مسحته عدة مرات قبل أن تجد نفسها إلى جواره. غذت خطاها وأشاحت بوجهها عنه. تخيلت نفسها تسير بحذرٍ حول ثور يرعى وسيهرول نحوها في غضون ثوانٍ، لكن براونفيلد استوقفها من دون أن يمد يده ليمسك بها، وهذا ما كانت لتطيقه، ولكن من خلال الوقوف بمفرده كأخرس على قارعة الطريق.

مقارنة بكتف الطريق المعشوشب، بدا أصغر عما رأته عليه آخر مرة. أحست بنفسها أضخم، إذ لم تعد طفلة في السادسة عشرة، ولكن لم يفارقها شعورها بالضآلة في الوقت ذاته، لأنها واجهته بمفردها. كان براونفيلد صاحي الذهن مما فاجأها، ارتدى قميصاً نظيفاً فضفاضاً نوعاً ما، كما لو أنه خسر وزناً أو ارتدى قميص شخص آخر، ولاحظت للمرة الأولى دوائر متشابكة من الشعر الأبيض الممتد من صدره حتى أسفل رقبته المجعدة الجافة. وعندما طافت عيناها متفرّسة في وجهه، استوقفها الشعر الذي يغطي صدر والدها، تعلّقت بهذا الاكتشاف محاولة تأجيل صاعقة النظر إلى عينيه ولو للحظة. طفحت عيناه اللتان أخافتاها، واللتان

دأبت على تحاشيهما، بحزنٍ أليم لطالما تجاهلته، وشعرت أنهما تحاولان التحدث إليها. سرت قشعريرة في جسدها، وتشبثت بكتبها وضمتها إلى صدرها بيديها الاثنتين. وعندما لاحظ ارتباكها، نظر إلى حذائه. امتلأ الأثير المحيط بهما برائحة غبار القش الزكية، إلى جانب عبق تراب أحمر وعبير الأزهار المتفتحة في جورجيا خلال فصل الربيع. وسُمعت أصوات العصافير التي بدت سرمدية، إلى جانب الضوضاء القادمة من المدرسة.

بادرته بالسؤال: «ماذا تريد؟»، وانتابتها مشاعر مختلطة من الخوف والغضب والأمل في آنٍ. عجزت عن فهم مصدر الأمل الذي راودها. لم يكن لوالدها قط أن يقدم أي تفسير لهذا الإحساس. حدّثت نفسها بأنه ثمّة شيء متعلق بأبي يدفعني للشفقة عليه اليوم، وتوجست بحذرٍ للحظة، مما أثار استغرابها أكثر. رطّب براونفيلد شفتيه بلسانه. وعلى خلاف عادته، وعوض أن تطفح الويسكي من خلاياه كلها، بدا صاحياً تماماً اليوم، لا أثر بادٍ للويسكي عليه.

بادرها متلعثماً: «أنت، تبدين مثل والدتك تماماً».

قالت روث بحدة: «نعم؟ لكن ماذا تريد؟».

قال بوداعة وبتروٍ، كما لو أنه يهابها: «أود التحدث إليكِ إن لم يكن لديك مانع».

وسط الصمت الذي لفّ المكان، صمت لا يعكّره سوى زقزقة العصافير وصوت أجراس المدرسة، استبقى براونفيلد ابنته أمامه، وأطال النظر إليها. كان الموقف مربكاً وغريباً. شعرت بأنه يراها للمرة الأولى في حياته.

بعد لحظات من تحديقه النهم، قالت بصوت خافت: «عليّ الذهاب الآنَ»، سمّر عينيه عليها ولو كانت واحة في صحراء لما أمعن النظر فيها بكل هذا التوق والشوق. استطردت متمتمة: «تأخرتُ عن المدرسة»، وغمرها شعور بالقيظ والبرد معاً. لكنه قال: «مهلاً!»، ورغم إحجامه عن لمسها أو الوقوف في طريقها، فإنها لم تأتِ بأدنى حركة. واصل

تفحصها. ثمّة حزمة ملفوفة بعناية بالقرب من قدميه، بدت كما لو أنها حلوى. لم تسمح لنفسها باستراق أكثر من نظرة خاطفة عليها، إذ إنها لم ترغب بأخذ أي شيء منه، لكنه لاحظ نظرتها وقال: «هدية لك»، غير أنها فطنت لمكره، «يقولون إنك قارئة نهمة».

سرعان ما استعادت روث السخط والنقمة اللتين غالباً ما تشعر بهما كلما فكرت فيه. بعد مرور كل هذه السنوات التي خلت من أي شيء سوى العدم، يفكر بكل وقاحة بأن بوسعه حثها على تقبّله من خلال إهدائها كتاباً بائساً!

سألته ببرود، رغم الحرارة اللاذعة التي لسعت المنطقة الواقعة خلف عينيها: «ما هذا؟».

«لماذا، مهلاً، حسناً، لا أذكر الاسم، لكن جوسي حسبت أنه قد يعجبك».

«حسناً، أخبر جوسي بأنه لا يعجبني، ولن يعجبني طالما أن لكليكما يداً في الموضوع!». أثناء حديثها، ركلت بفظاظة الأرض وأهالت كومة من التراب فوق الكتاب. ذُعرت من فعلتها هذه، لكن براونفيلد بالكاد لاحظ ما حدث. واصل التحديق فيها، متعجباً من حجم جسدها الضخم، ومن صوتها، وكينونتها برمتها.

همهمت بصوت بالكاد يُسمع: «سحقاً»، تساءلت بينها وبين نفسها: إلى ماذا ينظر؟ هل يحاول التكهّن إن كنت أستحق المجهود الذي سيتكبّده للحصول عليّ؟ ثم فكرت، أيها الرب الرحيم، لا تدعه يلمسني بيديه اللتين تشبهان السلاح، وستظلان تشبهان بندقية للأبد! بدأ سخطها يفتر، سرت القشعريرة مجدداً في جسدها، وارتعش جبينها وخدّاها. ارتفعت درجة حرارة جسدها وشعرت بأن احمراراً غطى بشرتها، كما لو أن التراب علق بها.

سأل براونفيلد بعد برهة بنبرة اتهامية: «لا تذكرين والدتك حتى، صحيح؟»، فاضت عيناه بذكرى عابرة وغيرة حارقة مستعادة.

قالت روث: «عندما ماتت... كنت صغيرة جداً»، نظرت إلى عينيه مباشرة: «لكني أتذكرها. لا يمكنك نسيان والدتك، أو أي عزيز على قلبك». سألها بنبرة خشنة محاججة: «لكنك نسيت والـدك؟»». ثم استطرد: «تتصرفين كما لو أنك لا تتذكرينني. الطفلة التي تكنّ احتراماً لوالدها تهرع إليه وتعانقه!»، خلا صوته من الازدراء الذي طغى على نبرته منذ لحظة، أضحى صوته كهلاً ووحيداً ومستجدياً.

استطاعت روث لثانية رؤية مدى التشابه بينه وبين غرانغ. فكرت بما قاله غرانغ لها حول قدرة الناس على التغير، رغم أنه غير رأيه بهذا الأمر لاحقاً. لكنها لم تشأ سماع أي شيء عن التغير الذي طرأ على براونفيلد، لأنها ما كانت لتصدقه يوماً.

قالت روث: «لم تكترث أبداً لأمرنا. لم تكترث يوماً لأمر أمي أو دافني أو أورنيت أو لأمري». فكرت بينها وبين نفسها: لا تروقني أي من التغيرات التي طرأت عليك الآن. كرهت وأحبت نفسها في ذات الوقت بسبب افتقارها لأي مشاعر إحسان في هذه اللحظة. وشاهدت للمرة الأولى بأمّ عينيها ما عرفه غرانغ عن براونفيلد: تزمته وافتقاره إلى التسامح، ورأت الأذية التي ألحقها بهم والتي يستحيل البراء منها. رأت نفسها مع والدها، ورأت نفسها مع غرانغ، مع جوسي التي عادت للظهور مجدداً في المشهد.

ابتعد والدها عنها ليفكر للحظة. شرعت يداه تنتفان بعصبية زراً مكسوراً في قميصه الفضفاض.

«دافني أيضاً- أريد استعادتهما، لأكون والدهما، إلا أن دافني تعيش في منزل مجنون في الشمال. وأورنيت». بدا فمه الذي غالباً ما يفيض خِسةً أو يطفَح برائحة الويسكي أو بكلمات بذيئة، كما لو أن به ماء، يطفح بالأسى واللوعة. «أورنيت، *إنها سيدة الملذات!*» تذكر تلك العبارة من رسالة تلقاها من رجل عجوز: الواعظ، والد ميم. بعث براونفيلد رسالة مقتضبة إلى دافني وأورنيت، يخطط في مكان ما في رأسه لإغرائهما بالعودة

مجدداً إلى الديار. كم قهقهت جوسي بجذل لرؤية قرفه من الحالة التي صارت عليها ابنتاه! وابتهجت ليوم كامل لدى سماع الأخبار الواردة حول بؤسهما، لا سيما بؤس أورنيت! على الرغم من أنه فاجأها لاحقاً وهو ينتحب بينما غرقت هي في رغوة مسحوق الغسيل أثناء تنظيف الثياب، عصر سروال عمله، صدح بغنوة تحكي عن شعوره بأنه طفل عجيّ. خف توتره عندما رآها تبكي، ولكن عندما اقترب ليلمسها، معتقداً أنه لربما يواسيان بعضهما بعضاً، ابتعدت عنه، محذرة إياه من مغبّة الاقتراب منها، وأرغمته على العودة إلى دور الأداة والمعذِّب الذي يلعبه.

ارتخت كتفا براونفيلد الكبيرتان، أما يداه اللتان شعرت روث بالغضب لدى رؤيتهما وقارنتهما بأذنيها الفتيتين، فقد تحركتا خبط عشواء لتتخلصا من أعواد قش طارتا من جانبي الطريق. عندما سمعت عبارته المتلعثمة المرتبكة «سيدة الملذات»، كادت تنفجر ضاحكة، لكنها كانت أقرب إلى البكاء والتفجع، بل وحتى ضرب رأسها بأقرب شجرة.

«أنت من *قال* إن أورنيت *ستكون* سيدة الملذات، قحبة! هذا ما اعتدت مناداتها به. مجرد (قحبة). (تعالي إلى هنا يا قحبة)، ما انفككت تقول ذلك. *أتذكر هذا تقريباً كما أتذكر أمي*».

وقف ذلك الماضي بينهما مثل فيلم يُعرض على شاشة سينمائية، تذكرت آخر منزل متآكل صقيعي أرغمهم على العيش فيه؛ مرض دافني، نوبات مرضها الغريبة التي لم يلحظها براونفيلد؛ تمرد أورنيت، تصرفاتها التي تمحورت جميعها حول هدف واحد ألا وهو جعل أحدهم ينتبه لوجودها؛ مقتل ميم.

قالت روث: «تحسبني لا أتذكر. المشكلة أن النسيان ليس في متناول يدي!».

قال: «لا تتذكرين أي شيء. لقموكِ كل هذه الكراهية وزرعوا كرهي في صدرك منذ كنتِ بهذا الطول!»، قلَب راحة يده وقرّبها من الأرض. «لا تعرفين معنى أن يعيش رجل هنا. لا تعرفين كم عانيت!».

خالجها شعور بالشفقة إزاء العذاب الذي أضناه، لأنه كان حقيقياً، على الرغم من أن هذا لا يغير شيئاً في الموضوع.

قال: «لم أستطع حتى الإفصاح عن حبي!».

بالنظر إلى ما جرى في الماضي، كانت الكلمة خلّبية، محض رشوة وبلا معنى. نفضت روث رأسها لتطرد الفكرة. على الرغم من أنها تأثرت بها. لم تعلم حتى أن للعواطف وزناً في حساباته، وهل ينظر إليها سوى أنها محط سخريته.

«لا تهزي رأسك. أحبكِ وأنت لي!»

«لك!»

قال: «لي»، رمقها بنظرة تملكية غامرة.

سألته: «ماذا تريد مني الآن؟ لا أعرفك ولا تعرفني!»

«وأعرف من يتعين عليّ شكره لأجل هذا! سيقطع غرانغ أمامك أي طريق يقود إلى مسامحتي. طالما أنت معه. ذلك العجوز الخبيث! إن كان طيّب المعشر معك، لماذا لم يكن أباً صالحاً لي؟».

استناداً إلى معلوماتها الطفيفة، كان هذا سؤالاً بريئاً كافياً. «أخبرتُكَ أنك لا تعرفني. لو عرفتني لأدركت أنني لست جرّة يملؤها أياً كان بما يريد. لدي عقل أفكر فيه، لدي ذاكرة».

قال براونفيلد: «أحببت بناتي»، بدأ يتعرّق «أحببت أمكم».

علقت هذه الكلمة المعذِّبة في الهواء، وبدت كما لو أنها هاربة من زنزانة موصدة في روحه، كضرب من ضروب الرطانة العاطفية. هزت روث رأسها مجدداً لتنفض هذه الأفكار. لم تستطع بحق فهمه عندما يتحدث عن الحب. كان هذا غريباً، ولم تنبس ببنت شفة.

قال والدها: «أعني أن أمتلك ما هو ملكي»، استعاد الآن الطريقة التي اعتادت سماعه يتحدث بها. كان له جلف محتال وفظاظة لص.

«لستُ مُلكاً لك»، قالت روث بوداعة لأنها شعرت لوهلة أن سدّاً

هائلاً داخلها سيفلت من عقاله، وحين ينهار- إن انهار، رغبت أن تظل ناعمة ورقيقة معه، متحاشية إلحاق أي أذى به، على الرغم من أن أي شيء تقوله، بما أنها لن تسامحه أبداً، أو حتى تتفق معه، سيؤذيه بشكلٍ أو بآخر. لكنه فجأة مد يده للمرة الأولى، ساعياً للمسها. لم تكن لمسته على غرار بعض كلماته، مثيرة للتعاطف أو لطيفة. قبض بإبهامه وسبابته على لحم أعلى ذراعها وقرصه. ارتفعت وتيرة دفاعها عن نفسها مجدداً، أكثر من ذي قبل، واغرورقت عيناها بدموع مريرة. لا يعرف مكمن قوته، تذكرت أن ميم كررت هذا مرات ومرات، وشرعت بتمسيد مكان قرصته.

قال: «أنتِ لي، تماماً مثل دجاجاتي وخنازيري. أخبري جدك العزيز بهذا، أخبريه أنه لا يقدر على الاحتفاظ بك، وقبل أن أسمح له بالاحتفاظ بك، سألتقي بكما معاً في الجحيم!».

قالت باكية: «قلت إنك تحبني، إن كنت فعلاً تحبني، دعني *وشأني*!».

قال: «كلّا»، دفعها لتتنحى جانباً «لا يمكنني فعل هذا، أنا رجل، ويتعين على الرجل أن يكون له ما يملكه!».

«يتعين على الرجل أن يُحسن معاملة ما يملكه عندما يحصل عليه!».

«يا إلهي، أفسد غرانغ عقلك. كنت لأحسن معاملة ما أملكه لو سمح البيض لي بذلك!».

صرخت، وداست على قدمه: «*لا أحبك، لا أحبك، لا أحبك!*». أحست وكأن قابساً كهربائياً أُخرج منها.

قال: «ستحبينني أكثر عندما تصيرين في بيتي!».

قالت: «يجب أن يطلق أحدهم النار عليك»، ارتجفت، تحركت ببطء شديد، مبتعدة عنه. أمسكت كتبها بثبات، وتساءلت عن الجديد تحت الشمس الذي ستتعلمه في المدرسة هذا اليوم.

عندما أقفل براونفيلد عائداً إلى البيت الصغير المصنوع من المشمّع والقصدير الذي يعيش فيه برفقة جوسي، وجد الأخيرة منهمكة في

التنظيف، وغارقة في رغوة الصابون حتى مرفقيها، تتمتم وتتذمر وتكيل له الشتائم. منذ انتقالها للعيش معه بعد هجرها لغرانغ، سادت في المنزل أجواء مشحونة مليئة بالمحاكمات، وقد بلغ وجودها معه أسوأ حالاته بعدما تلبّست براونفيلد رغبة مجنونة لإرغام أحد أفراد عائلته على العيش معه. لم يكن يرغب باستعادتهن حباً بهن، عرفت جوسي ذلك، أرادهن (أو إحداهن على الأقل) لأن وجود أفراد عائلة الرجل معه يشكّل امتيازاً له. عندما سمعت خطوات براونفيلد تقترب منها، استعاذت بالله من الشيطان، من دون أن تعوّل كثيراً على هذه الاستعاذة. وقفت إلى جوارها جارتان، تعاطفتا معها. حملت كل منهما حقيبتها الجلدية اللامعة عندما دخل براونفيلد إلى المنزل. اعتادتا الانصراف عند مجيء براونفيلد. سمع براونفيلد الجارة النحيلة ذات الشفاه المقلوبة تقول لجوسي إنه لا يروق لزوجها أن تكون في مكان واحد مع رجل سيئ السمعة، وضحك من ظنها أنه قد يكون معجباً بها، أن تروق له امرأة بهذا النحول وتفتقر لأي حيوية، وتصدر صوتاً كخشخشة الأوراق عندما تمشي. عندما اقترب منها، أطرقت رأسها الرمادي وأومأت بورع عذري لا طائل منه. صديقتها التي تفوقها في الوزن والجرأة واعتاد براونفيلد مضاجعتها بين فينة وأخرى، والتي لم تلمحها عين قط من دون مروحتها، لوّحت بحيوية بمروحتها، وعبرته كما لو أن وجوده في الغرفة رفع درجة حرارتها لتصل إلى مئة درجة.

قال براونفيلد بمرح: «*وداعاً*، حبيبتي، وداعاً عزيزتي! وداعاً يا حلوة!»، بينما غادرتا تهزان أردافهما التي يغطيها فستانان رخيصان، على أمل أن يكون مهتماً بهما. عرف النساء! يفضلن الرجل الخنزير ويبدين له اهتماماً أكثر بكثير مما يبدين لرجل نبيل أو أمير. فكر بينه وبين نفسه: خنزيرات وكذابات ومنافقات!

«قولي لي يا جوسي، هل سبق لك أن ضاجعتِ القاضي هاري؟»

«كلّا»، قالت جوسي بصدق لا يرقى إليه الشك وببراءة سيدة لم يعد احترامها لذاتها يشكّل أي فرق بالنسبة إلى أي أحد، ولا حتى بالنسبة إليها.

«ظننت أنك ربما فعلتِ ذلك في صباكِ. عندما كنتُ والقاضي هاري فتية- أي عندما كنت أسكن في النزُل معك ومع لورين- اعتدت أن أوفر له فَرجاً ينكحه من حين لآخر. أحسب أني لم أطلب منك مضاجعته أبداً. لا أعني بالطبع إن ضاجعته لاحقاً. لم يعد أحد صعب المنال بعد الآن. عندما مثلتُ أمامه وحكم عليّ بالسجن لمدة عشر سنوات، أمضيت أربع سنوات من أصل السنوات السبع أعمل بصفتي بستانيّاً عنده. لم تكن لديّ أدنى فكرة عن البستنة اللعينة، وأخبرته بهذا، لكنه غمزني وقال: «يا ولد، تعرف عن البستنة أكثر من أي شخص أعرفه!». الأزعر الهرم لم يتغير قيد أنملة! كنت لتأملين أن يتغير، كونه قاضياً، لكنه ما انفك يقول دائماً عند قدوم الناس إلى منزله لسؤاله عن سبب وجود سجين ما في منزله «أنا وبراونفيلد ترعرعنا معاً، نفهم بعضنا بعضاً. هو وهو وهو».

لم تقل جوسي شيئاً. كان وجهها منتفخاً وحزيناً. برز لحم جسدها الأصفر الرطب المترهل من تحت درزات فستانها الممزق تحت الذراعين. كانت بدينة جداً ومتعبة.

قال براونفيلد مواصلاً قهقهته: «كما تعرفين، أراهن أن القاضي هاري سيرغم غرانغ على منحي ابنتي!».

توقفت جوسي عن غسل الملابس ونظرت إليه، وقالت بتجهم: «لن أتوانى عن فعل أي شيء لثنيك عن إلحاق الأذى بزوجي». كان جفنا عينيها الضاحكتين متقرحين ومنهكين ويائسين ورتيبين إلى حدٍ يعجز عنه الوصف. تلاشت كل جسارتها الرامية لإثبات ذاتها. انكبّت على غسل ملابس البيض والسود لتؤمن كفاف يومهما.

سأل براونفيلد بتهور عندما شرعت امرأته العجوز المكتنزة بالبكاء: «هل ستقتلينني؟».

أخرج براونفيلد سكين الجيب والتقط غصن شجرة وبدأ بتقطيعه إلى أجزاء صغيرة. وانفجر ضاحكاً.

قال: «جوسي، جوسي. مشكلتك أنه يسهل إقناعك بأي شيء، ليّنة

جداً وسرعان ما تشفقين على الناس، سواء استحقوا هذه الشفقة أم لم يستحقوها. على سبيل المثال، تحسبين أن بوسعك التسلل مجدداً إلى منزل غرانغ واستعادة الجانب الصالح من شخصيته. افترضي أنه بدأ برسم مكيدة ضدي». تحولت ضحكة براونفيلد إلى قهقهة مجلجلة. سألها: «هل تدركين ما الذي تفعلينه؟ ستشفقين عليّ، ستهرعين إلى هنا وتحذرينني من خطرٍ يُطهى على نارٍ هادئة! لا تنضجين أبداً يا جوسي، لم تتعلمي يوماً اتخاذ موقف والثبات عليه. أنت عاهرة سمينة غبية يا جوسي، ولم تتعلمي على الإطلاق كيف تفكرين بعقلك عوض التفكير بفرجك».

سألته: «ماذا ستفعل؟ لا تريد استعادة روث! أعرف أنك لا ترغب بذلك!».

نظر براونفيلد إليها وقد افترت شفتاه عن نصف ابتسامة رقيقة، وقال لها: «لا أعرف بدقة بعد ما الذي سأفعله. ربما سأواصل تحريك المياه الراكدة. أخبرتِني يوماً أن ذلك العجوز يملك قلباً جاحداً. حسناً، ربما علينا إزعاجه بين الفينة والأخرى، أراهن أن بوسعنا حث الرب نفسه على ارتكاب الخطيئة»، أطلق ضحكة عالية وارتج جسده تحت صخبها.

انكبّت جوسي مجدداً على غسل الملابس وأغلقت عينيها. أحست بأنه ما من أحد يكترث لوجودها. استرجعت ذكرى ليلة حدثت قبل بضع سنوات، عندما جاء بحار شاب إلى نزل «قطر الندى»، وصعدت به إلى غرفتها. شعر معها بنشوة خاصة، وعندما عرض عليها نقوداً، أخبرته أن ينسى الأمر، عرفت أنه كان مفلساً تقريباً وفي طريق عودته إلى زوجته وأطفاله الصغار. وللإعراب عن امتنانه، أراد البحار مضاجعتها ثانية، لكن كان لديها زبائن آخرون بانتظارها. وعندما رفضت ضربها ضرباً مبرحاً وتوجب على الناس في الطابق الأول الصعود وتخليصها من بين يديه. عندما تذكرت الحادثة الآن عقب مرور ما يزيد على عشرين عاماً، انخرطت جوسي بالبكاء وكأن الحادثة جرت للتو، وانتحبت

ترثي كل الحب الذي لم تحظ به يوماً. شعرت بأنه كان أكبر لعنات حياتها وأن قدرها ارتكاب أخطاء أبديّة تزجها في البؤس والشقاء.

قال براونفيلد: «إن استعدتها، سيكون هذا من أجل إغاظة غرانغ. لكن يرضيني الآن رؤيته على حاله هذه. لقد *أفزعناه* يا جوسي!».

قالت جوسي: «يمكنك قتله يا براونفيلد، يمكنك إخافته لدرجة يُصاب فيها بذبحة قلبية ورغم ذلك ستكون له اليد الطولى».

سأل براونفيلد وقد قطب حاجبيه: «كيف لك أن تعرفي هذا؟».

«لأنه يعرف من أين تؤكل الكتف، وأن الأمور لا تسير كما تريد، ولا حتى كما يريد. إنه أكبر منا يا براونفيلد. سنموت ويكون الجحيم بانتظارنا، ولن يبالي أحد بنا، لأننا لم نخطط لما سيحصل بعد رحيلنا، لكن غرانغ يفكر بالعالم ويعرف منزلة روث في عالمه. وعندما يموت، ستعرف روث أنه رحل، لديّ أحفاد أيضاً، في مكان ما»، أردفت قائلة بيأس: «لكن لا أعرف مكانهم».

صبّ جام غضبه على جوسي تلك الليلة لأنها اشتكت من الحال الذي آلت إليه وهمهمت بما صار جواباً على شتى الأسئلة: «البيض وراء كل المصائب». ومن دون معرفة السبب، ثار براونفيلد فجأة ضد هذه الفكرة، وكما في السابق، وجد هذه المرة أيضاً الدعم والمؤازرة وما يتوارى خلفه لتبرير فشله في الحياة. خالجه شعور لا يوصف بأنه قملة لا أكثر ولا أقل، بلا أدنى قيمة، وأحس بضآلته كعنصر لا فعال، قزم بائس في عالم من العمالقة.

قال ساخراً: «آه، ما الذي تعرفينه؟ لا شيء. لا تعرفين نصف ما تحسبين نفسك تعرفينه»، اختنق بازدرائه المعتاد الطاغي. لم تنطق جوسي بكلمة واحدة وكأنها صارت بكماء. «هل تعرفين مثلاً أن أحد أطفال زوجتي كان أبيض؟ هذا صحيح، أحد أطفال ميم كان أبيض. الطفل الذي جاء بعد روث. آخر العنقود»، ضحك لرؤية التعابير التي ارتسمت على وجه جوسي. قال: «كلّا، لا تكتئبي هكذا فتبدو عليك علامات المرض. لم

يكن طفلاً أبيض بالكامل. لم تعاشر قط رجلاً أبيض، رغم محاولاتهم إغواءها، ورغم اتهامي لها بذلك معظم الأحيان. كانت من الغباء لدرجة أنها أخلصت لي إن كان الإخلاص يعني مقارعة ترددها اللعين. أقصد أنه كان طفلاً بلا لون، ولا أي لون، عيناه بيضاوان بلا لون، وشعره الأبيض بلا لون، لا لون لكل شيء فيه. كرهتُه حالما رأيته، لأنه كان يشبه أبي إلى درجة كبيرة. كان غرانغ الأبيض، نسخة بيضاء تماماً عن أبي الأسود».

سألت جوسي: «هل كان أمهق؟»، بدأت بالارتعاش. «هل هذا ما تقصده بقول إنه كان بلا لون؟».

«صحيح، أعتقد أن هذه التسمية التي درج الناس على إطلاقها. شكله كان مثيراً للفضول، *أبيض* بالكامل. حسناً، أتعرفين ما الذي فعلته بزوجتي عندما أنجبت ذلك الصبي؟ أوسعتها ضرباً لحظة وقعت عيناي على عيني المولود الغريبتين. قبعت تأنّ وتتألم، أضعف من أن تصرخ، ضربتها حتى سقطت عن السرير. اتهمتها بارتكاب مختلف *أنواع* التواطؤ مع الرجال البيض الموجودين في الجوار، واكتفت بتكرار أنها لم تعاشر أي رجل أبيض. قالت: «أقسم بالله لم أعاشر رجلاً أبيض!»، فسألتها: «لِم الطفل ليس بأسمر؟»، وأجابت: «الله يعلم لماذا، أنا لا أعرف يا براونفيلد، لكنه ابنك!»، وقلت: «لا تكذبي عليّ يا امرأة.. إن لم يكن أسود فهو ليس ابني إذاً!». حسناً، هددتها إن لم يتحول لون بشرة الطفل إلى الأسود بعد فترة قصيرة، فمن الأجدى لها أن تتهيأ للعيش من دونه. بكت وتوسلت وبكت وتوسلت، وبدأت تتركه بالقرب من النار وتحت أشعة الشمس، لكن الطفل بقي على حاله، لم تكتسب ذرة واحدة منه اللون الأسمر. وفي إحدى الليالي، عندما كان عمر الطفل ثلاثة أشهر، وكان شهر كانون الثاني، والأرض مغطاة بالصقيع، جررته من ذراعه بينما كان نائماً، وكما لو أنني أترك القطة التي رأيتها للتو في العراء، تركته على عتبة الباب، أدرت ظهري وذهبت للنوم. وقبل أن أغطّ في النوم، قالت ميم إنها سمعت صراخ الطفل، لكني أخبرتها أنني تفقدته للتو وطلبتُ

منها العودة إلى النوم. عمدتُ إلى إنهاكها في تلك الفترة، ولهذا لم تقوَ على مجادلتي. كانت مرهقة، لم تغط في النوم مثل البشر العاديين، بل دخلت في غيبوبة.

«لم أنم بهذا العمق في حياتي كلها، استيقظت على صوت عويلها، كانت تحمله أمام النار، تمسد جسد الطفل الذي لم يعد أكثر من كتلة جليدية. لون بشرته كان أغمق من أي وقت مضى، *أزرق* نوعاً ما.

لربما تحسبين أني فعلت ذلك لاعتقادي بأن الطفل من صلب رجل أبيض، لكني عرفت طوال الوقت أنه ليس كذلك، ومردّ هذا لأمر واحد فحسب، برغم بياض بشرته، فقد كان يشبهني مئة بالمئة أو بالأحرى يشبه أبي، وهذا من حقه لأنه جد الطفل. بدا الطفل يشبه كلينا. قبيحاً، ناقشت الحالة مع الدكتور تايلور الذي يعمل في البلدة، وقال إن مثل هذه الحالات واردة الحدوث. ولاحقاً، عندما بدأ شعر الطفل بالنمو، كان خشناً ومجعداً. تيقنت من أنه ابني. عرفت ميم أنني سأكسر عنقها إن سمحتْ لرجل أبيض بمجرد النظر إليها. حتى لو أن رجلاً أبيض ضربها على رأسها واغتصبها، لكنت أيضاً حولت حياتها إلى جحيم! عرفتْ الثمن الباهظ الذي ستدفعه لو أقدمت على فعلٍ كهذا. كان عليك رؤيتها عندما كانت شابة وجميلة تسلب الألباب، ترتدي خماراً وتتظاهر بأنها عرجاء أو شيء من هذا القبيل عندما تكون وسط رجال بيض. ما انفكوا يسألونني كيف تزوجت امرأة بكل هذا القبح، لكنهم جهلوا ما كان لدى ابنة أختك تحت الخمار الذي ترتديه!».

على نحوٍ غريب، كانت هذه المرة الأولى التي تشعر فيها جوسي بشفقة حقيقية على ميم. حدّقت في براونفيلد وعيناها تطفحان بالذعر والهلع، رأت للمرة الأولى أن الإنسان الراقد داخله مدمر تماماً. صُعقت لأن ما أخبرها به تجاوز حدود اللؤم، اللؤم الذي أضحت معتادة عليه الآن، ليبلغ حدود الجنون، أقل تلميح لما أثار أعصابها دوماً.

قال لجوسي: «أعرف ما تفكرين فيه، أنت جالسة الآن تقولين لنفسك

إن هذا الرجل مجنون! هذا هو سبب كل ما يحدث. لكنني لست مجنوناً، لست مجنوناً أكثر من الآخرين. كل ما في الأمر أنني لم أستسغ محاولة عشق شخص آخر. لم ترق لي فكرة أن أسعى لأحب حتى فلذة كبدي، الذي لم يكن ليحظى بأي فرصة لعيش حياة كريمة سواء أحببته أم لا. إن دفع شخص ليكذب ويقول إنه يحب ما لا يرغب به أمر يفوق الاحتمال. سئمت من فعل أشياء تفوق طاقتي.

قالت جوسي بنبرة تجمع بين المنطق والشجاعة: «لو فعلت ما لا طاقة لك به، لكان لديك ابن الآن».

قال براونفيلد، محركاً يده وكأنه يهش ذبابة: «وغد صغير أبيض البشرة!».

كلّا، لم يعرف الندم طريقاً إلى قلبه. لم يعد هناك الآن أي أهمية لأي شيء فعله في حياته. لقد انتهى كل شيء. ما حدث قد حدث: ذوى الجمال، وأضحى الجميل قبيحاً، والحلو مراً. لم يؤمن يوماً بأن الأمور كانت لتسير بطريقة مختلفة. لكن ما الذي فكرت فيه هي، زوجته الهادئة، عندما أثبت لها أنه أكثر وحشية من أي رجل أبيض، أو من عشرين رجلاً أبيض. لم تكن مناضلة، والغضب أرعبها. التصرف العنيف اليتيم الذي مارسته ضده- والذي لا شك حسبته تصرفاً يفضي بها إلى الخلاص- أضعفها أكثر من ذي قبل. وعوض الغضب، صار عندها سيادة داخلية، نواة ذات، صخرة، وهذا ما افتقر إليه زوجها مع الأسف. امتلكت قوة كامنة لم يستطع براونفيلد مضاهاتها، وجلّ ما استطاع فعله إزاء هذه القوة احتقارها وازدراؤها، وكان في أسوأ الأحوال يشعر بالغيرة منها.

تمتم لنفسه قائلاً وهو على وشك أن يغط في النوم: «ما حدث قد حَدث!». لكن وجه روث أصبح لا يفارقه، وعيناها تبرقان وتوجهان له أصابع الاتهام. روث بساقيها النحيلتين وعينيها المشدوهتين، تهرب منه دائماً، والدماغ الموجود خلف عينيها لا يتوقف عن الطيران. ما تزال تركض نحو شيء ما. أزعج هذا براونفيلد. تساءل عما رأته في العالم وأشعل في

داخلها رغبة بأن تكبر وتنضج؟ كان عليه أن يفتح عينيها لترى بأنه لا شيء هناك سوى العدم، *العدم*، مهما كانت الأمور التي وعدها بها غرانغ، ليس ثمّة سوى العدم. رأى العدم بأم عينيه، وإن كرهته أكثر من أي وقت مضى، فما أهمية هذا؟ هذا جوهر العالم الحقيقي، هنا يكمن بيت قصيده.

سأل نفسه، لكن ماذا عن *الحب*؟ وجاء الجواب على هيئة فراغ خاوٍ هائل.

صرخ في العتمة: «إنه كذبة!»، استيقظت جوسي مفزوعة. ظن براونفيلد أنه عرف الحب. استلقى مهزوماً، مدركاً رسوخ إيمانه بالشقاء، متيقناً من عجزه عن بث دماء جديدة في حياته أو تغيير نفسه، لأن هذا الجمود صار كل ما يملكه الآن، لم يستطع توضيح ماهية مهمة الحب، هل هي لتمهيد الطريق أمام أجمل ما في الحياة، أم أمام أقبح ما فيها. وبشكلٍ غريزي، واضعاً حياته كمثال، نفى إمكانية وجود حياة أفضل لبناته. لقد استعبد فلذات كبده، أضعفهن عندما كن في أمس الحاجة للقوة، وجرّدهن من كل سلاح يحميهن من أي عدو يعترض طريقهن. وعندما يفكرن الآن بـ «العدو»، تمثل صورة أبيهن أمامهن ليحتل المشهد برمته.

صرّ براونفيلد أسنانه تحت وطأة خطئه، رغم أنه فكر كثيراً بأن هذا سيجعل من النوم أمراً بعيد المنال. وخطرت في باله فكرة خارج السياق مفادها أن روث قد لا تصدق قط «الظروف» التي دفعته لتجاهلها. تمنى لوهلة لو يستطيع مقابلة أحدهم، ربما ميم، ليقدم لها اعتذاره. لكن ما الذي سيقدمه كإثبات على صدق توبته؟ يجب أن يواصل سعيه لإثبات ذلك، ويعمل بجدٍ لتحقيقه، عليه أن يواصل بالزخم نفسه الذي بدأ فيه رحلة توبته. سيأخذ ابنته من جدها، ليس لأنه يريدها، وإنما لأنه لم يستسغ وجودها مع غرانغ. لم يلق بالاً على الإطلاق للسبيل الذي سيسلكه ليحقق مآربه، وحالما تصبح روث تحت سقفه، سيحنو عليها ويعاملها بالحسنى.

الفصل الحادي عشر

-47-

في الأشهر التي انتظرا فيها رؤية ما الذي يخطط براونفيلد لفعله، وجدت روث نفسها تنظر إلى العالم بعينٍ فاحصة جديدة. لم تعد تجده جميلاً جداً كما حلمت به أحياناً، وفي الوقت نفسه، ليس بالسوء الذي تهيأت لتقبله بوصفه عالماً لا يطاق. وجدت العالم عبارة عن دراسة ساحرة ومدرسة متنقلة، مادة دراسية قائمة على الحماس. حدث كل هذا بفضل الأخبار وبرنامج «هانتلي-برينكلي ريبورت» الإخباري.

كانت هذه سنتها الدراسية الأخيرة، ودأبت على إنهاء دوامها في المدرسة والإسراع إلى البيت لمشاهدة الأخبار عبر التلفاز. أضحت مولعة بكلٍ من تشيت هانتلي وديفيد برينكلي، وبالأخير تحديداً، لأنه أصغر عمراً من تشيت، وفمه يتكوّر بطريقة ساخرة في غاية الطرافة. لم تر أوجهاً سوداء عبر التلفاز إلا إذا وردت في الأخبار. ودأب تشيت وديفيد كل يوم على مناقشة حركة الحقوق المدنية والتحدث عن الدمج بين البيض والسود في المدارس والمطاعم وعروض الصور. بثت فكرة الدمج القشعريرة في جسد روث، وأخافتها نوعاً ما، فيما قلل جدها من أهميتها. ولطالما تساءلت روث إن كان مذيعا الأخبار سيروقان لها بهذا القدر لو أنهما لم يطرحا مواضيع عن السود على بساط البحث. حسبت أن الجواب سيكون بالنفي، إذ برغم أنها تابعتهما من قبل، لكنهما صارا الآن فحسب شخصين حقيقيين بالنسبة إليها، تأملت ابتسامة ديفيد المتكلّفة وغالباً ما أبهجتها الأنباء التي تقود شفتيه لرسم هذه الابتسامة.

ثمّة يومياً صور لطلاب يتظاهرون ويغنون ويصلّون، يقودهم الأستاذ الجامعي مارتن لوثر كينغ. نظرت إلى الطلاب والدكتور على أنهم أبطالها، ودأبت على التحدث مع غرانغ عنهم كل ليلة.

سألت غرانغ خلال إحدى السهرات: «هل تعتقد أن مساعيه ستثمر؟»، مشيرة إلى عيني الدكتور كينغ المنهكتين الشرقيتين، اللتين ظهرتا عبر الشاشة باردتين وخاليتين من أي عمق.

قال غرانغ: «كنت لأتفاءل أكثر لو ثّمة أمل في أن يصير رئيس البلاد يوماً ما. يقيني باستحالة ذلك يخفف من حلاوة مشاهدته. إنه رجل بحق»، واستطرد قائلاً: «بالطبع، لو كنت مكانه لتصرفت بطريقة مختلفة وقدّرت نفسي حق تقدير، لكني لا أولي نفسي الاهتمام اللازم، وجلّ ما أفعله الجلوس في هذا المكان الرتيب، لذا لا يحق لي فتح فمي والتشدق وإسداء النصائح. أكثر شيء يلفتني به هو أنه برغم تحقير البيض له، فإنه يتعامل بنبلٍ مع زوجته وأطفاله».

سألته ذات ليلة، وقد اغرورقت عيناها بالعَبرات من دون أن تنتبه: «لماذا يغنون بهذه الطريقة؟».

أجاب غرانغ: «لنفس السبب الذي يدفع الناس للصفير في مقبرة».

وقالت في سهرة أخرى، عندما رأت أيدي سوداء تصفق مع أيدٍ بيضاء خلال تظاهرة مهيبة تجوب إحدى شوارع أتلانتا: «يظنون أن بوسعهم تغيير قلوب هؤلاء البيض».

قال غرانغ: «أنا سعيد. من جهة ثانية، قد يحاولون خلال أسبوعين تعلّم ما احتجت عشرين عاماً لتعلّمه، أي أن الغناء والصلاة لا يجديان نفعاً. سأكون سعيداً حقاً إن تعلموا هذا. عوض أن يتوهوا في غشاوة الضَباب كما حدث معي وكما يحدث مع والدك حتى هذه اللحظة»، انحنى مقرّباً جسده من التلفاز، وتقلّصت عضلات وجهه. قال: «انظري إلى أوجه هؤلاء البيض القبيحة. ما ‹القلب› الذي قد نتنبأ بوجوده في صدورهم إن أخذنا وجوههم بعين الاعتبار؟ الأمر انقضى منذ زمن بعيد،

الناس الذين ترينهم أمامك الآن ويطاردون ذلك الزنجي في الشوارع، يظهرون مشاعرهم من دون مواربة. هذا أفضل. المشاعر الجاثمة في قلوبهم الصغيرة بارزة على وجوههم، ولهذا وجوههم قميئة. أخبريني إن حدث في لحظة ما ونجح الغناء والصلاة في تخليص عيونهم من اللؤم والخبث. البيض يغنون ويصلّون منذ سنين، يسمعون السود يغنون ويصلّون منذ سنين، ولم يغيرهم هذا قيد أنملة. كتموا ضحكهم، مغرقين السوق بفتاحات علب كهربائية! يا للقرف!» أعلنت روث: «أعتقد أنني معجبة بالطلاب، لا ضير من *محاولة* تغيير البيض».

نظر إلى حفيدته وابتسم: «أطمح لرؤية شخص يغير الناس ممن هم على شاكلة والدك، وشخص لتخليصي من الخدر الذي يجمدني». استطرد: «بالطبع، لقد لعبتِ دوراً في تخليصي من بعضه».

ذات ليلة، وبينما جلست تشاهد برنامج «هانتلي-برينكلي ريبورت»، دخل غرانغ إلى المنزل وعلائم المرض بادية عليه.

سألته روث: «ماذا دهاك؟»، ظنت أن وقت فراقهما قد حان، وأن براونفيلد كشف عن أسوأ ما يضمره.

لم يجب غرانغ. أخذ كرسيه القابع أمام التلفاز ووضعه عند المدفأة. أخرج غليونه وسكينه وبدأ بتنظيف جوف الغليون، ثم ملأه بتبغ جديد. أطفأت روث التلفاز وجلست بقربه. وسرعان ما غطاهما دخان كثيف مضمّخ برائحة التبغ.

بصق غرانغ في المدفأة: «هل تذكرين صديقي القديم فريد هيل الذي كنت ألعب معه القمار؟ وجدوه البارحة في القناة، ووجهه نحو الأسفل».

سألت روث: «هل كان ثملاً جداً عاجزاً عن الحركة؟»

«كلا، لم يعد ثملاً، لم يكن ثملاً. فَقَد نصف رأسه في إطلاق نار».

قال غرانغ: «من هذه الجهة حتى هذه الجهة»، وتحرك إصبعه من الأذن حتى الذقن.

«حسناً، من أطلق النار عليه؟»

«يقولون إن آخر كلمة نطق بها أنه هو من أطلق النار على نفسه».

صُعقت روث.

قال غرانغ: «بالطبع، لم يكن هناك أي بندقية بالقرب من القناة».

سألت: «كيف تمكّن من إطلاق النار على نصف رأسه من دون استخدام بندقية؟».

قال غرانغ: «حيلة زنجي صرفة».

حدّق في المدفأة لعشر دقائق من دون أن ينبس ببنت شفة، ثم قال: «رأيت في أحد الأيام سيدة مشنوقة وقد جُزّ عنقها وأُحرقت»، سكت لخمس دقائق أخرى، انتظرت روث بفارغ الصبر ما سيقوله، «قالوا إنها كانت إحدى هؤلاء الذين عقدوا العزم على الانتحار. قتلت نفسها بثلاث طرق مختلفة». دخن، ضاغطاً على غليونه، كما لو أنه ينتزعه من بين أسنانه. «أتعرفين، أوردت الصحف القصة على هذا النحو، وقالوا إنها إحدى الزنوج التوّاقين للانتحار!».

جلست تفكر في فريد هيل. سبق لها أن سمعت عن حوادث «انتحار» مماثلة. كان فريد هيل شخصاً قصيراً وبديناً، أسمر البشرة، قدماه مقوّستان كقدميّ صبي، كان يبدو وكأنه يترنح أثناء سيره. رأسه بالغ الاستدارة، ولا عنق له. راقبته يلعب البوكر مع غرانغ على مائدة المطبخ. علّمها لعبة ضرب كرات الزجاج الملون الصغيرة[16] عندما كانت في التاسعة. هو ميت الآن.

سأل غرانغ: «ماذا كنت تتابعين عبر التلفاز؟»

«الأخبار»

«حفيد فريد هيل يصنع الأخبار. يحاول التسجيل في إحدى مدارس أولئك البيض الفقراء».

16- ما يعرف بلعبة الكجة أو الكلة أو الدحل. (المترجمة)

«وهل نجح في ذلك؟»

أرجع غرانغ رأسه للخلف وحدّق في السقف، توازنت كرسيه على اثنتين من قوائمها. قال: «كلّا، لم يفلح في ذلك. كيف للمرء أن يدرس في مدرسة للبيض، بينما نصف أجدادك فقدوا رؤوسهم؟»

قالت روث: «حسناً»، حاولت رؤية الجانب المشرق «لا تحتاج لرأس جدك كي تدرس. تحتاج إلى رأسك فحسب».

قال، بعد أن نهض وسار بتثاقل ليخرج إلى العتمة: «كل شيء يثبت أنك على خطأ يا صبيّة».

ثم حلّ فصل الربيع وانتهت السنة الدراسية وبدأ الطلبة المتظاهرون يجوبون شوارع مقاطعة بيكر. رأت روث صفاً طويلاً منهم يطوفون البلدة. كانت اللافتات التي يحملونها غريبة وصادمة. كُتب على إحداها «أنا أميركي أيضاً! «هذه بلدي أيضاً!» كُتب على أخرى، وأخرى «أنشد الحرية أيضاً!». رغم رؤيتها للمتظاهرين قبل ذلك عبر التلفاز، ذُهلت لدى رؤية سود وبيض حقيقيين يتظاهرون معاً في مسقط رأسها! ثمّة فتيات بيض أنيقات يرتدين الجينز والأحذية الرياضية وبلوزاً نظيفة نُقشت الزهور عليها، يتظاهرن كتفاً بكتف مع فتيات شديدات السواد يرتدين أحذية ذات كعوب عالية وفساتين بائسة مخصصة لأيام الآحاد. عشرات الشباب من المتظاهرين السود والبيض، كان المشهد غريباً بالنسبة إلى روث وصُعقت عندما لاحظت أنهم يشدّون بعضهم عزائم بعض بأصوات هامسة، ولم تلحظ أي دلالة على ازدراء متبادل بينهم، مما أثار فضولها. وتساءلت: «هل ما أراه حقيقة أم حلم؟». راقبتهم بأعين مفتوحة، وجالت بنظرها بين المتظاهرين وبين سكان مقاطعة بيكر. فوجئ سكان المقاطعة أيما مفاجأة بأن وصول الطلبة إلى هنا لم يحدث أي فرق بعد. حتى المأمور وقف على ناصية الشارع وحدق بفم مفتوح بعض الشيء. تحلّق نوّابه حوله، اقتربوا منه كثيراً، وبدوا كأنهم ينشدون الحماية، أو في أفضل الأحوال ينتظرون تعليمات آنية حول

كيفية التعامل مع التظاهرات. وقف السكان المحليون من السود والبيض تحت أشجار المحكمة فوق المرج، يتفرّسون في الفتيات. سخر بعضهم منهن وأطلقوا عليهن ألفاظاً نابية. من بين جميع المتظاهرين، كان نصيب الفتيات البيض من الإساءة هو نصيب الأسد. حملت إحداهن لافتة كُتب عليها «السود والبيض معاً»، وفي كل مرة عبرت فيها مجموعة من البيض، عمد أفراد المجموعة على البصق عليها وهمسوا: «أراهن على ذلك!». أضاف أحدهم، مشيراً إلى زجاجة كوكا كولا حملتها في يدها: «أيتها القحبة الزنجية اللعينة!»، اقتربت روث من هذه الفتاة ولفتت أذنها اليمين انتباهها، تلك التي من جهة المتفرجين، كانت أذنها تنزف، مشت في التظاهرة بقدمين خشبيتين جامدتين، كما لو أنها تستمع إلى موسيقى داخلية شجية. سالت الدموع مدراراً وبهدوء على خدّيها الشاحبين، وبدأت اللافتة التي تحملها بالاهتزاز.

بينما كانت روث تهمّ بمغادرة البلدة، دسّ أحدهم قصاصة ورق في يدها. رأت في أعلى الصفحة رجلاً وامرأة من البيض مقيّدين إلى صخرة. حملت الصخرة اسم «العنصرية»، وكُتب تحتها «لن تتحرروا حتى نصبح أحراراً»، نظرت خلفها لترى من أعطاها الورقة، ورأت شاباً طويلاً ونحيلاً، يرتدي سروال عمل يشبه السروال الذي يرتديه جدها. كان يحاول إعطاء البيض العابرين المنشور، لكن أحداً منهم لم يأخذه منه. نظرت عدة مرات نحوه، وفي إحدى المرات كان يراقبها. شعرت بقلبها يقفز كالأرنب بين أضلعها، وخالجها إحساس لم تشعر به قط من قبل. واصل الشاب توزيع المناشير، على الرغم من أن السود وحدهم قبلوا أخذها. لوّنت الشمس بشرته بمختلف أطياف اللون البني، وبدا مثل أوراق خريفية متساقطة.

على طريق عودتها إلى المنزل، قادت السيارة بيدها اليسرى وما انفكت يدها اليمنى تداعب الورقة، ثم تتحسس وجهها وشعرها، ثم الورقة مجدداً، لم يكن فحوى الورقة ما يعنيها، بقدر ما كان يعنيها الشاب الذي أعطاها إياها. ومع اقترابها من صندوق بريد جيرانهم البيض، رمت

الورقة في الصندوق، ثم واصلت قيادة سيارتها ساهمة إلى أن وصلت إلى مزرعة جدها.

بعد مرور ثلاثة أيام، كانت روث وغرانغ جالسين على الشرفة، كانا قد عرفا للتو أن براونفيلد قرر مواجهتهما في المحكمة من أجل الحصول على روث. وللتخفيف من وطأة توترهما الحاد، انكبت روث على أكل البطيخ قسراً، وقراءة كتاب «أساطير بلفينش»، بينما جلس غرانغ يلمّع حذاءه على مضض. عندما شاهدا غباراً منبعثاً على مسافة بعيدة عنهما، دخل غرانغ وأحضر بندقيته، وأسندها إلى الدرابزين أمامه، ثم جلس وواصل تلميع حذائه. دلفت السيارة إلى الفناء ثم لفت نصف التفافة تحت الأشجار وبعدها توقفت. كانت سيارة زرقاء داكنة، مغطاة بطبقات من الغبار الأحمر، كما لو أنها قطعت مئات الأميال فوق طرق جورجيا الوعرة. ترجّل رجل بلدة نحيل من السيارة، وكان يشغل مقعد السائق. بعدها ترجّلت فتاة وفتى أبيضان من المقعد الخلفي، ثم فتاة سوداء من المقعد الأمامي، من جهة الشرفة. نظرت روث بعدائية نوعاً ما إلى الفتاة السوداء وتفحّصتها من رأسها حتى أخمص قدميها، شعور الغيرة الذي اعتراها فاجأها، فهي في نهاية المطاف لا تعرف أي شيء عن الشاب الذي أعطاها المنشور والواقف الآن بشحمه ولحمه أمامها، إنها تجهل حتى اسمه.

قال الشاب، وهو ينظر إليها من الفناء: «هنا تعيشين إذاً!». أضحى الآن ملتحياً، وبدت شفتاه المتناسقتان ورديتين جداً ومتشققتين.

نظر غرانغ إلى روث، كانت جالسة على حافة الشرفة وقد أمسكت بأحد الدعائم. كانت عيناها تبرقان! كاد يشعر بالتيار الحار الذي سرى في جسدها برمته وجعل جسدها اليانع الناعم متوتراً ومترقباً. ما كان ليعترف بأنه صُدم قليلاً، لكن هذا ما حدث بالفعل.

أجابت روث: «هنا أعيش، يمكن لأي شخص إخبارك بذلك!»، ضحكت بخفرٍ ضحكة لا تخلو من المرح الواضح، وغابت عن ذهنها تماماً حقيقة أنه ما من أحد سبق أن زار المزرعة من دون إذن جدها.

سأل غرانغ الذي اتخذ قراره في تلك اللحظة بأن الرجل الملتحي لا يروق له: «أين تعرفتِ عليه؟».

صعد الشاب الدرج بخطوات واسعة، عبَر الشرفة واتجه نحو غرانغ، وقال مبتسماً: «كيف حالك يا سيد كوبلاند». تبادر إلى ذهنه مدى الشبه بين غرانغ وبين بايارد روستين[17]، باستثناء أن ساقي غرانغ أطول وقد ثبت إبهام يده في حزامه مثل رعاة البقر. مد يده ليصافح غرانغ. قابل غرانغ ابتسامة الشاب بعبوسٍ واضح ونظر نحو حفيدته، التي لم تفارق عيناها الشاب، كما تفحصت قوامه الممشوق. فكر بينه وبين نفسه «إنها حقاً من عائلة كوبلاند». تنهد غرانغ، رمى القماش الذي كان يستخدمه لتلميع حذائه وصافح الشاب. صافحه الشاب بحرارة وكان يفوق غرانغ طولاً. شعر غرانغ بهرمه وشعره الأبيض، وبأن يده لا تقبض بقوة كافية على يد الشاب.

تمتم: «كيف حالك؟»، بدت سحنة الشاب مألوفة بالنسبة إليه لسبب يجهله. رمقه بنظرة سريعة. سأله: «ألم ألتقِ بك من قبل؟»، وأشاح بوجهه عنه. تحولت ابتسامة الشاب إلى قهقهة.

قال: «كنت مهرجاً صغيراً أدور حول الأخت مادلين»، أمضى جلّ طفولته خجلاً من أن والدته تعمل كعرّافة، ولكن عندما غادر منزل عائلة مورهاوس، وانضم إلى الحركة، كان فخوراً بعمل والدته، ولم يكن زهوه بها ليقلّ عن زهو أعز صديق له بوالده الجرّاح. واجهت والدته الحياة بطريقة مبتكرة، ولهذا السبب أجلّها واحترمها أيما احترام.

قال غرانغ: «صحيححح..» وقد غدت نبرته أكثر دفئاً «يمكنني ملاحظة الشبه». ما استطاع تذكر الشاب في طفولته، لكنه عرف والدته لسنوات وكان معجباً بها. لم يؤمن قط بالسحر الذي تمارسه رغم ذلك. اقتربت الفتاة السوداء ووقفت إلى جوار الشاب. لم يقترب الشابان الأبيضان، ولم يجتازا الدرج.

17- بايارد روستين (1912-1987) ناشط أميركي من أصول أفريقية، عرف بنضاله في حركات الحقوق المدنية والحركات المناهضة للعنف. (المترجمة)

قال الشاب: «اسمي كوينسي، وهذه زوجتي هيلين».

صافح غرانغ الشابة، ثم نظر من فوق رأسها نحو روث. أسدلت روث يديها وتهدّلت زوايا فمها. لم تكن هيلين زوجة الشاب فحسب، بل وكانت حبلى أيضاً. رأت روث نظرة جدها وهزت كتفيها بلا مبالاة. قدّمت لهيلين كرسياً لتجلس عليه، ودعتها للجلوس، فيما استند كوينسي إلى الدرابزين.

سأل غرانغ: «من هذان الشابان؟»، مومئاً بذقنه نحوهما «هل هما من البيض، أو أنهما يبدوان كذلك فحسب؟»، سُمعت همسته في أرجاء الفناء برمته.

قالت هيلين: «هذا بيل وهذه كارول. إنهما يعملان معنا»، أومأ بيل وكارول، لكنهما لم يؤتيا بأي حركة تشي برغبتهما صعود الدرج. كان بيل داكن البشرة بعضلات مفتولة وعينين بنيّتين، فيما كارول ضئيلة وقد غطى النمش بشرتها، وبدا كأنه بشرة ثانية.

قالت هيلين: «سمعا، كما سمع الجميع، عن المشاعر التي تكنها إزاء البيض، آثرنا إبقاءهما أمام البوابة بالقرب من الطريق السريع، لكنهما تبعانا». جلست بهدوء فوق كرسيها، وقد استقرّت يدها على أعلى بطنها المستدير. ضحكت فجأة، ونظرت إلى بيل «إنه يشعر بالحر سلفاً».

نظر غرانغ إلى الشاب الذي بادله نظرة حيادية، أمسك بيل يد كارول ومشيا ببطء عائدين نحو السيارة. رغب غرانغ بدعوتهما للصعود إلى الشرفة لكن سرعان ما انطفأت رغبته.

لم يقو على استقبال سيدة بيضاء في منزله، لكنه رغم ذلك لم ينهر روث التي دخلت إلى المنزل وأحضرت ماءً بارداً، وراقبها تتحدث إليهما لدقيقة أو دقيقتين.

قال كوينسي: «سيد كوبلاند، هل تدلي بصوتك في الانتخابات؟»، ناولته روث أيضاً ماءً بارداً وارتشفه بهدوء، بدا مرتاحاً جداً على الدرابزين، وقد تدلت إحدى قدميه فوق الأخرى.

سأل غرانغ: «أصوت لمن؟».

«تصوت لمناصب المأمور والحاكم ورئيس الشرطة ومفوض المقاطعة».

قال غرانغ: «كلّا».

سألت هيلين: «لِم لا؟»، كانت قد أنهت نصف كوب الماء وشرعت بعدها بفرك أسفل الكوب على بطنها لتبريده.

قال غرانغ: «لأنهم جميعاً من البيض، ولا فرق مثقال ذرة بين أبيض وغد وآخر».

ضحك كوينسي، وحذت هيلين حذوه، لكنه قال بحزم: «لم تكن هذه هي النتيجة التي حصلنا عليها في مقاطعة غرين».

شخر غرانغ، وقال بنبرة سلطوية: «اعتدت العيش هناك، ولا أعرف ما الذي حققتموه، ولكن البيض لا يسمحون للزنوج بالإدلاء بأصواتهم، آخر شخص شنقوه كان زنجياً حاول الإدلاء بصوته لمرشحه».

قال كوينسي: «حسناً، إنهم يصوتون للبيض الذين يختارونهم الآن».

سأل غرانغ: «هل يدلون بأصواتهم الآن؟».

قال كوينسي: «أجل، عملنا هناك الصيف الفائت، إنهم يصوّتون بالمئات».

قال غرانغ: «وهل ثمّة من يستحق عناء التصويت له في مقاطعة غرين؟».

سألت هيلين: «ماذا عن السود؟».

قال غرانغ: «لم يكن السود سيئين أيضاً عندما كنت هناك، كل من حاوَل فعل شيء لمساعدة أهله طعنوه بالسكين». أخرج غليونه وبدأ بتنظيفه، عاضاً على ساق الغليون، ثم سأل كوينسي: «لا تعني بأن أحد السود يحاول الترشح لأحد المناصب في مقاطعة غرين، أليس كذلك؟».

قالت هيلين: «ليس في هذه السنة».

سأل غرانغ بحدة: «من أين أنت يا صبيّة؟».

أجابت برقة، ساخرة منه: «من مقاطعة غرين».

قال غرانغ: «حسناً، اللعنة عليّ»، شعر وكأنه ضُبط نائماً، وأن قيلولته طالت لعشرين أو أربعين عاماً.

سأل: «مَن أهلك؟»، متوجساً أنها لربما كذبت عليه.

«اسم أمي كاتي براون، واسم أبي هنري. عاشا في منزل العجوز توماس».

تذكر غرانغ عائلة توماس، ولكنه لم يستطع تذكر عائلة براون. سألها: «هل قلتِ أن اسم والدك هنري؟».

قالت: «قُتل في الخامسة والخمسين من عمره، أطلق أحدهم النار عليه أمام حجرة الاقتراع».

سأل: «أين أمك؟».

«لم تقو على الابتعاد عن مقاطعة غرين».

«أما تزال تسكن في منزل الرجل الأبيض؟».

ضحكت هيلين، ضحكت وضحكت، بدت متخففة من أي هموم وكأنها طير. قالت: «ظلت تعيش هناك إلى أن بدأنا بالعمل الصيف الفائت، انتقلنا للعيش معها، جميعنا، أنا وكوينسي وبيل وكارول. ولكن آل توماس لم يطيقوا تحمل هذا. أعربوا عن أسفهم لقتل العجوز هنري بتلك الطريقة وقدموا لي المساعدة عندما ذهبت إلى الجامعة، ولكن عندما رأوني مع بيل وكارول، طردوا أمي من المنزل».

سأل غرانغ: «وبعدها؟»، انحنى للأمام على كرسيه. أراد مد يده ولمس هيلين، كانت في غاية الهدوء، شعر أن ثمّة شيئاً ما وراء هدوئها، وأراد باستماتة معرفة ما تخفيه.

قالت هيلين: «وبعدها»، قهقهت «بعدها، تركت المنزل ولعنت العجوز توماس وأسلافه وكل من عاش منهم خلال الحرب الأهلية، بصقتْ على زوجته فسجنوها».

قال كوينسي: «خرجت من السجن، استعنا بمحامين لامعين من نيويورك، وعندما خرجت، انتقلت للعيش في منزل صغير بالقرب من منزل عائلة توماس. ودأبت على ترهيب الواعظ المالك للمنزل إلى أن سمح لها بإنشاء مركز لنا. غصّ المنزل بكل أصناف البشر على مدار الصيف بطوله. ما تزال تعيش هناك».

قال غرانغ: «من الواضح أن تلك السيدة فقدت صوابها تماماً. عليكم جميعاً إحضارها إلى هنا».

قالت هيلين: «يروق لها العيش هناك»، وهزت كتفيها بعدم اكتراث «جلّ ما تتمناه أن ننتقل إلى ‹الديار› والاستقرار معها هناك».

قال كوينسي: «وقد نفعل ذلك يوماً ما».

قالت هيلين: «سيترشح كوينسي لمنصب العمدة. سأكون السيدة الأولى في مقاطعة غرين».

قال غرانغ: «أنتم مجانين. من الأجدر بكم أن تستغلوا طاقاتكم للهروب بجلدكم من هنا. إلى متى برأيكم ستظلون قادرين على الضحك كما تفعلون الآن؟»، وجّه سؤاله إلى هيلين.

قالت: «لن أسمح لهم بعرقلتي!».

وفكر غرانغ، قد تواصلين الضحك عندما يكون الآخرون حولك، ولكن عندما تواجهين مع زوجك وطفلك وابلاً من الرصاص بمفردكم، وتبدأ فرائصكم بالارتعاد لدى سماع أدنى صوت، هل ستضحكون حينها؟ تخيّل حال هيلين بعد عشر سنوات، قد يكون زوجها الشاب تحت التراب مدفوناً في مقبرة مجهولة في أحد المستنقعات، فيما طفلها يلاحقه كبار وصغار يكرهون الزنوج. رآها تحت رحمة بيض في البلدة، لا يَتوانون عن إشعارها بضآلتها وعدم أهميتها كل لحظة، ويعاملونها كأنها دخيلة، أميركية أُطلق سراحها تقديراً لحسن سلوكها. لنفرض أنها لم تستطع قط أن تكون «السيدة الأولى» في أي مجال، ما مصير ضحكاتها حينها؟

قال كوينسي: «نطلب منكم تسجيل أسمائكم للإدلاء بأصواتكم. أقنعت حتى أمي بتسجيل اسمها، رغم أنها أقسمت أنها واظبت على ممارسة أعمال السحر ضد البيض لفترة زمنية طويلة!».

قال غرانغ: «لا أستطيع أن أعدكم بذلك»، خالجه شعور من الحنان الغامر إزاء الزوجين. شعر نحوهما كما شعر نحو الدكتور كينغ، أي أنه لن يتوانى عن إطلاق النار على أول أبيض يحاول إزعاجهما إن مكثا معه في مزرعته. أراد حمايتهما، من أنفسهما ومن أحلامهما، وبالقدر نفسه من البيض. لن يسمح لأحد بإلحاق الأذى بهما، لكنه لم يؤمن في الوقت نفسه بما يفعلونه، ليس لأن ما يفعلونه يفتقر إلى الأهمية والنبل والإلهام والصلاح، وإنما لأن ما يفعلونه عقيم ومن المستحيل أن يفضي بهم إلى أي مكان.

«ما أخشاه أيها الأولاد هو المرارة، المرارة التي ستفرزها أكبادكم عندما تكتشفون أن صراعكم خاسر».

لف كوينسي يده على زوجته، ومسد جسدها. أمسك بها بحنوٍ، وعانقها، كما لو أنها تعني كل شيء بالنسبة إليه، توهج بريق عينيها ليشي بأن حبها له يصل حد العبادة الخالصة. تأثر غرانغ أيما تأثر وكادت الدموع تنفرط من عينيه عندما لمح حبهما الذي يفصح عن نفسه ببساطة وبشكل مباشر. اقشعر بدنه خوفاً عليهما.

قالت: «إن ناضلت»، وضعت أصابعها السوداء الناعمة على ذراع غرانغ «إن ناضلت بكل قواك، لن تعرف طعم المرارة».

رافقهما غرانغ إلى أن وصلا إلى السيارة وفتح الباب لتدلف هيلين إلى داخلها، قال: «مهلاً»، استدار وعاد ليدخل المنزل وأخرج ثمرة بطيخ من تحت السرير. كانت باردة وخضراء وثقيلة، أخذها إلى السيارة ووضعها على المقعد الخلفي. ضحكت هيلين مجدداً، وشكروه جميعاً شكراً جزيلاً، لم يستطع غرانغ على الرغم من ذلك النظر إلى الصبيّة البيضاء لكنه أومأ للصبي، وعندما لوّح لهم مودعاً، لوّح لهم جميعاً.

استدار، مبتسماً، ورأى روث جالسة بكآبة على الدرج.

تمتمت متذمرة، وقد قطبت حاجبيها: «أراهن أن جميع الرجال الجيدين متزوجون!».

سأل غرانغ: «صفعك صفعة قوية، أليس كذلك؟ سيأتي غيره يوماً ما ولن يكون متزوجاً، ويمكنك حجزه قبل أن يبدأ بالبحث عن زوجة».

قالت بهلع: «لا أنتظر أن يأتي سيلاً جارفاً منهم إلى هنا، أعتقد أن عليّ أن أذهب للبحث عن الرجل الذي أريد».

سأل غرانغ: «ماذا عن هذه المزرعة؟».

قالت: «آه، يا للهول»، قالت هذا وركضت إلى غرفتها، صفقت الباب وهوت على السرير.

-48-

واجها براونفيلد صباحاً في المحكمة، ساعد غرانغ روث على ترتيب المنزل بتركيزٍ كامل. وجد الاثنان مشقة في قول ولو كلمة واحدة. مشطت روث شعر غرانغ الذي كان أبيض كالثلج، وبالطبع مجعداً وقاسياً ومنتصباً، سرّحت روث شعره بحبٍ ليغدو مصففاً للخلف من الأعلى والجوانب، تسريحة أنيقة لا تخلو من الجرأة، لكنه سرعان ما عاد للانتصاب مجدداً، وعادت خصل شعره لتصير مجعدة خصلة عقب أخرى، وخلال هذه الفترة الوجيزة، وعندما لمع شعره تحت أشعة الشمس، بدا إلهاً في عينيّ روث. ارتدى أفضل بدلاته، بدلته الداكنة الوحيدة، وصدرية متناسبة مع البدلة، فيما بدت البدلة فضفاضة بعض الشيء عند وركيه، مما أظهر نحول ساقيه الطويلتين وخطواته الواسعة الكبيرة، التي تذكر روث بعض الشيء براندولف سكوت[18].

ركنا سيارتهما القديمة من طراز باكارد 1947 السوداء غير المطلية بالكروم في شارع قريب من المحكمة الواقعة في مركز ميدان وسط البلدة. كان سقف المحكمة قرميدياً، فيما بدت بأكملها على هيئة صندوق كبير مغطى بالغبار، بينما زُينت زواياها بأفاريز إسمنتية مليئة بزخارف دائرية وحلزونية، ودرجها طويل وعريض، لكن هذا لم يفد في جعله لافتاً وجذاباً، أما درجاته فقد بدأت بالتصدع.

18-راندولف سكوت (1898-1987) ممثل أميركي من أشهر أفلامه «رجل الغابة». (المترجمة)

ونظراً إلى أن اليوم هو السبت، خلت شوارع البلدة إلا من بضعة أشخاص، فيما سيفد مزارعو القطن وبائعو الألبان والأجبان لاحقاً. توقفت روث عند أعلى الدرج، واستدارت لتلقي نظرة أخيرة على البلدة.

قالت: «ليتهم يحركون جنديهم الحجري اللعين»، حدقت في تمثال الجندي الجنوبي الذي ولّى وجهه نحو الشمال، عدوه القديم الذي أضحى الآن عدواً لا مبالياً. «لا يمكنني معرفة الوقت بدقة»، رغم وجود ساعة كهربائية جديدة بحجم إشارة مرور معلّقة على نافذة متجر الكحول، غير أن وركي الجندي الحجري الهزيلين نجحا في حجبها عن نظرها.

قال غرانغ باستغراب: «معي ساعتي»، أخرج ساعته الذهبية الثقيلة المعلّقة بسلسلة. ثم أمسك بمرفقها بقوة، قوة تحول دون تمكنها من الإفلات من قبضته. قال: «لا تقلقي»، حرك مرفقها برقّة «سأكون رجلاً تافهاً بلا قيمة إن عجزت عن حماية ما هو لي. وعليكِ أن تتذكري دائماً أنك لي»، قبّلها غرانغ برقة على جبينها، ودخلا معاً إلى القصر العدلي.

كان القاضي رجلاً رحيماً ذا عينين رقيقتين ووجه منتفخ، واظب على ممارسة الرياضات المائية. نشرت له جريدة المقاطعة «بايكر كاونتي ميسنجر» قبل أسبوع صورة «ملونة» في الصفحة الأولى حاملاً خيطاً من الأسماك المتلألئة. كان وجهه متيقظاً ومراقباً ودافئاً يشي برجلٍ بدأ حياته معدماً وعكف على إضافة المناصب إلى حياته، كما يضيف كيلوغرامات إلى وزنه إلى أن استراح على كومة من المجوهرات الثقيلة وعلى كرسي القاضي ليصير قاضياً في المقاطعة نفسها التي ولد فيها قبل خمسين عاماً. وخلف نظرته الدافئة، ثمّة باب موصد، لم يُفتح قط أمام الناس، يفضي إلى روح فارغة لا مكان فيها لذرة إحسان، تطفح بغرور يعلوه غبارَ سميك حال دون تمكّن أهل البلدة من رؤية غروره وتكبّره وصلفه. لم يكن مردّ عجز الناس عن رؤية تعجرفه إلى أبواب أرواحهم الموصدة التي منعتهم من التساؤل عما تخفيه أرواح غيرهم، بما فيها روح قاضي بلدتهم. وبالمجمل وعلى الرغم من ذلك، لم يكن رجلاً طالحاً وسيئاً

بسوء الرجال في الجنوب. لم يتورط شخصياً بأعمال عنف، ولم يقبلها حتى مع تحفظ. بيد أنه أصدر أحكاماً ظالمة وصار المستفيد من معظم ما يدفعه أهل المدينة لقاء خدمات أعمال البستنة والأعمال المنزلية التي يقدمها أهل البلدة، وحرص على حماية هذه الأعمال مستغلاً منصبه كقاضٍ. باختصار، كان شخصاً تافهاً، له عقل صغير يتناسب مع تفاهته. استطاع سرقة جهد الأبرياء، الذين كان جلّهم من السود، وأحياناً من البيض الفقراء، لكنه عجز عن سرقة مبالغ كبيرة. وبفضل صدقه، احترمه أهل البلدة ومنحوه منصب شمّاس في الكنيسة المشيخية الأولى. أما الصبية السود الذين شعر بالمسؤولية تجاههم فمنحوه لقب «القاضي هاري»، واتسمت علاقته مع «الزنوج» بشكل عام بالودية.

قُضي الأمر بسرعة كبيرة! أطلعهم القاضي على حجراته الملونة، وتبادل النكات مع براونفيلد. حدّق غرانغ بهما، وشحب لونه.

سأل القاضي: «كم عمرك يا روث؟».

«ستة عشر».

قال القاضي: «لن تصبحي سيدة راشدة حسب قانون ولاية جورجيا قبل سنتين من الآن».

خيّم الصمت على القاعة، ولم يُسمع أي صوت سوى لهاث جوسي.

رمقها القاضي بعينين خلتا من أي علائم استفهام أو من أي ترقب لإجابتها، ثم سألها: «تودين العيش مع والدك *الحقيقي*، أليس كذلك يا روث؟».

قالت روث بحزم: «كلّا يا حضرة القاضي».

شرع غرانغ يتحدث عن سجل ابنه الإجرامي، وعن إهماله لبناته، والوعيد الذي أطلقه.

قال غرانغ وقد فقد السيطرة على نفسه: «هذا الرجل قتل زوجته حضرة القاضي».

قال القاضي بخفة جارحة: «لم أطرح عليك أي سؤال بعد، ليس من حقك إلقاء خطب في قاعتي من دون أن يطلب أحد منك ذلك»، نظر إلى

براونفيلد بجدية وغمزه. عرفت روث أن أمرها وأمر غرانغ قد قُضي، أحكمت قبضتها على ذراع جدها. عجزت عن النظر إلى وجهه وكان بوسعها تحسس ارتعاش جسده بأكمله، وأيقنت أنه يبكي.

قالت مستجمعة أنفاسها: «تمالك نفسك، تمالك نفسك أيها الطفل العجوز»، تحولت أنفاسه إلى نشيج، وعرفت أن نشيجه ناجم عن يأسه وقلة حيلته. استشاطت روث غضباً ولم تقو على البكاء.

لم تكترث روث لكل ما فعله القاضي وبراونفيلد وجوسي، وبعد فترة وجيزة، أمالت روحها على غرانغ وشجعته على إعلان استسلامه. عندما نظرت إلى القاضي مجدداً، كان يخرج زوجاً من الأحذية السوداء الطويلة من خزانته الموجودة بالقرب من مكتبه.

«لكن لا ترتكب أي حماقة يا براون، هل تسمعني؟»، أفترت شفتاه عن ابتسامة تحاكي ابتسامة الرجال الجنوبيين البيض عندما يحكمون سيطرتهم على كل شيء: من الولادة إلى الحياة وانتهاءً بالموت. كرهته روث للأبد. باسم «عدالة» مستعجلة، وهبها رجل لا يعرف عنهم شيئاً ولا يكترث لأمرهم قيد أنملة إلى أب لم يرغب بها يوماً. مجرد رجل سُمح له بلعب دور الله. شعرت روث بوجود جسم حار يقف أمامها. كان جسد جوسي، وقد صار لونها أحمر تماماً.

قالت وقد غمرها شعور بالارتياح: «عليكِ الذهاب مع والدك الآن»، تضايقت روث لرؤية دمعة إشفاق في عيني جوسي.

استطردت جوسي: «لكن لا تقلقي»، وأقدمت بجرأة على الجلوس إلى جوار غرانغ، «سأعتني به».

اقترب براونفيلد منهم وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شامتة: «نلتُ منك هذه المرة».

رَفع غرانغ رأسه ببطء ونهض بتؤدة. أخفض بصره نحو ابنه. علّق أحد إبهاميه فوق حزامه.

قال: «سأحرقك إن لمستها»، وبدفعة واحدة، دفع روث لتقف خلفه. جال براونفيلد حوله باحثاً عن القاضي هاري، الذي كان في طريقه نحو الباب.

صرخ براونفيلد بثقة: «أيها القاضي هاري»، نظر القاضي هاري نحو الخلف، مسح الموقف بنظرة واحدة ثم تابع سيره نحو ما عقد العزم على فعله. هوت كلمات غرانغ التالية كانفجارٍ بارد دوى خلف ظهره.

قال غرانغ: «توقف يا ممثل *العدالة!*» كان الازدراء جليّاً في صوته، وملموساً مثل الأرض التي وقف عليها القاضي.

اندفع براونفيلد نحو روث، ونجح في الإمساك بيدها لنصف ثانية. ثم شعر بأن أحداً يبعدها عنه وكأن ريحاً عاصفة قذفته. لمح لمعاً وخُيّل إليه أنه شمّ رائحة دخان مر. خرّ صريعاً على الأرض، ولم يتسن له نطق كلمة واحدة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. تحت معطفه الفضفاض، حمل غرانغ مسدسه الأزرق من نوع «كولت 45»، استخدم المسدس لإطلاق النار على ابنه.

غمغم القاضي: «لا تستطيع فعل ذلك في قاعة المحكمة»، كان ما يزال يحمل حذاء الصيد. جحظت عيناه عندما رأى دماء براونفيلد تسيل على الأرض.

قال غرانغ: «اخرس يا ممثل العدالة وإلا صرت أصم وأبكم وأعمى»، جذب روث من ذراعها، وعبر جوسي التي جلست تنتحب فوق براونفيلد، واتجه نحو الباب.

قال القاضي: «سألقي القبض عليك يا كوبلاند، لن تهرب بجلدك».

قال غرانغ: «لن أهرب بجلدي، أنا ذاهب إلى البيت، وأول وغد من رجالك يزورني سأفرغ فيه ما تبقى من طلقات هذا المسدس».

قالت روث وهما يغذيان الخطى نحو المنزل: «لا أمل لنا»، كانت صفارات الإنذار تدوي خلفهما.

قال غرانغ: «لا أمل لي، لكن لكِ بلى». وضع يده فوق عينيه «الرجل الذي أقدم على فعل ما فعلته للتو لا يستحق أن يعيش. عندما تفعلين شيئاً كهذا، تخسرين قضيتك»، انهار على مقعد السيارة، سأل بمرارة: «وماذا عن القاضي. من سيتولى أمره؟».

ترجلا من السيارة ودلفا إلى المنزل، تسابقت سيارات الشرطة

مجتازة الدرب الترابي لتصل إلى المنزل. مشط غرانغ المنزل بحثاً عن أسلحة، وانطلق مهرولاً نحو الغابة متجهاً إلى الكوخ. دارت السيارات على الفور حول المنزل، جلست روث بهدوء على السرير تترقب ما الذي سيحدث. لم يترك لها غرانغ ولا حتى بندقية واحدة، مدركاً كما أدركت هي تماماً أنها ستعيش عمراً أطول من دون أي سلاح، على الأقل أثناء هذه المعركة. سمعت روث الرجال يمشطون المكان متجهين نحو المنزل، ثم سمعت صوت إطلاق نار قادم من مكان بعيد في الغابة. غرانغ يبعد الشرطة عنها. فجأة امتلأ الأثير بصوت رشقة من الطلقات، وبعد بضع دقائق، ساد الصمت.

بالنسبة إلى شخص يتلصص على ما يجري، بدا أن غرانغ قد صلى قبل أن يُسلم الروح، احتضر خارج الكوخ الذي كان «منزل» روث، والشمس تبرز بين ركبتيه، وظهره مستند إلى شجرة. لكن لو كان يصلي، فيا لغرابة الموقف، لأن الصلاة حينها ستتمحور حوله، صلاة خلاصه المزعزع وإيمانه المضطرب. كانت لعنة في حقيقة الأمر.

صحيح أنه فتح فمه على اتساعه في تصميم راسخ على تلاوة الصلاة. بدت الصلاة ملائمة مع اقتراب الرحلة من نهايتها، مثل الشراب الذي يتناوله لاعبو البوكر في ختام لعبة طويلة لم يحتسوا خلالها قطرة كحول. لكن الأمر، في حالة غرانغ، لم يسر على هذا النحو. عجز عن تلاوة الصلاة، ولهذا لم يفعل.

أُصيب بطلقٍ ناري وشعر بالدم يسيل تحت قميصه، لم يرد لروث أن ترى ذلك، لا يريدها أن ترى سوى شجاعته وبسالته. لم يسمع حتى حفيف الخطوات التي تسللت خلفه.

تمتم: «آه أيتها المسكينة، أيتها المسكينة»، كان صوته يقطر حزناً ووحَشة، من دون أن يخلو من إنسانيته، انحنى فوق الأرض ثم تراجع للخلف، تكوّم على نفسه، واحتضن جسده ليخلد في قيلولة أخيرة.

كلمة ختامية

- **بقلم آليس ووكر**

شرعتُ في كتابة «حياة غرانغ كوبلاند الثالثة» خلال شتاء عام 1966، كنت أقطن شقة في شارع «سانت مارك بلايس» في نيويورك، القرية الشرقية. كانت شقة رطبة قلّما تدخلها أشعة الشمس، وقد غدت مستعمرة مخيفة لصراصير مقيمة، ولهذا أمضيت جلّ وقتي في غرفة طالب حقوق يدرس في جامعة نيويورك تعرفت عليه الصيف الفائت في الميسيسيبي أثناء عملي مع حركة الحقوق المدنية. كانت غرفته صغيرة بنوافذ كبيرة مكونة من لوحي زجاج مركبين بعضهما فوق بعض، يطلان على قمم أشجار ساحة واشنطن. جلب الشاب طاولة معدنية قابلة للطي من منزل والدته في بروكلين وعمدنا إلى تغطيتها بملاءة سرير قطنية. ثمّة على الطاولة مزهرية خزفية بنيّة قدّمها لي زميل دراسة سابق عندما تخرجت من جامعة سارة لورنس قبل بضعة أسابيع. وحرصنا على ملء المزهرية طوال الوقت بأزهار الأقحوان البيضاء أو أزهار الفاوانيا في الربيع. وضعنا الطاولة أمام النافذة، فيما امتدت أشجار الحديقة وعشبها أمامي، بينما رافقتني الأزهار دائماً على يميني، ودفتر ملاحظاتي والآلة الكاتبة تحت أصابعي. وعلى الرغم من هذا، افتقر المكان للمسة ريفية، مما أثار شكوى شخصيات الرواية.

قبل فترة وجيزة من زواجي من طالب الحقوق الشاب، تقدّمت

للانتساب إلى منظمة «ماكدويل كولوني» في ولاية نيوهامبشير الريفية، وقُبلت في المنظمة. صارعت هناك شتاءً صقيعياً استمر خلاله هطول الثلج لمدة شهر ونصف الشهر، ولفّ صمت أشجار الشوح التي زرعتها كوخي، ولم يكن ليكسره سوى صوت نقري على الآلة الكاتبة، وغناء كلارا وارد وماهاليا جاكسون، الذي امتزج مع صوت زفير ألسنة نار المدفأة. اعتاد طالب الحقوق على زيارتي خلال عطلة نهاية الأسبوع، فيما امتلأت سيارته الصغيرة الحمراء من طراز فولكس فاجن بزهور وصلت حتى النوافذ، إضافة إلى ثمار الجريب فروت والبرتقال.

كتبت عدة فصول من الرواية أثناء مكوثي في جامعة ماكدويل، لكنني تركت الجامعة في شهر آذار لأتزوج. انتقلت وزوجي للعيش في الميسيسيبي في ذلك الصيف، حيث واصلت نشاطي القانوني المناصر لحقوق الإنسان والحقوق المدنية، بينما كتبت نصوصاً أُدرجت في المنهاج التدريسي في برنامج «هيدستارت» الوليد، ودرّست النصوص في كامل الولاية، كما اعتُمدت ضمن المنهاج التدريسي في كليتين محليتين، كما زاولت أنشطة سياسية أكثر فعالية. وواصلت كتابة الرواية، وأنهيتها في شهر تشرين الأول من العام 1969، كتبت آخر سطورها قبل ثلاثة أيام من ولادة ابنتي الوحيدة، أي في الخامس والعشرين من ذلك الشهر.

كانت رواية مستعصية، لأنه تعين عليّ التمحص في العنف الدائر بين السود داخل مجتمع السود، وتسمية الأشياء بمسمياتها، وكشف الستار عما يجري، وفي الوقت ذاته، عانى فيه جميع السود (وبعض البيض) ومنهم أنا وعائلتي من عنف نفسي وبدني هائل مارسه ضدنا عنصريون بيض في الولايات الجنوبية، لا سيما في الميسيسيبي. وسأكون على الدوام ممتنة للسود القاطنين في الجنوب الذين لم يسعوا قط من خلال ما قالوه لي إلى تحقيق مآرب نفعية، وكانوا دائماً يتحدثون عن العدالة، وحرصوا على قول الحقيقة طوال الوقت، وجهروا بحقهم في التعبير عن أنفسهم ليكون صوتهم مسموعاً، وأفصحوا عن حقهم في النضال

في سبيل نيل حقوقهم، وعدم السماح لأي أحد بحرفهم عن مسارهم. قالوا: «إن مقابلة الخطأ بخطأ آخر لا يضع الأمور في نصابها الصحيح» «الجميع لهم الحق في التربع على أحد أغصان شجرة الحياة» «نريد حريتنا ونريدها الآن». لم تكتفِ النسوة والأطفال السود بترديد هذه العبارات فحسب، وإنما حوّلوها إلى حقيقة.

لكن على الرغم من ذلك، وإن أخذنا بعين الاعتبار الألم الذي اعتصرني أثناء التفكير بالحكاية وبسردها، يبرز سؤال مهم حول سبب كتابة مثل هذه الرواية.

الجواب ببساطة، ربما، لأنني لم أستطع منع نفسي من كتابتها. والجواب الأكثر تعقيداً هو أنني امرأة التراث الأفريقي وأصر بشكل فطري على نيل جميع أنواع الحريات. لمَ لا؟

مع الأسف، استندت في الحادثة الأكثر تأثيراً في الرواية، أي إقدام زوج على قتل أم أطفاله، إلى حادثة حقيقية. شهدت مدينة إتونتون في جورجيا، حيث ولدت وترعرعت، وما تزال تشهد حتى الآن، أعمال عنف واسعة النطاق. واعتاد السكان المحليون على القول إن «إتونتون مدينة صغيرة تضج بالعنف»، فيما ذهبت أدراج الرياح جميع الجهود الأخرى الرامية إلى تفسير بعض الكوارث التي وقعت مؤخراً. السود هناك، كما هو حالهم في أماكن عديدة من العالم، عبارة عن مستعمرة مضطَهدة، وقال أحد كتّابنا الأميركيين العظام من ذوي الأصول الأفريقية (وأقتبس عنه)، إن السود وفي غمرة يأسهم وغضبهم يقتلون بعضهم بعضاً. ولكني طرحت سؤالاً حول ما الذي سيحدث إن استطعت إطلاع الناس في المستعمرة المضطهدة على عبثية هذا؟ على أي حال، ربما تعرضت في مسقط رأسي لممارسات عنيفة فاقت تلك التي تعرض لها كثر لأنني واظبت على زيارة مدافن السود المحليين عدة مرات في الأسبوع. عملت كجليسة أطفال لدى أحد الجيران، وعملت شقيقتي في المدافن نفسها كاختصاصية وخبيرة تجميل. واتخذت أحد أركان القاعة

لتنكبّ على غسل شعر الأحياء وتصفيفه وتجعيده، وفعلت الشيء ذاته للجثامين التي لا حصر لها القابعة في الركن المقابل من القاعة. كما جمّلت وجوههم وأحياناً أجسادهم، وبذلت قصارى جهدها لتغطية الكدمات والجروح الناجمة عن إطلاق النار والخدوش والدموع، مستعينة بترسانتها من الحيل السحرية المكوّنة من مختلف أنواع المساحيق والطلاء.

لكن رغم عجزها عن فعل الكثير للضحية التي نسجت هذه الحكاية اعتماداً على قصة موتها، ورغم حاجتها الملحّة للبوح بمكنونات نفسها المشحونة بالغضب والإحباط، كما أحسب، (لم تبح قط بمشاعرها)، دعتني إلى الغرفة التي سُجي فيها جثمان السيدة ووكر (لها نفس اسم عائلتنا)، على طاولة ذات ميناء أبيض، بينما ارتاح رأسها على وسادة حديدية. وصفتها في الرواية كما رأيتها تماماً. بعد مرور سنوات عديدة، كانت الكتابة عنها سبيلي الوحيد للتخلص من تلك الصورة المهيمنة المحبطة. ومع ذلك، لا أرى وجهها الآن على الهيئة المتشظية التي كان عليها حينئذٍ- فقد ساعدني الزمن على طمس وضوح ذلك المشهد، لكن لا تفارقني صورة القدمين وجلدهما القاسي، وصورة الحذاء المهترئ المخلوع البالي المليء بالثقوب، وقد امتلأ أسفله بورق الجرائد.

وثمّة مفارقة أخرى ألا وهي أن ابنة السيدة ووكر كانت إحدى زميلاتي في المدرسة. كان اسمها كيت، أولم يكن هذا هو أيضاً اسم جدتي التي لقت مصرعها بعيارٍ ناري أطلقه عليها أحد «عشاقها»؟ وعلى من يا ترى ألقت العائلة بالمسؤولية في أحاديثها الهامسة؟ أعتقد أنني ولا بد أمضيت ما تبقى من السنة الدراسية أتمعّن في كيت وكأنها شبح. وعنَدما واسيتها وأعربت لها عن تعاطفي (يا له من تعبير جنوبي عذب للغاية «الإعراب عن التعاطف») بالكاد ردت على كلماتي، فقد أضناها ثقل الاعتناء بالمنزل وبأشقائها الكثر. كانت، على غراري، في الثالثة عشرة من عمرها. وصرختْ متسائلة إن كانت سلطات البيض المسؤولة

عن السجن، السلطات الوحيدة التي كانت موجودة حينها وربما حتى وقتنا الراهن، في ولاية إتونتون ستُفرج قريباً عن والدها. كان المعيل الوحيد للعائلة. يطاردني عنف والدها حتى اليوم، ولم أرغب قط برؤيته حراً طليقاً.

عانى أفراد عائلتي المقربون من العنف بدورهم. وتجسدت جذور العنف في حاجة والدي الدائمة للسيطرة على والدتي وأطفالها وفي مقاومتها (ومقاومتنا) اللفظية والبدنية، لأي نوع من أنواع التحكم والسيطرة. وأثناء مناقشتي لهذا الأمر مع زوجي، المنحدر من ثقافة مختلفة تماماً (أو هذا ما ظننته)، اكتشفت وجود ذات العنف في عائلته. ولدى رؤية جثمان السيدة ووكر مسجّى هناك على الطاولة البيضاء، أدركت أنها قد تكون بحق والدتي وأنها في علاقتها مع الرجال، كانت أيضاً رمزاً لكل النساء، ولا يشمل هذا فحسب جدة ووالدة زوجي، اللتين كانتا مختلفتين عن جدتي ووالدتي، كما حسبت، قدر الإمكان، وإنما رمزاً لي أيضاً. ولهذا أسميتها ميم في الرواية، تيمناً بالكلمة الفرنسية *la meme* *التي تعني «الأمر ذاته»*.

كيف لعائلة ومجتمع وعِرق وأمة والعالم بأكمله أن يكونوا أصحاء وأقوياء إن بسط نصفهم السيطرة على النصف الآخر من خلال التهديد والترهيب وأعمال عنف وحشية؟ أثناء إقامتي في الميسيسيبي، كان من السهل عليّ رؤية دور العنف العرقي متجسداً في استنزاف قوة وإبداع أمة بأكملها. كانت الميسيسيبي أفقر ولاية في أميركا، ولا يُعزى هذا لتدخل الحكومة الفيدرالية في شؤونها، ابتداءً من الحرب الأهلية، كما ينبري المدافعون البيض للقول حول السبب الكامن وراء فقر الولاية، وإنما لأن كل قطرة صغيرة من فائض الطاقة غير المستهلكة في الحياة اليومية، كانت تُزهق للمحافظة على الفصل النفاقي والاصطناعي الذي لا يمكن الدفاع عنه بشكلٍ أساسي بين الأعراق، مع هيمنة السود من خلال العنف. الضرب والتشويه والإعدام من دون محاكمة، والاعتقالات أو

السجن كانت كلها ممارسات يومية، كما هي الآن في مجتمع جنوب أفريقيا الملعون بالعنصرية. من المضحك المبكي اليوم أن نعتقد، ونحن نراقب كوكبنا المستغَل والمسموم والمستنزف يترنح تحت وطأة ثقلنا الجماعي، بأن العنصريين البيض فكروا فعلاً، وما زالوا يفكرون في بعض الأماكن، بأن بوسعهم التنعم بالسلام والأمن في العالم من خلال سلب الملونين حرياتهم.

كانت السيدة ووكر نصف العالم بالنسبة إلى أسرتها، كما يشكّل الملونون نصف سكان الكوكب. هل بإمكاني حث القارئ على إدراك هذه الحقيقة، ورؤية الصلة بين اضطهادها كامرأة (واضطهاد أطفالها)، واضطهادنا كبشر؟ هل يمكنني دفع القارئ ليهتم بالموضوع؟ هل الألم هو الثمرة اليتيمة التي نحصل عليها من اختبار المآسي التي يتمنى البعض رؤيتها. وما هي مسؤولية الكاتب إزاء من يسقط وإزاء المثيرين للشفقة والفقراء والرازحين تحت الاستغلال، وقد لفهم وشاح مربك من الصمت؟

«أرواحنا ملكنا، أليس كذلك؟»، يسأل العجوز الجميل غرانغ كوبلاند مخاطباً براونفيلد الذي لا يملك للأسف إجابة حاسمة عن هذا السؤال، تماماً مثل أي فيلق حالي لمجتمع مكوّن من متعاطي المخدرات ومروجيه. يماثل كرههم لذاتهم وإحساسهم بالعبثية كره براونفيلد لذاته، كما يطابق عنفهم ضد الآخرين، العنف الذي امتدت أذرعه إلى ما هو أبعد من أفراد العائلة لتطال شعوباً برمتها، وتهدد العالم بأسره.

في مجتمع يبدو فيه كل شيء قابلاً للتمدد والتوسع، ما الذي يمكن أن نبجّله ونحميه ببذل الغالي والرخيص وندفع حياتنا ثمناً له؟ أميل للاعتقاد، ومع الأسف، إلى أن ثمّة تقديراً عظيماً لقيمة الروح في مجتمع السود في الماضي أكثر من الآن، لقد أصبحنا نشبه مضطهدينا إلى حدٍ بعيد، نشبههم لدرجة تفوق طاقتنا على الإقرار بذلك. لطالما ردد أسلافنا تعبير «إن روحه ملكه» لوصف شخص ذي مكانة، وكان لهٰذا

معنى ووقْع ودلالة. امتلاك المال لا يشبه امتلاك السلطة ولا الشهرة ولا حتى «الحرية»، هذه الكلمات غير متشابهة على الإطلاق. وبوصفي الابنة الحتمية للناس الذين ترعرعت على أيديهم وأرشدوني ولمست فيهم أفضل الخصال وأسوأها، أؤمن من كل قلبي بضرورة المحافظة على الفضاء الداخلي مصاناً بالكامل، الفضاء الموهوب للجميع. أؤمن بالروح. وأكثر من ذلك، أؤمن أنها تحاسب المرء فورياً على خياراته، إنها قبول طوعي لمسؤولية المرء عن أفكاره وسلوكه وأفعاله، وهنا مكمن قوتها. اضطهاد الرجل الأبيض لي لن يكون أبداً شمّاعة وذريعة أتحصن بها لاضطهاد غيري، سواء كان رجلاً أم امرأة أم طفلاً أم حيواناً أم شجرة، لأن الذات التي فزت بها تأنف أن تكون ملكاً له، أو لغيره.

ثمّة أشخاص لا يمكن لهم أن يكونوا عبيدا أبداً، الكثير من أسلافنا العبيد كانوا غير عبيد. هذا جزء من اللغز والهبة التي ورثناها وأسهمت في حثنا على الصمود ومواصلة الطريق، لنسير على الدرب ذاته جيلاً بعد جيل. هذا هو الفهم الذي يحل أحجية وشيفرة حياة «الأرواح الناجية» في هذه الرواية، حياة غرانغ كوبلاند وحفيدته روث. إنها فهم لإمكانية مقاومة الهيمنة، فهم يمكن لجميع الناس تبنيه.

آليس ووكر

وايلد تريز

مقاطعة ميندوسينو

كاليفورنيا

تشرين الأول 1987

في مجتمع يبدو فيه كل شيء قابلاً للتمدد والتوسع، ما الذي يمكن أن نبجّله ونحميه ببذل الغالي والرخيص وندفع حياتنا ثمناً له؟ أميل للاعتقاد، ومع الأسف، إلى أنه ثمّة تقدير عظيم لقيمة الروح في مجتمع السود في الماضي أكثر من الآن، لقد أصبحنا نشبه مضطهدينا إلى حدٍ بعيد، نشبههم لدرجة تفوق طاقتنا على الإقرار بذلك. لطالما ردد أسلافنا تعبير «إن روحه ملكه» لوصف شخص ذي مكانة، وكان لهذا معنى ووقْع ودلالة. امتلاك المال لا يشبه امتلاك السلطة ولا الشهرة ولا حتى «الحرية»، هذه الكلمات غير متشابهة على الإطلاق. وبوصفي الابنة الحتمية للناس الذين ترعرعت على أيديهم وأرشدوني ولمست فيهم أفضل الخصال وأسوأها، أؤمن من كل قلبي بضرورة المحافظة على الفضاء الداخلي مصاناً بالكامل، الفضاء الموهوب للجميع. أؤمن بالروح. وأكثر من ذلك، أؤمن أنها تحاسب المرء فورياً على خياراته، إنها قبول طوعي لمسؤولية المرء عن أفكاره وسلوكه وأفعاله، وهنا مكمن قوتها. اضطهاد الرجل الأبيض لي لن يكون أبداً شمّاعة وذريعة أتحصن بها لاضطهاد غيري، سواء كان رجلًا أم امرأة أم طفلاً أم حيواناً أم شجرة، لأن الذات التي فزت بها تأنف أن تكون ملكاً له، أو لغيره.



ثمّة أشخاص لا يمكن لهم أن يكونوا عبيداً قط، الكثير من أسلافنا العبيد كانوا غير عبيد. هذا جزء من اللغز والهبة التي ورثناها وأسهمت في حثنا على الصمود ومواصلة الطريق، لنسير على الدرب ذاته جيلًا بعد جيل. هذا هو الفهم الذي يحل أحجية وشيفرة حياة «الأرواح الناجية» في هذه الرواية، حياة غرانغ كوبالند وحفيدته روث. إنها فهم لإمكانية مقاومة الهيمنة، فهمٌ يمكن لجميع الناس تبنّيه.

سألت غرانغ خلال إحدى السهرات: «هل تعتقد أن مساعيه ستثمر؟»، مشيرة إلى عيني الدكتور كينغ المنهكتين الشرقيتين، اللتين ظهرتا عبر الشاشة باردتين وخاليتين من أي عمق.

قال غرانغ: «كنت لأتفاءل أكثر لو ثمّة بارقة أمل في أن يصير رئيس البلاد يوماً ما. يقيني باستحالة ذلك يخفف من حلاوة مشاهدته. إنه رجل بحق»، واستطرد قائلًا: «بالطبع، لو كنت مكانه لتصرفت بطريقة مختلفة وقدّرت نفسي حق تقدير، لكني لا أولي نفسي الاهتمام اللازم، وجلّ ما أفعله الجلوس في هذا المكان الرتيب، لذا لا يحق لي فتح فمي والتشدق وإسداء النصائح. أكثر شيء يلفتني به هو أنه برغم تحقير البيض له، فإنه يتعامل بنبلٍ مع زوجته وأطفاله»

ISBN 978-2843-0917-1-1
9 782843 091711